التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأنعام

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٧

الطبعة الرابعة



٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني.
القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة الأنعام ، حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات محكمة ، ووصايا جليلة ، وحجج باهرة تقذف حقها على باطل الملحدين فتدمغه فإذا هو زاهق ، وتقيم الأدلة الساطعة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — وعلى صحة البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ فى تفسير هذه السورة الكريمة ، أن أقدم بين يديها تعريفاً لها ، أتحدث فيه عن زمان ومكان نزولها ، وعن طبيعة الفترة التى نزلت فيها ، وعن سبب تسميتها بهذا الاسم ، وعن مناسبتها لما قبلها وعن المقاصد والأهداف التى اشتملت عليها ، وعن فضائل هذه السورة الكريمة ومزاياها . .

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المؤلف

تمهيد بين يدى السورة

١ – متى نزلت سورة الأنعام ؟

سورة الأنعام عدد آياتها خمس وستون ومائة آية وهى أول سورة مكية من طوال المفصل بالنسبة لترتيب المصحف ، وتعتبر بالنسبة لهذا الترتيب السورة السادسة ، فقد سبقتها سور :الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة ، وهى سور مدنية باستثناء سورة الفاتحة .

أما ترتيبها فى النزول فقد قال العلماء : إنها السورة السادسة والخمسون ، وإن نزولها كان بعد نزول سورة « الحجر » .

ويغلب على الظن أن نزول سورة الأنعام كان فى السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة . وذلك لأن سورة الحجر التى نزلت قبيلها فيها آية تأمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بأن يجهر بدعوته وهى قوله – تعالى – « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »(١) .

ومن المعروف تاريخيا أن النبى – صلى الله عليه وسلم – مكث يدعو الناس سرا إلى عبادة الله زهاء ثلاث سنين ، ثم بدأت مرحلة الجهر بالدعوة فى السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمره الله بأن يصدع بما يؤمر به ، أى : يجهر بما يكلف بتبليغه للناس ، مأخوذ من صدع بالحجة إذا جهر بها .

قال ابن إسحاق عند حديثه عن مرحلة الجهر بالدعوة الإسلامية : « ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، ثم إن الله – تعالى – أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو إليه وكان بين

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٤ .

ما أخفى رسول الله — ﷺ — أمره واستتر به إلى أن أمره الله - تعالى - بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغنى - من مبعثه ، ثم قال الله - تعالى - له : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين(١) .

٢ — طبيعة الفترة التى نزلت فيها سورة الأنعام :

قلنا إن سورة الأنعام نزلت - غالبا فى السنة الرابعة من البعثة النبوية ، وهذه الفترة من تاريخ الدعوة الإسلامية كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك ، ففيها بدأ النبى — ﷺ — يجهر بدعوته ويصارح قريشا برسالته ، ويدعوهم بأعلى صوته إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبين لهم بجرأة ووضوح بطلان عقائدهم ، وسخافة تفكيرهم واعوجاجهم عن الطريق المستقيم .

وأخذ المشركون يدافعون عن معتقداتهم بكل وسيلة بعد أن رأوا الدعوة الإسلامية يزداد نورها يوما بعد يوم ، ورأوا أتباع النبى — ﷺ — يزيدون ولا ينقصون ، ويجهرون بتعاليم دينهم بعد أن كانوا يخفونها ويتحملون فى سبيل نشرها الكثير من ألوان التعذيب والترهيب .

وقد صور بعض العلماء طبيعة هذه الفترة التى كانت تجتازها الدعوة الإسلامية عند نزول سورة الأنعام فقال :

« وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة ، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذى صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء ، وأن تتحدى فى صوت عال ، ونداء جهير ، بعدما كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، والرسول — ﷺ —

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، جـ ١ ص ٢٧٤ طبعة المكتبة التجارية .

ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق ، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه ، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم ، وتسفيه لآرائهم ، وإنكار لآلهتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية . .

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها سافرة واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانهزامهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، بادعائهم كذب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم ملائكة ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ونسوا أن محمدا - ﷺ - عاش فيهم عمرا طويلا لم يقل فيه يوما قولة كاذبة ، ولم يخن فيه يوما أمانة أؤتمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

لم يفكروا شيئا من ذلك ولم يفكروا فيه ، ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة التى استعلنت بعد استخفاء ، وتحدت بعدما ظنوه بها من الاستخذاء ، يجب أن تموت فى مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

ورحبت الدعوة الإسلامية بهذا النضال ، وتحملت أعباءه وأثقاله ، وكان ذلك أول النصر ، لأن النور لا يظهر إلا بعد الاحتكاك . .

وأخذت سور القرآن فى هذه المرحلة تتلاحق ، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر ، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد ، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإعلان الدعوة والصدع بها ، هو سورة « الأنعام » ، فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ،

وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة(١) ".

وبذلك يتبين لنا أن ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد وأهداف وأحكام ومعتقدات يوافق كل الموافقة طبيعة المرحلة التى كانت تجتازها الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت .

٣ ـ أين نزلت سورة الأنعام :

يرى جمهور العلماء أن سورة الأنعام كلها مكية ، ويرى فريق منهم أنها كلها نزلت بمكة ما عدا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

ولعل الذى حمل أصحاب هذا الرأى على القول بأن هذه الآيات التسع مدنية ورود بعض الروايات بذلك ، وأنها آيات نزلت فى بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكاليف العملية ، وهى لهذا كانت أنسب بالمدينة .

والذى تطمئن إليه النفس وعليه المحققون من المفسرين أن سورة الأنعام قد نزلت كلها بمكة جملة واحدة ، ويشهد لما ذهبنا إليه ما يأتى :

(ا) كثرة الآثار التى صرحت بنزولها بمكة دفعة واحدة ، ومن هذه الآثار ما ورد عن ابن عباس أنه قال : لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد(٢) .

---

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ١٦ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدنى ـ رحمه الله ـ

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٢

(ب) المحققون من المفسرين عندما بدءوا فى تفسير سورة الأنعام صرحوا بأنها جميعها مكية ، وأنها قد نزلت جملة واحدة ، وتجاهلوا قول القائل إن فيها آيات مدنية .

فهذا — مثلا — الإمام ابن كثير ساق فى مطلع تفسيره لهذه السورة الروايات التى تثبت أنها مكية ، ولم يذكر رواية واحدة تثبت أن فيها آية أو آيات قد نزلت بالمدينة .

وابن كثير — كما نعرف — من الحفاظ النقاد الذين يعرفون كيف يتخيرون الروايات ، وكيف يميزون بين صحيحها وضعيفها .

(ج) الروايات التى اعتمد عليها القائلون بأن تلك الآيات التسع مدنية روايات فيها مقال ، ولم يعتمدها المحققون من العلماء ، فقد نقل السيوطى عن ابن الحصار قوله :

« استثنى من سورة الأنعام تسع آيات — مدنية — ولا يصح به نقل ، خصوصا وأنه قد ورد أنها نزلت جملة (١) .

(د) الذى يقرأ سورة الأنعام بتدبر يجد فيها سمات القرآن المكى واضحة جلية ، فهى تتحدث باستفاضة عن وحدانية الله ، وعن مظاهر قدرته ، وعن صدق النبى — صلى الله عليه وسلم — فى دعوته ، وعن الأدلة الدامغة التى تؤيد صحة البعث والثواب والعقاب يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المقاصد التى كثر الحديث عنها فى القرآن المكى .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن كبير فى تركيز الدعوة الإسلامية ، تقرر حقائقها ، وتفند شبه المعارضين لها ، واقتضت

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، جـ ١ ص ٢٨ طبعة مكتبة المشهد الحسينى سنة ١٣٨٧ هـ .

لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل - مع طولها وتنوع آياتها - جملة واحدة، وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء .

« ومن ذلك يتبين أنه لا مجال للقول بأن بعضها من قبيل المدنى، ولا بأن آية كذا نزلت فى حادثة كذا ، فكلها جملة واحدة نزلت بمكة لغاية واحدة ، هو تركيز الدعوة بتقرير أصولها والدفاع عنها(١) .

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن سورة الأنعام كلها مكية ، وأنها نزلت على النبى - صلى الله عليه وسلم - جملة واحده .

٤ — لماذا سميت بسورة الأنعام؟

الأنعام لفظ تطلق على ذوات الخف والحافر من الحيوان ، وهى - الإبل والبقر والغنم - وقد سميت سورة الأنعام بهذا الإسم ، لأنها فصلت الحديث عن هذه الأنواع بطريقة متعددة الجوانب ، متنوعة الأهداف .

وقد تكرر لفظ الأنعام فى تلك السورة ست مرات فى أربع آيات .

أما الآية الأولى فقد حكى القرآن فيها ما كانوا يفعلونه من قسمتهم الحرث إلى قسمين : قسم جعلوه لله يتقربون به إليه عن طريق إكرام الضيف ومساعدة المحتاج .

وقسم جعلوه لآلهتهم فذبحوه على الأنصاب ، وأنفقوا منها على سدنتها وخدمها ، ثم هم بعد ذلك العمل الباطل لا يعدلون فى القسمه ، يجورون أحيانا على القسم الذى جعلوه لله ؛ بينما يتحرزون عن الجور على القسم الذى جعلوه لشركائهم .

---

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٤٠١ طبعة دار القلم .

قال تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهـذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون »(١) .

وأما الآية الثانية فقد ورد فيها لفظ « الأنعام » ثلاث مرات ، وقد كشف القرآن فيها عن بعض أعمال المشركين المنكرة ، وهى أنهم جعلوا الأنعام ثلاثة أقسام :

قسما لا يأكل منه عند ذبحه إلا سدنة الأوثان والرجال دون النساء . وقسما يحرم ركوبه كالبحيرة والسائبة والحامى ، وقسما لا يذكرون اسم الله عليه عند الذبح وإنما يذكرون أسماء آلهتهم .

قال تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون »(٢) .

وفى الآية الثالثة تحدث القرآن عن لون من ألوان ظلمهم وجهلهم ، فقد كانوا يجعلون بعض ما فى بطون أنعامهم إذا نزل حياً كان خاصاً بالرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتاً فالرجال والنساء فيه شركاء .

قال تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »(٣) .

---

(١) الآية ١٣١
(٢) الآية ١٣٨
(٣) الآية ١٣٩ .

أما الآية الرابعة، فقد بين القرآن فيها جانباً من نعم الله على عباده، إذ جعل لهم من الأنعام أنواعا تذبح لينتفعوا بلحومها وشحومها وجلودها وأنواعا تحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

قال تعالى: «ومن الأنعام حمولة وفرشاً، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين»(١).

وهناك آيات أخرى سوى هذه الآيات السابقة تناول الحديث فيها أحكاماً أخرى تتعلق بالأنعام، وسنفصل القول فيها عند تفسيرنا لها ـ بعون الله ـ تعالى — .

ه — مناسبتها لما قبلها:

وقد جرت عادة بعض المفسرين أن يعقدوا مناسبة بين السورة وبين سابقتها، ولعل أكثرهم توسعاً في ذلك الإمام الآلوسي فقد قال: «ووجه مناسبتها لآخر المائدة أنها افتتحت بالحمد والمائدة اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان، كما قال ـ سبحانه ـ «وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين».

وقال الجلال السيوطي في وجه المناسبة: «أنه ـ تعالى ـ لما ذكر في آخر المائدة «لله ملك السموات والأرض وما فيهن» على سبيل الإجمال، افتتح ـ جل شأنه ـ هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله، فبدأ ـ سبحانه ـ بذكر خلق السموات والأرض، وضم ـ تعالى ـ إليه أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه ما فيهن، ثم ذكر أنه خلق النوع الإنساني وقضى له أجلا وجعل له أجلا آخر للبعث، وأنه ـ جل جلاله ـ منشىء القرون قرنا بعد قرن ثم قال ـ تعالى ـ «قل لمن ما في السموات والأرض إلخ». فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان. ثم قال «وله ما سكن في الليل والنهار» فأثبت أنه

---

(١) الآية ١٤٣.

ملك جميع المظروفات اظرف الزمان ، ثم ذكر - سبحانه - خلق سائر الحيوان من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة والموت ، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الإنشاء والخلق لما فيهن من النيرين والنجوم وفلق الإصباح وفلق الحب والنوى ، وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن »(١) .

هذا ، وقد عقد فضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله - مقارنة ضافية بين سورة الأنعام وبين ما سبقها من سور مدنية فقال ما ملخصه :

وأما السور الأربع المدنية التالية لسورة الفاتحة - والسابقة لسورة الأنعام - وهى سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، فهى بحكم مدنيتها تشترك كلها فى هدف واحد وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة ، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، وإلى الأساس الذى يرجعون إليه ويحكمونه فى التعامل معهم فى حالتى السلم والحرب ، وقلما تعرض هذه السور المدنية إلى شىء من شئون الشرك ومناقشة المشركين .

وهذه السور مع إشتراكها فى أصل الهدف العام ، تختلف قلة وكثرة فيما تتناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين ، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين .

إن سورة البقرة قد نزلت فى أوائل الهجرة ، قد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص ، وبذلك كان أمامها هدفان :

الأول : نظم يأخذ بها المسلمون أنفسهم فى عباداتهم ومعاملاتهم : شخصية ومدنية وجنائية .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٨ ص ٧٦ طبعة منير الدمشقى .

والهدف الآخر : إرشاد إلى طرق المناقشة فيما كان يجادرونهم يثيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات ، وقد تجلى هذان الهدفان بصورة واضحة فى سورة البقرة ، برز أحد الهدفين فى نصفها الأول، وبرز الهدف الثانى فى نصفها الأخير ، واقرأ فى الأول على وجه عام من قوله — تعالى — « يابنى إسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » (لآية ٤٠) إلى قوله — تعالى — : « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق . وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لنى شقاق بعيد » (الآية ١٧٧) .

واقرأ فى الهـــدف الثانى قوله — تعالى — : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » (الآية ١٧٧) إلى نهاية الآية ٢٧٣ : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة » .

وقد عرضت فى هذا السبح الطويل بعد أن أجملت أوصاف الصادقين فى إيمانهم المتقين فى أعمالهم لجملة من الأحكام التى تسوس الأمة فيما بينها .

عرضت القصاص ، والوصية ، والصيام ، والقتال ، وبعض أحكام الحج . . . إلخ .

ثم تجىء سورة آل عمران ، فتصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى فى قضية الألوهية ، وإلى كشف بعض صور التزييف التى كان يصطنعها أهل الكتاب إخفاء لحق الإسلام ودعوته .

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، ويقيهم شر الوقوع فى مخالب الأعداء وترسم لهم فى ذلك الطرق الحكيمة التى تجعل منهم قوة الكفاح فى تأييد الحق وهزيمة الباطل . . .

وعلى أساس من مشاركة سورة النساء لزميلاتها المدنيات فى أصل الهدف تناولت الأمرين : تنظيم جماعة المسلمين ، ومناقشة أهل الكتاب فى موضوع

الألوهية والرسالة ، غير أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة . . .

ثم تجيء سورة المائدة فتأخذ سبيل أخواتها أيضاً ، فتشرع للمسلمين في خاصة أنفسهم ، وفي معاملة من يخالطون من أهل الكتاب ، مع الإرشاد إلى طرق حاجتهم والتنبيه على أخطائهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه . وتذكيرهم بسيئاتهم مع أنبيائهم . وقد استغرق ذلك معظم السورة . . .

أما سورة الأنعام فإنها لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التي تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها .

فهي أولا : لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج في العبادات ، والعقوبات في الجنايات ، والمداينة والربا في الأموال ، وأحكام الأسرة في الأحوال الشخصية .

وهي ثانياً : لم تذكر في قليل ولا كثير شيئاً يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام .

وهي ثالثاً : لم تتحدث في شيء ما عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك لم تتحدث عن طوائف المنافقين ولا عن اخلاقهم السيئة ومسالكهم المظلمة .

وهي رابعاً : لا نجد فيها مع ذلك كله نداء واحدا للمؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان ، لا نجد فيها شيئاً من هذا كله كما وجدناه جميعاً في السور الأربع السابقة ، وإنما نجد الحديث فيها يدور بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة ، ونجد سلاحها في ذلك ، الحجة المتكررة ، والآيات المصرفة ، والتنويع العجيب في طرق الإلزام والإقناع : تذكر توحيد الله في الخلق وفي الإيجاد ، وفي العبادة والتشريع ، وتذكر موقف المكذبين وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الرسالة، وتذكر يوم البعث والجزاء . . .

ولعلنا بعد هذا نلمس الفرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام ، ومنهج السور الأربع المدنية قبلها . . . »(١) .

٦ — عرض عام لسورة الأنعام :

عندما نفتح كتاب الله لنتدبر ما اشتملت عليه سورة الأنعام من مقاصد حكيمة ، وتوجيهات نافعة ، نراها فى مطلعها قد ابتدأت بحمد الله والثناء عليه وبيان استحقاقه لذلك ، لأنه — سبحانه — هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما ، وهو العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال تعالى : « الحمـــد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ۝ هـــو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون ۝ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

ثم تحدثت السورة الكريمة عن طبائع المعاندين ، وأنذرتهم بسوء المصير إذا ما استمروا فى عتوهم وجحودهم ، وساقت لهم — ليعتبروا ، ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم والذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً ، فعليهم أن يفيئوا إلى رشدهم حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم .

إستمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ المؤثر ، فيقول تعالى : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٦٢ وما بعدها . لفضيلة الشيخ محمود شلتوت طبعه دار القلم .

معرضين . فقد كذبوا بالحق لمـــا جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ، مالم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » .

ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — فترسم صورة عجيبة لمكابرة المشركين وانهم قد غدوا لانطماس بصيرتهم واستيلاء الجحود على قلوبهم لا يجدى معهم توجيه أو دليل ، حتى أنهم لو نزل عليهم كتاب من السماء فلمسوه بايديهم ، وقرأوه باعينهم ، وعرفوا منه صدق نبوتك يامحمد ، لقالوا بعد كل ذلك « إن هذا إلا سحر مبين » .

قال تعالى : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـــذا إلا سحر مبين . وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

فإذا ما وصلنا إلى الربع الثانى من سورة الأنعام ، ألفيناها تسوق حشودا من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته بطريقة تحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، وبأسلوب يسكب فى القلوب السكينة والطمأنينة ، ويقنع العقول السليمة بأن المستحق للعبادة والخضوع إنما هو الله وحده .

« قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » .

ثم ذكرت السورة بعد ذلك حال المكذبين بيوم القيامة . فوضحت أنهم فى هذا اليوم الهائل الشديد ينكرون أنهم كانوا مشركين ولكن هذا الإنكار لن ينفعهم شيئا لأن الذى يخاطبهم هو العليم الخبير .

« ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

ثم تمضي الآيات في الحديث عن مشاهد يوم القيامة ، فتصور حسرتهم وندمهم عندما يقفون على النار التي كانوا يكذبون بها في الدنيا ، وعندما يقفون أمام ربهم الذي كانوا يشركون معه آلهة أخرى فتقول :

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

ثم بعد هذا التصوير المؤثر لأحوال المشركين يوم القيامة ، يتركهم القرآن مؤقتاً ليوجه خطابه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مسليا له ، ومثبتا لقلبه ، وداعيا إياه إلى الصبر على تحمل الرسالة بدون كلل أو ملل ، وإلى التأسي بمن سبقوه من أولى العزم من الرسل .

قال تعالى : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبإ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

أما الربع الثالث من السورة الكريمة فقد افتتح ببيان أن الذين يستجيبون لدعوة الحق إنما هم الذين يسمعون ويتعظون وهم الأحياء حقا، أما من ماتت قلوبهم فصارت لا تنفتح للحق، ولا تتقبل الهداية فإن مصيرهم إلى الله، فهو — سبحانه وتعالى — سيجازيهم بسبب جحودهم وعنادهم ومطالبتهم لنبيهم بالمطالب المتعنتة التى لا فائدة من ورائها.

قال تعالى: «إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله، ثم إليه يرجعون. وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه. قل: إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون».

ثم تدعوهم السورة بعد ذلك بأسلوب تلقيني إنذاري إلى التفكر والتدبر فى مظاهر قدرة الله وتبين لهم بطريقة منطقية مقنعة أن الله وحده هو القادر على سلب أسماعهم وأبصارهم، وهو القادر على إنزال العذاب بهم أو رفعه عنهم. استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه الفريد فيقول:

«قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون».

ثم يقول: «قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به. أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون. قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون».

ثم وضحت السورة أن وظيفة الرسل إنما هى التبشير للمتقين والإنذار للمكذبين وأن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يقل لهم إنى أملك خزائن الأرض ، أو إنى أعلم الغيب ، أو إنى ملك من الملائكة . وإنما قال لهم : إنى بشر مثلكم أتبع ما يوحى إلى من ربى ، والناس مختلفون بعد ذلك فى تلقى نور الوحى ، وجزاؤهم على حسب حالهم وعملهم ، فلا يستوى المحسن والمسىء كما لا يستوى الأعمى والبصير :

قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

ثم تمضى السورة فى سرد توجيهاتها وحكمها فتسوق البشارة للمؤمنين الذين اقترفوا بعض السيئات ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، كما تسوق الإنذار الحاسم للمشركين الذين لم يتبعوا الطريق القويم فتقول :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم . وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » .

ثم يمضى السياق مع المكذبين المستعجلين بالعذاب فيطلعهم ويطلع غيرهم فى الربع الرابع من السورة على صورة شاملة لعلم الله الواسع ، وقدرته النافذة ، وحكمته الحكيمة ، ويطوف بهم فى مجاهل الغيب الذى لا يعلمه إلا هو ، وفى عالم البر والبحر الذى لا يخرج منه شىء عن إرادته ، وفى ظلمات الأرض المخبوءة التى لا يحيط بها إلا علمه ، ثم يريهم كيف أنهم محكومون

بإرادته . وأن حركاتهم وسكناتهم مردها إليه ، وأنهم فى ساعة الشدة والكرب لا يلوذون إلا بحماه .

تدبر كتاب الله وهو يحكى كل ذلك بطريقته المقنعة للعقل والعاطفة فيقول :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

وبعد هذا البيان الذى تعددت مظاهر عظاته وعبره ، وتنوعت ألوان هداياته وإرشاداته اتجه القرآن بالخطاب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقول له مسلياً ومثبتاً : إن قومك قد كذبوك مع أن ما معك هو الحق المبين قل لهم :

« لست عليكم بوكيل ، لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

ثم يأمره ويأمر كل من يتأتى له الخطاب بالإعراض عن الجاهلين الذين يخوضون فى آيات الله بغير علم فيقول :

« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ، وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون » .

ثم تبدأ السورة فى الربع الخامس منها جولة جديدة لتثبيت العقيدة السليمة فتسلك طريق القصة ، وتتخذ من إبراهيم أبى الأنبياء نموذجا لاستقامة الفطرة ، وسلامة التفكير وحسن الإدراك ويقظة العقل ، فقد رأى إبراهيم — عليه السلام — بفطرته النقية أن الأصنام لا يعقل أن تكون آلهة . وخاطب أباه وقومه بذلك ، واعتبرهم بهذا الإشراك فى ضلال مبين ، ثم اتجه إلى التعرف على الإله الحق فتخيله فى كوكب ، ولكنه حين أفل وزال قال : « لا أحب الآفلين » ، لأن الإله الحق لا يغيب ولا يزول . ثم ظن الألوهية فى ذلك القمر الذى ينسكب نوره فى الوجود فيضىء الليل البهيم ، ولكنه رأى القمر — أيضاً — يأفل ويغيب فأعرض عن اتخاذه إلها والتمس من الإله الحق أن يهديه إلى الصراط المستقيم .

فلما أصبح الصباح ورأى الشمس وقد أشرقت وعم ضوؤها الآفاق قال : « هذا ربى » ، لأنها أكبر مصادر الضوء ، فلما غابت الشمس أدرك بفطرته السليمة أن الإله لا يغيب ولا يكون شيئا محسوسا ، فقرر البراءة من الشرك ،

سواتجه إلى الخالق الحق الذى تدل آثاره على وجوده وعلى مخالفته لمخلوقاته، فقال : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » . ثم أخذ بعد ذلك يجادل قومه ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، ويقيم لهم الأدلة على بطلان معتقداتهم .

تأمل معى — أيها القارىء الكريم — تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل هذه المعانى بأسلوبها البديع فتقول :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

ثم مضت السورة الكريمة فى الحديث عن رسل الله الذين آتاهم الله الحجة على أقوامهم ، وختمت الحديث عنهم بالثناء عليهم ووجوب الاقتداء بهم فى هديهم وسلوكهم .

أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين

هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

وبعد هذا القصص المذكر ، والتوجيه المنبه ، والتدليل الواضح على وحدانية الله وقدرته ساقت لنا السورة فى الربع السادس منها حشوداً متنوعة من مظاهر قدرة الله ومن نعمه التى لا تحصى على عباده . إنها هنا توقفنا أمام هذا الكون الرائع البديع لتقول لنا : انظروا ماذا فى السموات والأرض ، ثم اتجهوا بالعبادة والخضوع إلى الله رب العالمين ، فهو الذى فلق الحب فكان منه النبات ، وفلق النوى فكان منه الشجر ، وهو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهو الذى يأتيكم بالضياء بعد الليل المظلم لكى تبتغوا من فضله ، ويأتيكم بالليل بعد النهار لكى تسكنوا فيه بعد طول الكدح والعناء ، وهو الذى يسير الشمس والقمر بتقدير دقيق وحساب لا يتخلف ، وهو الذى زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، وهو الذى أوجدكم جميعاً من نفس واحدة لها مستقر فى أصلاب الرجال ومستودع فى أرحام النساء . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شىء . لأن الماء قوام الحياة .

إستمع إلى القرآن وهو يحكى كل هذه النعم الدالة على قدرة الله وفضله فيقول :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس

واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

وبعد أن ساق القرآن كل هذه النعم التى أسبغها الله على الناس ، والتى من شأنها أن تجعلهم يخصونه بالعبادة والاستعانة ، بعد كل ذلك صرح بأنه — مع كل هذه النعم — أضحى الكثيرون من خلقه يشركون معه آلهة أخرى ، ويزعمون أن له بنين وبنات . .

ولقد رد القرآن على هؤلاء الجاحدين بالحجة البالغة التى تدمغ باطلهم وتخرس ألسنتهم ، وتنزه الخالق — عز وجل — عما قالوه وافتروه بغير علم فقال :

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

ثم تتابع فى الربع السادس منها حديثها عن المتكابرين الذين لم يكتفوا بالقرآن معجزة للنبى — صلى الله عليه وسلم — ، بل طلبوا منه — على سبيل

التمست - معجزات أخرى حسية ، فتحكى السورة أقوالهم وترد عليهم بما يفضح أكاذيبهم ، لأنهم لعنادهم وجحودهم لو أن الله — تعالى — أجاب لهم مطالبهم ما كانوا ليؤمنوا ، إذهم لا تنقصهم الآيات الدالة على صدق النبى — صلى الله عليه وسلم — وإنما الذى ينقصهم هو القلب المنفتح للحق ، والنفس المتقبلة للهداية .

قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ثم تستطرد السورة الكريمة فتحكى بعض رذائل المشركين فى مآكلهم وذبائحهم ، وتنهى المؤمنين عن الأكل من الذبائح التى لم يذكر اسم الله عليها إلا فى حالة الاضطرار ، ثم تغرس فيهم خلق الحياء من الله فتأمرهم أن يتركوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ثم تبين لهم أن المشركين سيثيرون الشكوك والشبهات حول عقيدتهم فعليهم أن يهملوا مجادلاتهم وأن يتركوهم فى طغيانهم يعمهون :

قال تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم

وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

ثم تضرب السورة الأمثال للكفر والإيمان ، فتشبه الكفر بالموت وتشبه الإيمان بالحياة ، فكما أنه لا يتساوى الميت مع الحى ، فكذلك لا يتساوى الضال الذى هو كالميت مع المؤمن الذى يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به فى الناس ، ثم تبين أنه من دأب الجاحدين والحاقدين محاربة الحق ، وأنه ليس بغريب أن يحارب زعماء قريش الدعوة الإسلامية لأنهم يحسدون صاحبها على ما آتاه الله من فضله ، ويطلبون أن تكون النبوة فيهم مع أن النبوة هبة من الله يهبها لمن يشاء من عباده ، وأنهم بسبب هذا الحقد سيصيبهم عذاب شديد من الله — عز وجل — .

قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين

لا يؤمنون . وهـــذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

فإذا ماوصلنا إلى الربع الثامن من سورة الأنعام ، رأيناها تعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، تعرض مشهد الحشر للجن والإنس وهم يتناقشون ويتلاومون ويتحسرون ، ولكن ذلك لن يفيدهم لأنهم قد وسوس بعضهم إلى بعض زخارف من الأباطيل والأكاذيب . تعرض مشهدهم عندما يقفون أمام ربهم فيسألهم : « ألم تأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ؟ وهنا لا يملكون ، إلا الشهادة على أنفسهم بأن الرسل الكرام قد بشروهم وأنذروهم ، ولكن الشيطان هو الذى استحوذ عليهم فجعلهم يستحبون العمى على الهدى .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هـــذا المشهد بأسلوبه الرائع فيقول :

« ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النـــار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

ومع أن السورة الكريمة قد تعرضت - فيما سبق منها - بصورة موجزة للأباطيل التى كان يتبعها المشركون فى ذبائحهم ومآكلهم ومشاربهم، إلا أنها هنا - فى أواخر الربع الثامن وفى معظم الربع التاسع - قد أفاضت القول فى استعراض رذائل المشركين التى تتعلق بنذورهم ومطاعمهم وذبائحهم وما أحلوه وماحرموه، وذلك لأن السورة الكريمة تريد أن تنقى العقيدة الإسلامية من كل ما كان سائداً فى الجاهلية من معتقدات باطلة، وأفعال قبيحة، وتقاليد وثنية موروثة، وعادات جاهلية مرذولة، فتحدثت عن أوهامهم التى منها أنهم جعلوا لله مما خلق نصيباً وجعلوا لآلهتهم نصيباً آخر ثم هم بعد ذلك لا يعدلون فى قسمتهم مع بطلانها، بل تارة يأخذون من نصيب الله الذى هو للفقراء فيجعلونه لسدنة أصنامهم وخدامها. ومنها أن بعضهم كانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم لأن الشياطين زينت لهم ذلك. ومنها أنهم شرعوا لأنفسهم أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان . .

ولقد حكى القرآن بعض هذه الرذائل التى كانت متفشية فيهم، ووبخهم عليها ونهى المؤمنين عن سلوك مسالكهم فقال :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

ثم قال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك — فى الربع التاسع منها — إلى الحديث عن

الطيبات التى أحلها الله لعباده فى مآكلهم ومشربهم ، فذكرت ألوانا من النعم التى خلقها الله وأنشأها لعباده ، فقد أنشأ ـ سبحانه ـ الجنات المعروشات أى المرفوعات على ما يحملها كالأعناب وما يشبهها ، وأنشأ الجنات غير المعروشات كالبرتقال وغيره ، كما أنشأ الزروع والأشجار المختلفة الأنواع والثمار . . . وذلك كله لكى يقبل الناس على عبادة خالقهم ، ويشكروه على نعمه التى لا تحصى .

قال تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

ثم أخذت السورة تناقش المشركين فيما أحلوه وحرموه من الأنعام بأسلوب منطقى رصين ، يقيم عليهم الحجة ، ويكشف عن سخافة تفكيرهم وتفاهة عقولهم ، واتباعهم خطوات الشيطان فى تحريم بعضها وتحليل البعض الآخر ، فهذه الأنعام ثمانية أزواج ، من الضأن اثنان ، ومن المعز اثنان ، ومن الإبل اثنان ، ومن البقر اثنان ، فلماذا حرم المشركون على أنفسهم بعضها دون بعض ؟ إن كان التحريم للأنوثه فعليهم أن يحرموا جميع الإناث ، وإن كان النوعين فعليهم أن يحرموها ، إذاً فتحريمهم لبعض الذكور دون بعض يدل على ضلال فى التفكير ، وجهالة فى الأحكام ، وافتراء على الله بغير علم .

استمع إلى القرآن وهو يحكى أوهامهم ثم يرد عليها بما يدمغها فيقول :

« ثمانيه أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم

إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ،

ثم صرحت السورة الكريمة أن ماحرمه الله على اليهود من المطاعم كان بسبب بغيهم ، وقساوة قلوبهم ، وأنهم وأمثالهم ـ الذين يتنصلون من تبعة الضلال ويحيلونها على مشيئة الله ـ كاذبون فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون ، وإلا فأين دليلهم على هذا التنصل ؟ وأين حجتهم على أن الله قد حرم هذا وأحل هذا ؟

لقد حكى القرآن مزاعمهم ثم فندها بالبراهين الدامغة ، والحجة البالغة فقال :

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع

أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

فإذا ما انتهينا إلى الربع العاشر - والأخير - من سورة الأنعام رأيناها تخاطب أولئك الذين أحلوا لأنفسهم ماحرمه الله وحرموا عليها مالم يأذن به فتقول لهم ولغيرهم « تعالو أتل ما حرم ربكم عليكم » ثم تسوق عشر وصايا رسمت للإنسان طريق علاقته بربه ، ووضعت الأساس المكين الذى يبنى عليه صرح الأسرة الفاضلة التى منها تتكون الأمة القوية الناجحة فى الحياة ، وأوصدت منافذ الشرور والآثام التى تصيب المسلم فى نفسه أو ماله أو عرضه ثم ذكرت أهم المبادىء التى تسمو بالمحافظة عليها الحياة الاجتماعية الكريمة ، وختمت هذه الوصايا ببيان أنها هى الصراط المستقيم الذى يجب على كل إنسان أن يتبع هداه حتى لا يزل أو يضل .

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه الوصايا الحكيمة فيقول :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وبعد أن ساقت السورة الكريمة هذه الوصايا الحكيمة اتجهت فى ختامها إلى دعوة الناس للعمل بكتاب الله الذى أنزله ليكون هداية ورحمة لهم ، وأنذرت الذين يعرضون عن هديه الحكيم بسوء العذاب ، وحثت كل عاقل على المبادرة إلى الإيمان بالله من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه الإيمان، ولا تنفع فيه الأعمال ، لأنه يوم جزاء وحساب ، وأمرت فى ختامها كل مسلم بأن يخلص عمله لله ، وأن يحمده على هدايته إياه إلى طريق الحق والرشاد، وبينت منزلة الإنسان فى هذا الوجود وحضته على أن يكون بقوله وعمله أهلا لهذه المنزلة السامية حتى ينال رضا الله .

وقد ساقت السورة فى ختامها كل هذه المعانى بأسلوب ساحر يخلب الألباب ، ويرقق القلوب ، ويصفى النفوس ، ويشيع فى وجدان المؤمن الأنس والبهجة والخوف والرجاء .

قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون . قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

هذه هى أهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة الأنعام ، ومنها نستخلص أن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها السورة الكريمة تتركز فيما يلى :

١ — إقامة الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، وأنه سبحانه ـ هو المستحق للعبادة والخضوع ، وأن شريعته وحدها هى التى يجب أن تكون مرجعنا فى كل ما يتعلق بعبادتنا ومعاملاتنا وسائر شئوننا .

٢ — إقامة الأدلة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته ، مع بيان وظيفته وتسليته عما يلاقيه من أعدائه .

٣ ـ إقامة الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون فيه على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٤ — تفنيد الشبهات التى أثارها المشركون حول هذه الأمور الثلاثة السابقة بأسلوب يقنع العقول ، ويهدى القلوب ، ويرضى العواطف ، ويحمل العقلاء على المسارعة إلى الدخول فى هذا الدين عن طواعية واختيار .

٢ — من فضائل سورة الأنعام ومزاياها :

تكاثرت الروايات فى بيان فضائل سورة الأنعام وأنها قد نزلت مشيعة بالملأ العظيم من الملائكة ، كما تكلم العلماء عن المميزات التى تميزت بها هذه السورة فى عرضها للحقائق التى اشتملت عليها .

وفى ذلك يقول الإمام الرازى : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة ، أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، والثانى : أنها شيعها سبعون ألفا من الملائكة ، والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين »(١) .

ويقول الإمام القرطبى : (هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة ،

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢ المطبعة الشرفية سنة ١٢٢٤ هـ .

لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين(١) . .) .

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت :

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن سورة الانعام قد عرضت ما عرضته فى أسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بتلك الكثرة فى غيرها من السورة :

أما الأسلوب الأول فهو أسلوب التقرير ، فهى تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرده بالملك والتصرف ، والقدرة والقهر ، فى صورة الشأن المسلم الذى لا يقبل الإنكار أو الجدل ، وتضع لذلك ضمائر الغائب عن الحس ، الحاضر فى القلب ، وتجرى عليه أفعاله وآثار قدرته ونعمته البارزة للعيان ، والتى لا يمارى قلب سليم فى أنه مصدرها ومفيضها وصاحب الشأن فيها :

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون) .

(وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون)

(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) .

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . . . ألخ)

هذا هو أحد الأسلوبين .

أما الأسلوب الثانى فهو أسلوب تلقين الحجة ، والأمر بقذفها فى وجه الخصم حتى تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه ، وتحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفلت منها ، ولا يجد بدا من الاستسلام لها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٨٢ . طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧م

ففى حجج التوحيد والقدرة يقول : (قل لمن ما فى السموات والأرض؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة) .

(قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم؟ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) .

(قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

(قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء) .

وفى حجج الوحى وبيان مهمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن الرسالة لا تنافى البشرية وفى إيمان الرسول بدعوته واعتماده فيها على الله ، وعدم اكتراثه بهم ، أو انتظار الأجر منهم يقول .

(قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم) .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك . . .) .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

وفى وعيدهم على التكذيب يقول : (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . . .) .

هذان الأسلوبان : (هو كذا) و (قل كذا) قد تناولا معظم ما تضمنته هذه السورة من الحجج وقضايا التبليغ ، وهما وإن جاءا فى غيرها من سور القرآن إلا أنهما وخاصة الأسلوب الثانى وهو أسلوب (قل كذا) لم يوجد فى غيرها بهذه الكثرة التى نراها فى هذه السورة ، وهما بعد ذلك : أسلوبان من أساليب الحجة القوية التى تدل على قوة المعارضين وإسرافهم فى المعارضة ، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التى تستخرج الحق من نفوسهم . .

ويدل الأسلوبان من جهة أخرى على أنهما صدرا فى موقف واحد ، وفى مقصد واحد ، لخصم واحد بلغ من الشدة والعتو مبلغاً استدعى من القوة .

القاهر تزويد المهاجم بعدة قوية تتضافر أسلحتها فى حملة شديدة يقذف بها فى معسكر الأعداء فتزلزل عمده، وتهد من بنيانه فيخضع للتسليم بالحق الذى يدعى إليه . .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية، ذات شأن كبير فى تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها، وتفند شبه المعارضين لها، واقتضت لذلك الحكمة الإلهية أن تنزل — مع طولها وتنوع آياتها — جملة واحدة وأن تكون ذات امتياز خاص لا يعرف لسواها كما قرره جمهور العلماء اهـ(١).

وبعد: فهذا تمهيد بين يدى تفسير سورة الأنعام، تعرضنا خلاله لبيان مكان نزولها، ولبيان الفترة الزمنية التى نزلت فيها، ولطبيعة هذه الفترة، ولسبب تسميتها بهذا الاسم، ولمناسبتها للسور التى قبلها، وللأهداف الأجمالية التى اشتملت عليها، ولجانب من فضائلها ومزاياها . . .

ولعلنا بذلك — أيها القارىء الكريم — نكون قد قدمنا لك فكرة مجملة عن هذه السورة الكريمة تعينك على تفهم أسرارها، ومقاصدها، وتوجيهاتها، عند تفسيرنا لآياتها بشىء من التفصيل والتحليل. والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٣٩٨ طبعة دار القلم .

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

افتتحت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل هو رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .

وأل فى « الحمد » للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى ؛ وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله ، لأنه — سبحانه — هو الذى وفقهم لذلك . وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله تعالى : « الحمد لله » كما بين الفرق بين المدح والحمد والشكر فقال : « إعلم أن المدح أعم من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله ، وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا

«الفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان ثبت أن المدح أعم من الحمد ، وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد وهو أعم من الشكر . إذا عرفت هذا فنقول : إنما لم يقل المدح لله لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره . أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، فكان قوله الحمد لله تصريحا بأن المؤثر فى وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة . . . وإنما لم يقل الشكر لله ، لأنا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك ، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة ، فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة فأما إذا قال الحمد لله فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه — تعالى أوصل النعمة إليه ، فيكون الإخلاص أكمل ، واستغراق القلب فى مشاهدة نور الحق أتم ، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت »(١) .

هذا وفى القرآن الكريم خمس سور مكيه اشتركت فى الافتتاح بتقرير أن الحمد لله وحده ، ولكن كان لكل سورة منهج خاص فى بيان أسباب ذلك الحمد .

أما السورة الأولى فهى سورة الفاتحة التى تقول فى مطلعها « الحمد لله رب العالمين » .

أى : أن الحمد لله وحده ، الذى ربى هذا العالم تربية خلقية أساسها الإيجاد والتصوير ، ورباه تربية عقلية أساسها منح قوى التفكير والإدراك ، كما أنه رباه تربية تشريعية قوامها الأحكام التى اوحى بها إلى رسله فقربط استحقاق

(١) تفسير مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٣ للفخر الرازى المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٢ هـ

لحمد لله بربوبيته للعالمين ، والربوبية المطلقة تنتظم التربية الخلقية جسمية عقلية ، عن طريق الإيجاد والتصوير ، كما تنتظم التربية التشريعية التي ساسها الأحكام التي أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله .

وتجيء بعد سورة الفاتحة في الترتيب المصحفي سورة الأنعام فأثبتت أيضاً ستحقاق الحمد لله وحده ، لأنه « خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات النور » ، فهي تهتم بالحديث عن نوع خاص من التربية ، وهو التربية الخلقية تي أساسها الخلق والإيجاد والتسوية والتصوير الحقيقي .

ثم تجيء بعدهما سورة « الكهف » فتثبت أن الحمد لله ، لأنه « أنزل على بده الكتاب ولم يجعل له عوجا » فتراها تهتم بإبراز التربية التشريعية التي نب الروح ، وتهدى الفكر .

والسورة الرابعة التي افتتحت بإثبات أن « الحمد لله » هي سورة سبأ ، لأنه سبحانه — « له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو لحكيم الخبير » ، ثم تراها بعد ذلك زاخرة بالحديث عن أنواع التربية المطلقة ى تتجلى في ارساء مظاهر علم الله الشامل ، وملكه المطلق ، وتدبيره المحكم ، رته النافذة التي تجعله أهلا لكل حمد وثناء .

أما السورة الخامسة فهي سورة فاطر ، فقد أثبتت في مطلعها أن الحمد لله ، نه « فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا ، أولى أجنحة مثنى لاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » والذى يقرأ ه السورة الكريمة بتدبر يراها تهتم بإبراز إثبات أن الحمد لله وحده عن يق الجمع بين التربيتين الخلقية والتشريعية فهي تذكر خلق السموات لأرض والجبال وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر . . كما تذكر اع الناس في الانتفاع بوحى الله ، وبهدى أنبيائه ورسله .

وهكذا نجد أن السور الخمس قد اشتركت في أنها افتتحت بجملة « الحمد لله »

وفى قصر الحمد والثناء عليه وحده . إلا أن كل واحدة منها قد سلكت منهجا خاصا فى تقرير هذه الحقيقة ، وفى إقامة الأدلة على صدقها .

وقد أحسن القرطبى عندما قال : « فإن قيل : قد افتتح غيرها - أى سورة الأنعام - بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره ؟ فيقال : لأن لكل واحدة منه معنى فى موضعه ، لا يؤدى عن غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة وأيضاً فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون »(١) .

ثم بين القرآن بعد ذلك الأسباب التى تحمل العقلاء على أن يجعلوا حمدهم كله لله — تعالى — فقال :

« الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » .

والمعنى : الحمد كله لله الذى أنشأ بقدرته هذه العوالم العلوية والسفلية ، وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة ، وظاهرة وخافية وأحدث ما يتعاقب عليها من تحولات وتقلبات ونور وظلمات . فالجملة الكريمة قد اشتملت على صفتين من صفات الله — تعالى — تثبتان وجوب استحقاق الحمد الكامل لله - عز وجل - وهما خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .

وعبر - سبحانه - فى جانب السموات والأرض بخلق ، وفى جانب الظلمات والنور بجعل ، لأن الخلق معناه هنا الإنشاء والإيجاد الابتدائى من العدم ، أما الجعل فيتضمن معنى تكوين شىء من شىء أو من أشياء فالظلمات تتولد من اختفاء الشمس عن الأرض ، والنور يتكون من بزوغ الشمس على الأرض ، وهذه التقلبات الكونية هى بتقدير الله العزيز العليم .

قال صاحب الكشاف : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٨٤ طبعة دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧م .

التقدير ، وفى الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك «وجعل منها زوجها» وجعل «الظلمات والنور» ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، النور من النار »(١) .

وقال الفخر الرازى : « وإنما حسن لفظ الجعل هنا ، لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر »(٢) .

وقال أبو السعود : « والجعل هنا هو الانشاء والإبداع كالخلق ، خلا أن ذلك — أى الخلق — مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة والتشريعى أيضاً كما فى قوله — تعالى — (ما جعل الله من بحيرة . .)(٣) .

وقد وردت نصوص تصرح بأن الأرض سبع طبقات كالسموات . إلا أنها فى كثير من المواضع القرآنية تفرد — أى الأرض — وتجمع السماء كما هنا ، لعظم السماء . ولإحاطتها بالأرض ، ولأنه لم يعرف أن الله — تعالى — قد عصى فيها ، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض ، بخلاف طبقات الأرض فإنها متصلة .

والمراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية ، كما أن المراد بالنور النور الحسى لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولأنهما إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان ، ولأن القرآن يستشهد

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣ للزمخشرى . طبعة دار الكتاب العربى بيروت .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٥ .

(٣) تفسير أبو السعود ج ٢ ص ٧٧ طبعة صبيح ،

عليهم بمقتضى ما يعلمونه من تفرده بالخلق وهم يعلمون تفرده ـ سبحانه ـ بخلق هذه الأشياء .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات ، ظلمات الشرك والكفر والنفاق ، وأن المراد بالنور ، نور الإيمان والإسلام واليقين ، وعلى هذا الرأى يكون المراد بهما معنويا لا حسيا .

قال صاحب المنار : قال الواحدى : والأولى حمل اللفظين عليهما ، واستشكله الرازى لأنه مبنى على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمختار عندنا جوازه ، وجواز استعمال المشترك فى معنييه أو معانيه إذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا ، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا فإن الجعل يشمل الخلق والأمر — أى الشرع — كما تقدم ، فيفسر جعل كل نور بما يليق به(١) .

وعبر القرآن فى جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بالإفراد لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته . أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة الغمام ، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها . ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها ، فهناك ظلمة الإنحراف ، وظلمة الأهواء ، والشهوات وطمس القلوب .

---

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٢٩٥ للشيخ رشيد رضا . طبعة دار المنار سنة ١٣٦٧ هجرية .

والنور واحد (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فالنور فى هذا واحد(١) .

ثم بين - سبحانه - الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من قضية الألوهية فقال (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

العدل : المراد به هنا التسويه ، فقال : عدل الشىء بالشىء إذا سواه به والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو الذى جعل الظلمات والنور ، فهو لذلك من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده وأن يخصوه بالحمد والثناء ولكن المشركين مع كل هذه الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته يساوى به غيره فى العبادة ، ويشركون معه آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة (الحمد لله) على معنى أن الله - تعالى - حقيق بالحمد على ما خلق من نعم ، وأوجد من كائنات ثم الذين كفروا يجحدون كل ذلك فيشركون معه آلهة أخرى .

ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة « خلق السموات والأرض» على معنى أن الله - تعالى - قد خلق الأشياء العظيمة التى لا يقدر عليها أحد سواه ، ثم إن المشركين بعد ذلك يعدلون به جماداً لا يقدر على شىء أصـــلا .

وجاء العطف « بثم » لإفادة استبعاد واستقباح ما فعله الكافرون. فانهم رغم البراهين الواضحة والداله على وحدانية الله وقدرته ، قد نزلوا بمداركهم إلى الحضيض فسووا فى العبادة بين الخالق والمخلوق .

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد ٥ السنة ٢٣ : تفسير سورة الأنعام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة :

قال القرطبى : قال ابن عطية : « فثم دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلق السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمنى ؟ ولو وقع العطف بالواو فى هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم » (١) :

ثم ساق القرآن فى الآية الثانية دليلا آخر على أن الله — تعالى — هو المستحق للعبادة والحمد ، وعلى أن يوم القيامة حق فتحدث عن أصل خلق الإنسان ، بعد أن تحدث فى الآية الأولى عن خلق السموات والأرض فقال :

« هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون » .

أى : هو الذى انشأ كم من طين ، ثم تعهدكم برعايته فى مراحل خلقكم بعد ذلك ، كما قال — تعالى — : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

وفى ذكر خلق الإنسان من طين ، دليل على قدرة الله وعظمته ، لأنه — سبحانه — هو الذى حول هذا الطين إلى بشر سوى مفكر ، يختار الخير فيهتدى ويختار الشر فيردى ، كما أن فيه تذكيراً له بأصله حتى لا يستكبر أو يطغى ، وحتى يوقن بأن من خلقه من هذا الأصل قادر على أن يعيده إليه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٨٧ .

قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

قال أبو السعود : (وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ماذكر من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها . لما أن محل النزاع بعثهم ، فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشئون أنفسهم أعرف ، والتعامى عن الحجة البينة أقبح)(١) .

وقال الجمل : (وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم - عليه السلام - وهو المخلوق منه حقيقة . لتوضيح منهاج القياس ، والمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس ، مع ما فيه من تحقيق الحق ، والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه — عليه السلام — منه . حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد البشر انطواء إجماليا ، فكان خلقه — عليه السلام — من الطين خلقا لكل أحد من فروعه)(٢) .

ثم قال - تعالى - « ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى - عنده » . الأجل فى اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره . والمعنى : أنه سبحانه - قدر لعبادة أجلين : أجلا تنتهى عنده حياتهم بعد أن عاشوا زمنا معينا ، وأجلا آخر يمتد من وقت موتهم إلى أن يبعثهم الله من قبورهم عند انتهاء عمر الدنيا ليحاسبهم على أعمالهم ، هذا هو الرأى الأول فى معنى الأجلين .

وقيل : المراد من الأجل الأول آجال الماضين من الخلق ، ومن الثانى

---

(١) تفسير أبى السعود - ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤ .

آجال الباقين منهم . وقيل المراد من الأول النوم ومن الثانى الموت . وقيل : المراد من الأول ما مضى من عمر الإنسان ومن الثانى ما بقى منه .

والذى نرجحه هو الرأى الأول لأسباب منها .

١ — أن من تتبع ذكر الأجل المسمى فى القرآن فى سياق الكلام عن الناس يراه قد ورد فى عمر الإنسان الذى ينتهى بالموت ، ومن ذلك قوله تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »(١).

وقوله ـ تعالى « .. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »(٢) .

٢ — أن الآية الكريمة مسوقة لإثبات وحدانية الله ولتقرير أن البعث حق ، فالمناسب أن يكون المراد بالأجل الثانى هو انتهاء عمر الدنيا وبعث الناس من قبورهم .

ولذا قال أبو السعود فى تضعيفه الآراء المخالفة للرأى الأول : « ومن ههنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت ، أو أن الأول اجل الماضين والثانى اجل الباقين ، أو أن الأول مقدار مامضى من عمر كل احد والثانى مقدار مابقى منه ؛ مما لا وجه له اصلا ، لما رايت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترئهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى . فحيث اريد به احد ماذكر من الأمور الثلاثة ففى أى شىء تمترون(٣) ؟ » .

---

(١) سورة النحل : الآية ٦١ .

(٢) سورة نوح الآية ٤ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٨٠ .

٣ — أن الرأى الأول هو الرأى المأثور عن بعض الصحابة ، وبه قال جمهور المفسرين ، وقد عزاه ابن كثير فى تفسيره إلى عشرة من التابعين(١).

وعطفت الجملة الكريمة بثم ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان المختلفة، فهو فى أصله من سلالة من طين ، ثم يصيره الله – تعالى – نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظاما ، ثم يكونه – سبحانه – وتعالى خلقا آخر . « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ووصف الأجل الثانى بأنه (مسمى عنده) ، لأن وقت قيام الساعة من الأمور التى لا يعلمها إلا الله ، قال – تعالى – : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة « يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون »(٢) .

وجاء قوله تعالى « واجل مسمى » مقدما على (عنده) لأنه مبتدا، والذى سوغ الابتداء به مع كونه نكرة تخصصه بالوصف فقارب المعرفة لذلك ، فهو كقوله – تعالى – « ولعبد مؤمن خير من مشرك » .

ومعنى (عنده) أى : فى علمه الذى لا يعلمه احد سواه ، فهى عندية تشريف وخصوصية .

ثم ختمت الآية الكريمة بتوبيخ الشاكين فى البعث والحساب فقال – تعالى — :

« ثم أنتم تمترون » . الامتراء : هو التردد الذى ينتهى إلى محاجة ومجادلة وقد ينتهى إلى شك ثم إلى إنكار . مأخوذ من مرى الضرع إذا مسحه للدر ووجه المناسبة فى استعماله فى الشك ، أن الشك سبب لا ستخراج العلم الذى هو كاللبن الخالص من بين فرث ودم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣ طبعة عيسى الحلبى .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .

والمعنى : ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن يوم القيامة حق ، تشكون فى ذلك ، وتجادلون المؤمنين فيما تشكون فيه ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وجاء العطف بثم لبيان التفاوت الكبير بين الحقائق الثابتة الناصعة ، وبين ما سولته لهم أنفسهم من المجادلة فيها .

قال الآلوسى : « والمراد استبعاد امترائهم فى وقوع البعث وتحققه فى نفسه مع مشاهدتهم فى أنفسهم من الشواهد ما يقطع مادة ذلك بالكلية فإن من قدر على إفاضة الحياة على مادة غير مستعدة لشىء من ذلك ، كان أوضح قتدارا على إفاضته على مادة قد استعدت له وقارنته مدة »(١) .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة فى الآيتين السابقتين على أنه هو المستحق للعبادة والحمد ، وعلى أن يوم القيامة حق ، جاءت الآية الثالثة لتصفه - سبحانه بأنه هو صاحب السلطان المطلق فى هذا الكون فقال تعالى - : « وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

أى : أنه - سبحانه - هو المعبود بحق فى السموات والأرض ، العليم بكل شىء فى هذا الوجود ، الخبير بكل ما يكسبه الإنسان من خير أو شر فيجازيه عليه بما يستحقه .

والضمير « هو » الذى صدرت به الآية يعود إلى الله - تعالى - الذى نعت ذاته فى الآيتين السابقتين بأنه هو صاحب الحمد المطلق ، وخالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، ومنشىء الإنسان من طين ، وأنه لذلك يكون مختصاً بالعبادة والخضوع .

وقوله - تعالى - : « وهو الله » جملة من مبتدأ وخبر ، معطوفه على ما قبلها « سيقت لبيان شمول ألوهيته لجميع المخلوقات .

---

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى ج ٧ ص ٨٨ طبعة منير الدمشقى .

قال أبو السعود : وقوله «فى السموات وفى الأرض» متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل إما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق ، كأنه قيل : وهو المعبود فيهما . وإما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال ، فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة ، فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل : وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما ، كما فى قوله - تعالى - : وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله(١) .

وجملة «يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون» تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن الذى استوى فى علمه السر والعلن هو الله وحده . ويجوز أن تكون كلاما مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم ، أو خبرا ثانيا .

ثم صور - سبحانه - طبيعة الجاحدين الذين هم - لا نطماس بصائرهم واصرارهم على العناد - غدوا لا يجدى معهم دليل ولا تنفع معهم حجة ، وساق لهم أخبار من سبقوهم . فقال - تعالى - :

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

والمعنى الإجمالى للآية الأولى : أن هؤلاء الجاحدين لرسالات الله ،

---

(١) تفسير أبو السعود جـ ٢ ص ٨٠ .

لا يأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على صدقك - يا محمد - فيما تبلغه عن ربك إلا تلقوها بالإعراض ، واستقبلوها بالنبذ والاستخفاف .

فالآية الكريمة ، كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله - تعالى - وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد . وامترائهم فى البعث ، وإعراضهم عن أدلته(١) .

و « من » الأولى لاستغراق الجنس الذى يقع فى حيز النفى ، كقولك : « ما أتانى من أحد » والثانية للتبعيض ، أى : مايظهر لهم دليل قط من الأدلة التى توجب النظر والتأمل والاعتبار ، إلا أهملوه وأعرضوا عنه . لقسوة قلوبهم وعدم تدبرهم للعواقب .

وإضافة الآيات إلى اسم الرب - عز وجل - تدل على تفخيم شأنها ، وعلى أن تكذيبهم لها إنما هو تكذيب لما عرفوا مصدره ، كما يدل على شدة عنادهم وإيغالهم فى الكفر والجحود .

والآية الكريمة بأسلوبها المتضمن الحصر ، وباشتمالها على كان وخبرها المفيد للدوام ، والاستمرار ، تفيد أن الإعراض عن الحق دأبهم ، وأنهم ليسوا على استعداد لتقبل الحق مهما اتضحت معالمه ، وأسفرت حججه .

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بالإعراض عن الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى التهكم بدعاته ، والتطاول عليهم ، وأنهم نتيجة لذلك المسلك الأثيم ستكون عاقبتهم خسرا فقال - تعالى - : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

فالآية الكريمة كشفت بأسلوب مؤكد عن جانب من عتوهم وسفههم وسوء أدبهم ، بعد أن كشفت سابقتها عن عنادهم ونأيهم عن الحق .

وقد بين الفخر الرازى مراحل تماديهم فى الباطل كما صورها القرآن فقال رحمه الله :

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٩١

« إعلم أنه ـ تعالى ـ رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب :

فالمرتبة الأولى : كونهم معرضين عن التأمل فى الدلائل والتفكر فى البينات.

والمرتبة الثانية : كونهم مكذبين بها ، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها ، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به ، بل يكون غافلا عنه غير متعرض له ، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض .

والمرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين بها ، لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه إلى حد الاستهزاء ، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى فى الإنكار ، فبين ـ سبحانه ـ أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب »(١) .

والمراد بالحق الذى كذبوا به : قيل إنه القرآن ، وقيل إنه المعجزات ، وقيل إنه الشرع الذى أتى به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقيل: إنه الوعد الذى يرغبهم به تارة ، والوعيد الذى يحذرهم بسببه تارة أخرى . .

والذى نراه أن تكذيبهم قد شمل كل ذلك ، لأنهم بعدم دخولهم فى الإسلام قد صاروا مكذبين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والتعبير بقوله « لما جاءهم » يفيد أن الحق قد وصل إليهم ، وطرق قلوبهم وأسماعهم ، ولكنهم عموا وصموا عنه .

والأنباء : جمع نبأ وهو ما يعظم وقعه من الأخبار ، والمراد بها فى قوله ـ تعالى ـ : « فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » الأخبار عن العذاب الذى توعدهم الله به عند إصرارهم على كفرهم ، ونظيره قوله ـ تعالى ـ: « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ١١ للفخر الرازى ، المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .

قال صاحب الكشاف : « فسوف يأتيهم أنباء « الشيء الذي » كانوا به يستهزئون ، وهو القرآن ، أي أخباره وأحواله ، بمعنى : سيعلمون بأي شيء استهزءوا ، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو في يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته »(١) .

ثم ساق القرآن لهم على سبيل النصيحة والإرشاد أخبار من سبقوهم في الكفر والبطر وبين لهم سوء عاقبتهم ليعتبروا ويتعظوا فقال — تعالى — :

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم . . . . »

قال القرطبي : « القرن الأمة من الناس والجمع القرون . قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم في عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أي عالم مقترن بعضهم إلى بعض ، وفي الحديث الشريف : « خير الناس قرني — يعني أصحابي — ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » فالقرن على هذا مدة من الزمان ، قيل : ستون عاما ، وقيل : سبعون ، وقيل . ثمانون ، وقيل مائة — وعليه أكثر أصحاب الحديث — أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لعبد الله ابن بسر : « تعيش قرنا » فعاش مائة(٢) .

والاستفهام الذي صدرت به الآية الكريمة لتوبيخ الكفار وتبكيتهم وإنكار ما وقع منهم من إعراض واستهزاء ، وهو داخل على فعل محذوف دل عليه سابق الكلام ولاحقه .

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٦ للزمخشري طبعة دار الكتاب العربي بيروت .
(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٩٠ .

والتقدير : أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله ، ولم يروا بتدبر وتفكر كم أهلكنا من قبلهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا .

وجملة « أهلكنا » سدت مسد مفعول رأى إن كانت بصرية ، وسدت مسد مفعوليها إن كانت علمية ، و « كم » مفعول مقدم لأهلكنا ، و « من قبلهم » على حذف المضاف ، أى : من قبل زمنهم ووجودهم .

قال صاحب المنار : « وكان الظاهر أن يقال » : مكناهم فى الأرض - أى القرون - ما لم نمكنهم ، أى الكفار المحكى عنهم المستفهم عن حالهم ، فعدل عن ذلك بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لما فى إيراد الفعلين بضميرى الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما ، وكون المثبت عين المنفى ، فقيل ما لم نمكن لكم(١) .

و « ما » فى قوله « ما لم نمكن لكم » يحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذى ، وهى حينئذ صفة لمصدر محذوف . والتقدير : مكناهم فى الأرض التمكين الذى لم نمكن لكم والعائد محذوف : أى الذى لم نمكنه لكم . ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها والعائد محذوف . أى : مكناهم فى الأرض شيئاً لم نمكنه لكم(٢) .

وفى تعدية الأول وهو « مكناهم » بنفسه والثانى وهو « نمكن لكم » باللام إشارة إلى أن السابقين قد مكنوا بالفعل من وسائل العيش الرغيد ما لم يتيسر مثله لهؤلاء المنكرين لدعوة الإسلام ، وهذا أعظم فى باب القدرة على إهلاك هؤلاء الذين هم أعجز من سابقيهم .

هذا ، وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين المعاصرين للنبى — ﷺ — .

---

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٣٠٧ للشيخ رشيد رضا .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٧ بتصرف وتلخيص .

وصفهم - أولا - بأنهم كانوا أوسع سلطانا ، وأكثر عمرانا ، وأعظم استقرارا ، كما يفيده قوله تعالى « مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم » .
قال صاحب الكشاف : « والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام ، والسعة فى الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا »(١) .

ووصفهم - ثانيا - بأنهم كانوا أرغد عيشا ، وأسعد حالا ، وأهنأ بالا ، يدل على ذلك قوله تعالى :

« وأرسلنا السماء عليهم مدرارا » أى : أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة ، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها .

ووصفهم - ثالثا - بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون ، فيبنون مساكنهم على ضفافها . ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - : « وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم » أى : صيرنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم .

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التى لم تتيسر لأهل مكة ؟ كانت عاقبتهم - كما أخبر القرآن عنهم - « فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » أى : فكفروا بنعمة الله وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك ، إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم .

« والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران : أحدهما ، أن الذنوب ذاتها تهلك الأمم ، إذ تشيع فيها الترف والغرور والفساد فى الأرض ، وبذلك تنحل وتضمحل وتذهب قوتها .

والمظهر الثانى : إهلاك الله - تعالى - لها عقابا على أوزارها(٢) » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦ .

(٢) تفسير سورة الأنعام لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ، بمجلة لواء الإسلام السنة ٢٢ العدد الخامس ص ٢٤٢ .

وقوله ـ تعالى ـ فى ختام الآية « وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » يدل على كمال قدرة الله ، ونفاذ إرادته ، وأن إهلاكه لتلك الأمم بسبب ذنوبها، لم ينقص من ملكه شيئا ، لأنه ـ سبحانه ـ كلما أهلك أمة أنشأ من بعدها أخرى .

قال ـ تعالى ـ « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم(١) » .

ثم بين القرآن توغلهم فى الجحود والعناد ، وانصرافهم عن الحق مهما قويت أدلته، وساق جانبا من أقوالهم الباطلة ثم رد عليهم بما يدحضها فقال ـ تعالى ـ :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

الكتاب فى الأصل مصدر كالكتابة ، ويستعمل غالبا بمعنى المكتوب ، فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف .

---

(١) سورة محمد الآية ٣٨ .

والقرطاس - بكسر القاف وقد تفتح وتضم في بعض اللغات - ما يكتب فيه سواء كان من رق أو من ورق أو من غيرهما : ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوبا .

والمعنى : إن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدقك يا محمد، ولكن الذي ينقصهم هو التفتح للحق ، والإنقياد للهداية ، فإننا لو نزلنا عليك كتابا من السماء في قرطاس - كما اقترحوا - فشاهدوه بأعينهم وهو نازل عليك ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض وباشروه بعد ذلك بجميع حواسهم بحيث يرتفع عنهم كل ارتياب ، ويزول كل إشكال . . . لو أننا فعلنا ذلك . استجابة لمقترحاتهم المتعنتة ، لقالوا بلغة العناد والجحود ما هذا الذي أبصرناه ولمسناه إلا سحر مبين .

فالآية الكريمة تصور مكابرتهم المتبجحة ، وعنادهم الصفيق، وإدبارهم عن الحق مهما تكن قوة أدلته ، ونصاعة حجته .

قال الإمام الرازي « بين الله - تعالى - في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به بل حملوه على أنه سحر . والمراد من قوله « في قرطاس » أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر »(1) .

و « لو » في الآية الكريمة حرف امتناع ، أي : أنه - سبحانه - قد امتنع عن إجابة مقترحاتهم لأنه يعلم أن إجابتها لا ثمرة لها ، ولا فائدة من ورائها ، لأن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وإنما الذي ينقصهم هو الاستجابة للحق والاتجاه السليم لطلبه ، والاستماع إليه بعناية وتفكير .

---

(1) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ١٢ .

وعبر - سبحانه - بقوله : « فلمسوه بأيديهم » . مع أن اللمس هو للمس باليد غالبا - للتأكيد وزيادة التعيين ، ودفع احتمال المجاز . فالجملة الكريمة المقصود بها تصوير فرط جحودهم ومكابرتهم ، وإعراضهم عن الحق مهما تكن قوة الدليل وحسيته .

وفى قوله - تعالى - « لقال الذين كفروا » إشارة إلى أن الكافرين وحدهم هم الذين بسبب كفرهم - ينتحلون الأعذار لضلالهم ، ويصفون الحق الواضح بأنه سحر مبين . أما المؤمنون فإنهم يقابلون الحق بالتصديق والأذعان .

وقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : « إن هذا إلا سحر مبين » ، فأكدوا حكمهم الباطل بطريق النفى والإثبات أى : أنه مقصور على أنه سحر - وبالإشارة إليه ، وبأنه بين واضح فى كونه سحراً ، وذلك يدل على أن تبجحهم قد بلغ النهاية ، وأن مكابرتهم قد كذبت ما شهدت بصدقه حواسهم وإن قوماً بهذه الدرجة من العناد لا تجدى فيهم معجزة ، ولا ينفع معهم دليل .

وفى معنى هذه الآية قد وردت آيات أخرى فى القرآن الكريم منها قوله - تعالى - « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون »(١) .

ومنها قوله - تعالى - ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »(٢) .

ثم حكى القرآن بعض مقترحاتهم المتعنتة ورد عليها بما يدحضها فقال :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ١٤ ، ١٥ .

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

أى : قال الكافرون للنبى — صلى الله عليه وسلم — هلا كان معك ملك يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك .

قال محمد بن إسحاق « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلده ، وعبد بن يغوث وأبى بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويروى معك » .

فهم لا يريدون ملكا لا يرونه ، وإنما يريدون ملكا يمشى معه ويشاهدونه بأعينهم .

وأسند — سبحانه — القول إليهم مع أن القائل بعضهم ، لأنهم جميعا متعنتون جاحدون ، وما يصدر عن بعضهم إنما هو صادر فى المعنى عن جميعهم لأن الباعث واحد ، ولولا هنا للتحضيض فلا تحتاج إلى جواب .

أى : وقال الكافرون للنبى - صلى الله عليه وسلم - هلا كان معك ملك يا محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك .

وقد رد الله تعالى - على قولهم هذا بردين حكيمين : أما الرد الأول فقال فيه : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » .

أى : لو انزلنا ملكا كما اقترح هؤلاء الكافرون وهم على ما هم عليه من الكفر والجحود ، لقضى الأمر بإهلاكهم ، ثم لا ينظرون ، أى : لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم ، أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك

والله - تعالى - لا يريد أن يهلك هذه الأمة التى بعث فيها خاتم رسله نبى الرحمة - صلى الله عليه وسلم - بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين المستكبرين .

وأما الرد الثانى فقال فيه : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

أى : لو جعلنا الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقتضى أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذى يبلغه عن الله - تعالى - وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة بشر - : لست ملكا لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً .

« ومعنى وللبسنا عليهم ما يلبسون » لخلطنا عليهم مثل ما يخلطون على أنفسهم بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم .

قال الإمام القرطبى : قوله تعالى «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا» لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى - الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والإتقاء له ، ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا : لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك ، وعادوا إلى مثل حالهم »(١) .

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن الكريم قد دحض شبهات أولئك الجاحدين ، وبين أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، قال تعالى : - (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى . .) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٩٤ .

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى — صلى الله عليه وسلم — عما أصابه من قومه فقال :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » ،

والمعنى : لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك ، فإن من شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين فى سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم ، ولقد أوذى من سبقك من الرسل الكرام ، وسخر الساخرون منهم ، فصبروا على ذلك ، وجاءهم فى النهاية نصرنا الذى وعدناهم به . أما أعداؤهم الذين استهزءوا بهم ، فقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(١).

فالآية الكريمة تهدف إلى تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — والترويح عن نفسه ، وتبشيره بحسن العاقبة وتثبيت قلبه حتى لا يتأثر أو يضعف أمام سفه المشركين وتطاولهم عليه .

والاستهزاء بالشىء : الاستهانة به ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره . وتنكير الرسل للتكثير والتعظيم ، والفاء فى قوله « فحاق » للسببية ، أى : بسبب هذا الاستهزاء برسل الله الكرام ، أحاط العذاب بأولئك المستهزئين فأهلكهم .

وقال — سبحانه — « فحاق بالذين سخروا » ولم يقل بالساخرين ، للإشارة إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنياً عليهم ، وإنما كان بسبب سخريتهم برسل الله والاستخفاف بهم : لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هى علة الحكم .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

وفى قوله ـ تعالى ـ : « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون» مجاز علاقته السببية ، لأن الذى حاق بهم هو العذاب المسبب عن الإستهزاء، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفك عنها ، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين .

ثم أمر القرآن النبى — ﷺ — أن يذكرهم بحال من سبقوهم عن طريق التطلع إلى آثارهم ، والتدبر فيما أصابهم . والاتعاظ بما حل بهم فقال ـ تعالى ـ :

« قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

أى : قل ـ يا محمد ـ لأولئك المكذبين لك ، المستهزئين بدعوتك ، لا تغتروا بما أنتم فيه من قوة وجاه ، فإن ذلك لا دوام له ، وسيروا فى فجاج الأرض متدبرين متأملين ، فسترون بأعينكم آثار أقوام كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا ، ولكن ذلك لم يمنع وقوع العذاب بهم حين بدلوا نعمة الله كفرا ، وحاربوا رسل الله والدعاة إلى دينه .

وقد ذكر القرآن الكريم فى سور متعددة أن آثار أولئك الأقوام المهلكين ، ما زال بعضها باقيا ، وأنها لتدعوا العقلاء إلى الاتعاظ والإعتبار فقال ـ تعالى ـ : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد»(١) .

وقال ـ تعالى ـ فى شأن قوم لوط : « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل ، أفلا تعقلون »(٢) .

وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطلب منهم

---

(١) سورة هود الآية ١٠٠ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

السير فى الأرض للتفكر والتدبر ، لأنهم كانوا يستهزئون به — ﷺ — فكانت المخاطبة منه لهم من قبيل النصيحة والتحذير .

وليس المراد مجرد النظر فى قوله « ثم انظروا » ، بل المراد منه التفكر والتدبر والاعتبار الذى يهدى إلى الإيمان ، ويعين على اتباع الصراط المستقيم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين قوله «فانظروا» وبين قوله « ثم انظروا » ؟ قلت : جعل النظر مسببا عن السير فى قوله «فانظروا» فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله « سيروا فى الأرض ثم انظروا » فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر فى آثار الهالكين ، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح(١) .

وقد علق الشيخ ابن المنير على عبارة صاحب الكشاف فقال : « وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحداً ، ليكون ذلك سببا فى النظر ، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية ، وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة » .

والذى نرجحه أن التعبير بثم هنا المفيدة للتراخى الإشارة إلى أن السير الذى هو وسيلة للتفكر مطلوب فى ذاته كما أن النظر الذى يصحبه التفكر والاعتبار مطلوب أيضاً ، وكأنه أمر بدهى نتيجة للسير ، أما التعبير بالفاء فى قوله « فانظروا » فلإبراز كون النظر مسببا عن السير ، ومترتبا عليه ، وكلا الأسلوبين مناسب للمقام الذى سيق من أجله ، ومتناسق مع البلاغة القرآنية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٨ .

ثم ساق القرآن الكريم ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته وعلى أنه هو المهيمن على هذا الكون ، فقال ـ تعالى ـ :

قُلْ لِمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتنبيه من الذى يملك السموات والأرض وما فيهما من إنس وجن وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات ؟ إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها ولا يستطيعون إنكارها أن جميع المخلوقات لله رب العالمين . قال ـ تعالى ـ « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ، فالمقصود بالاستفهام تبكيتهم على عنادهم ، وتنبيههم إلى ضلالهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم .

قال الإمام الرازى : وقوله : « قل لمن ما فى السموات والأرض » سؤال ، وقوله « قل لله » جواب . فقد أمره الله ـ تعالى ـ بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا ، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ فى الظهور إلى

حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع ، وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره وقدرته»(١) .

ثم قال ـ تعالى ـ : (كتب على نفسه الرحمة) أى : أوجب ـ سبحانه ـ على نفسه رحمته التى وسعت كل شىء والتى من مظاهرها أنه منح خيره ونعمه فى الدنيا للطائعين والعصاة ، وأنه سيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش ، إن رحمتى تغلب غضبى) .

وجملة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، يرى بعض العلماء أنها جواب لقسم محذوف أى : والله ليجمعنكم ، وجملة القسم والجواب لا محل لها من الإعراب ، وإن تعلقت بما قبلها من حيث المعنى وعلى هذا الرأى يكون الكلام قد تم عند قوله ـ تعالى ـ « كتب على نفسه الرحمة » .

ويرى الزجاج ومن شايعه أن جملة (ليجمعنكم) فى محل نصب بدل من الرحمة ، وفسر (ليجمعنكم) بمعنى أمهلكم وأمدلكم فى العمر والرزق مع كفركم ، فهو تفسير الرحمة ، كما قال ـ تعالى ـ فى السورة نفسها (كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم)(٢) .

والمقصود بهذه الجملة الكريمة (ليجمعنكم . . .) بيان عدل الله بين عباده . فهو لم يجمعهم يوم القيامة لتعذيبهم جميعا ، وإنما يجمعهم لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٤ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٩ .

ولما كان الكافرون ينكرون حصول البعث والحساب فقد أكد الله — تعالى — حصولهما باللام وبنون التوكيد الثقيلة ، وبتعدية الفعل بإلى دون فى للإشارة إلى أن هذا الجمع نهايته يوم القيامة — وبأنه يوم لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه لوضوح أدلته .

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبتهم السيئة فقال — تعالى — (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . أى : الذين خسروا أنفسهم بانطماس فطرتهم ، وإصرارهم على العناد والجحود ، لا يتسرب الإيمان إلى قلوبهم لأنها قست وأظلمت .

قال الآلوسى : (الفاء فى قوله « فهم لا يؤمنون » ـ للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرانهم ، فإن إبطال العقل والانهماك فى التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان)(١) .

ثم ساق — سبحانه ـ ما يشهد بشمول علمه وقدرته فقال :)وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم) .

قال القرطبى : (سكن معناه هدأ واستقر ، والمراد ماسكن وما تحرك ، فحذف لعلم السامع ، وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة وقيل : المعنى ، ما خلق ، فهو عام فى جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجرى عليه الليل والنهار ، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق وهذا أحسن ما قيل لأنه يجمع شتات الأقوال)(٢) .

والمعنى : ولله ـ سبحانه ـ جميع ما استقر وتحرك ووجد فى كل زمان ومكان من إنسان وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات ، وهو — سبحانه —

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى ج ٧ ص ١٢٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٦ ص ١٩١ .

السميع لكل دقيق وجليل ، العليم بكل الظواهر والبواطن ، والتعبير بما في قوله (وله ما سكن) الدلالة على العموم والشمول .

ثم أمر - سبحانه - نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن ينفي عن نفسه بشدة ما ترددوا فيه من جهالة وضلالة فقال :

« قل أغير الله أتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم .

أي : قل لهم - يا محمد - موبخا وزاجرا ، بأي عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله ، واتخذتم من دونه معبودا سواه ، مع أنه — سبحانه — باعترافكم هو الخالق لكم وللسموات والأرض ولكل شيء ؟

وقد سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل ، للإيذان بأن المستنكر إنما هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا ، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » .

ثم دلل - سبحانه - على أنه هو وحده المستحق للعبادة بأمرين .

أولهما قوله — تعالى — « فاطر السموات والأرض » .

أي خالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق ، فالفطر - كما قال اللغويون - الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال يحتذى .

وثانيهما قوله - تعالى - (وهو يطعم ولا يطعم) .

أي : أنه - سبحانه - هو الذي لا يحتاج إلى أحد وكل ما سواه محتاج إليه وهو الرازق لغيره ، والمنافع كلها من عنده .

وقرأ أبو عمرو (وهو يطعم ولا يطعم) بفتح الياء في الثاني . أي : وهو يرزق غيره ويطعمه أما هو - سبحانه - فلا يتناول طعاما ولا شرابا .

وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولي سوى الله ، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام ، وأنه

ـ سبحانه ـ هو الذى خلق لهم هذا الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه .

ثم أمره ـ سبحانه ـ بأن يصرح أمامهم بأنه برىء من شركهم ومن أفعالهم القبيحة فقال ـ تعالى ـ (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) .

أى : قل أيها الرسول الكريم بعد إيراد هذه الآيات والحجج الدالة على وحدانية الله : إنى أمرت من خالقى أن أكون أول من يسلم له وجهه ويخصه بالعبادة ، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذى يجعلون مع الله آلهة أخرى .

وصح عطف الجملة الثانية الإنشائية على الأولى الخبرية لأن الأولى خبرية فى اللفظ ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير : كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، ويجوز عطفها على جملة (قل إنى أمرت) وهى إنشائية فى اللفظ والمعنى .

ثم أمره ـ سبحانه ـ بأن يعلن أمامهم بأن خوفه من خالقه يحتم عليه أن يبتعد عن كل معصية فقال :

(قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

أى : قل لهم ـ يا محمد ـ على سبيل الإنذار والتحذير من الاستمرار فى الكفر إنى أخاف إن عصيت خالقى عذاب يوم عظيم الأهوال تذهل فيه (كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

وفى هذا التحذير أسمى الوان التعبير والتصوير لأنه إذا كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أحب الخلق إلى الله سيناله العذاب إن كان ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ قد عصى ربه فى الدنيا . فكيف بأولئك الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى ؟ فمن الواجب عليهم أن يقتدوا بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عبادته وإخلاصه لربه .

وكلمة (عذاب) مفعول لأخاف ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن عصيت ربي استحققت العذاب العظيم .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن النجاة من هول هذا اليوم غنيمة ليس بعدها غنيمة فقال : من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز العظيم .

أي : من يصرف عنه عذاب هذا اليوم ، فإنه يكون ممن شملتهم رحمة الله ورعايته ، وذلك هو الفوز الذي ليس بعده فوز .

والضمير الذي يعتبر نائب فاعل ليصرف ، يعود على العذاب العظيم الذي سيحل بالمجرمين يوم القيامة .

وفي قراءة لحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم (من يصرف) بفتح الياء فيكون الضمير عائدا على الله ـ تعالى ـ ويكون المفعول محذوفاً . والتقدير من يصرف الله عنه هذا العذاب العظيم في ذلك اليوم فقد شملته رحمة الله، وعلى كلتا القراءتين فالضمير في قوله (فقد رحمه) يعود على الله ـ تعالى ـ :

هذا ، وفي هذه الآيات الخمس نجد القرآن قد أمر النبي ـ ﷺ ـ بقوله « قل » خمس مرات وهو أسلوب إنذاري تلقيني كثر استعماله في هذه السورة ـ كما سبق أن قلنا في التمهيد لها ـ لأنه يلقن النبي ـ ﷺ ـ الحجج التي تزلزل كيان المشركين وتأتي على بنيانهم من القواعد . وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن في أسلوب الدعوة إلى الله يحتاج إليه المرشدون والدعاة . لأن التزام أسلوب واحد في إقامة الحجة على الخصم يفضي إلى السآمة والملل ، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها وصدق الله إذ يقول « أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن نواصي العباد بيديه ، وأنه هو المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فقال ـ تعالى ـ :

وَإِن يَمْسَسْكَ

ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

المس : أعم من اللمس فى الاستعمال . يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب . أى : أصابه ذلك ونزل به .

« والضر : اسم الألم والحزن والخوف وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما »(1) .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة .

والمعنى : إن الناس جميعاً تحت سلطان الله وقدرته ، فما يصيبهم من ضر كمرض وتعب وحزن اقتضته سنة الله فى هذه الحياة ، فلا كاشف له إلا هو ،

---

(1) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ١٨ .

وما يصيبهم من خير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو — سبحانه — قادر على حفظه عليهم، وإبقائه لهم، لأنه على كل شىء قدير.

والخطاب فى الآية يصح أن يكون موجها إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- لتقويته فى دعوته، وتثبيته أمام كيد الأعداء وأذاهم، كما يصح أن يكون لكل من هو أهل للخطاب.

قال صاحب المنار: «ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة، تحرى الحقائق بأوجز العبارات، وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفته بعضها فى بادىء الرأى لما هو الأصل فى التعبير، كالمقابلة هنا بين الضر والخير، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر، فنكتة المقابلة أن الضر من الله ليس شرا فى الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وأدبا وعلما وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب فى الآخرة مقدم على النعيم»(١):

وقوله: «وإن يمسسك بخير» جوابه محذوف تقديره: فلا راد له غيره. وقوله: «فهو على كل شىء قدير» تعليل لكل من الجوابين المذكورين فى الشرطية الأولى والمحذوف فى الثانية.

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات أخرى منها قوله — تعالى —: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»(٢).

وفى الحديث الشريف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

---

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٣٣٥.
(٢) سورة فاطر: آية ٢.

ثم بين — سبحانه — كمال قدرته، وعظيم سلطانه فقال : «وهو القاهر
ق عباده وهو الحكيم الخبير» .

أى أنه — كما قال ابن كثير — «هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له
باه . وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت
لمة جلاله وكبريائه الأشياء، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه».

ثم أمر الله : نبيه — صلى الله عليه وسلم — : فى بيان رائع حكيم،
يسأل المشركين عن أى شيء فى هذا الكون أعظم وأزكى شهادة بحيث
ل شهادته ولا ترد فقال — تعالى — : «قل أى شيء أكبر شهادة ؟
الله شهيد بينى وبينكم» .

روى بعض المفسرين أن أهل مكة قالوا : يا محمد، أرنا من يشهد أنك
ول الله، فإنا لا نرى أحدا نصدقه، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى
عموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فأنزل الله — تعالى — : قل أى شيء أكبر
ادة قل الله شهيد بينى وبينكم» .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يخاصمونك فيما تدعو إليه : أى
. فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم
ذعان ؟ ثم أمره أن يجيبهم على هذا السؤال بالحقيقة التى لا يمارى فيها عاقل
ى أن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها، لأنها شهادة من يستحيل
ه الكذب أو الخطأ، وقد شهد - سبحانه - : بصدقى فيما أبلغه عنه فلماذا
ضون عن دعوتى، وتتنكبون الطريق المستقيم ؟

وصدرت الآية الكريمة بقل وبصيغة الاستفهام تنبيهاً إلى جلال الشاهد،
ى سلامة دعوى النبى — صلى الله عليه وسلم — لكى يدركوا ما فيها من
ن وما هم فيه من ضلال .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٢ .

وأوثرت كلمة « شيء » في قوله ـ تعالى ـ : « قل أي شيء أكبر شهادة » لأنها تفيد الشمول والإحاطة والاستقصاء .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه في قوله ـ تعالى ـ : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم » أراد: أي شهيد أكبر شهادة فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم ، ويحتمل أن يكون تمام الجواب عنه قوله : « قل الله » بمعنى : الله أكبر شهادة ، ثم ابتدىء « شهيد بيني وبينكم » أي : هو شهيد بيني وبينكم . وأن يكون « الله شهيد بيني وبينكم » هو الجواب ، لدلالته على أن الله ـ تعالى ـ : « إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة من هو شهيد له »(١) .

والمراد بشهادة الله ما جاء في آياته القرآنية من أنه ـ سبحانه ـ : قد أرسل رسوله محمداً « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

ثم بين ـ سبحانه ـ : أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : « وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .

أي : أن الله ـ تعالى ـ : قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق ، لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به ـ أيضاً ـ جميع من بلغه هذا الكتاب الكريم ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة .

فهذه الجملة تدل على عموم بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) كما تدل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ، وتعم ـ أيضاً ـ الذين وجدوا بعد نزوله وبلغتهم دعوته . ولم يروا النبي (صلى الله عليه وسلم) ففي الحديث

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١

الشريف : « بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » (١) .

وعن محمد بن كعب قال : « من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى (صلى الله عليه وسلم) وذلك لأن القرآن الكريم لما كان متواترا بلفظه ومعناه ، كان من بلغه بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) : كأنما سمعه منه وإن كثرت الوسائط ، لأنه هو الذى بلغه بلا زيادة ولا نقصان ، أما من لم تبلغه دعوة القرآن فلا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة ، وحينئذ لا يكون مخاطبا بتعاليم هذا الدين ، وإثمه يكون فى أعناق الذين قصروا فى تبليغ دعوة الإسلام إليه .

ثم أمره - سبحانه - أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن يعلن براءته منهم ومن معبوداتهم فقال - تعالى - : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل : لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإنى برىء مما تشركون » .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم . وترديتم فى مهاوى الشرك والضلال ، وشهدتم بأن مع الله آلهة أخرى ، فإنى برىء منكم ومن أعمالكم القبيحة ، ومحال ان أشهد بما شهدتم به ، وإنما الذى أشهد به وأعتقده ، أن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، وإننى بعيد كل البعد عن ضلالكم وجحودكم .

والاستفهام فى قوله « أئنكم ... » إنكارى ، جىء به لاستقباح ما وقع منهم من شرك ، وأكد قوله « لتشهدون » للإشارة إلى تغلغل الضـــلال فى نفوسهم ، واستيلاء الجحود على قلوبهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٦

وعبر عن أوثانهم بأنها « آلهة أخرى » مجاراة لهم فى زعمهم الباطل ومبالغة فى توبيخهم والتهكم بهم .

وفى أمره ـ سبحانه ـ لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بأن يصارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم «قل : لا أشهد» توبيخ لهم على جهالتهم ، وتوجيه لأتباعه إلى الاقتداء به فى شجاعته أمام الباطل ، وفى ثباته على مبدئه .

وقد تضمن قوله ـ تعالى : « قل إنما هو إله واحد . . » إعتراف كامل بوحدانية الله ، وقصرها عليـــه ـ سبحانه ـ ، وتصريح بالبراءة التامة من الأوثان وعابديها ، وتهديد شديد بهذا العمل الباطل .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد تضمنت شهادة من الله ـ تعالى ـ بأن رسوله محمدا (صلى الله عليه وسلم) صادق فى رسالته ، وشهادة من هذا الرسول الكريم بأن الله واحد لا شريك له ، وأنه برىء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين .

ثم ساق القرآن شهادة ثالثة بصدق النبى (صلى الله عليه وسلم) وهى شهادة أهل الكتاب فقال « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » :

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : « روى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لما قدم المدينة وأسلم عبدالله بن سلام قال له عمر : إن الله أنزل على نبيه بمكة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : ياعمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف إبنى ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى ! ! فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدرى ما تصنع النساء » (١) .

---

(١) حاشية الجمل : جـ ٢ ص ١٥

والمعنى : إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون صدق ماجاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من أصلابهم ، فهى معرفة بلغت حد اليقين وذلك بسبب ماعندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد (صلى الله عليه وسلم) ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته .

والضمير فى « يعرفونه » يرى أكثر المفسرين أنه يعود على النبى (صلى الله عليه وسلم) ويؤيد ذلك سبب نزول الآية ، ويرى بعضهم أنه يعود على القرآن لتقدمه فى قوله « وأوحى إلى هذا القرآن » أو على التوحيد لدلالة قوله « قل إنما هو إله واحد » .

والأولى عودة الضمير على جميع ما ذكر ، لأن معرفتهم بما فى كتابهم يتناول كل ذلك .

ثم بين — سبحانه — علة إنكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته (صلى الله عليه وسلم) فقال : « الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون » .
قال صاحب الكشاف : « الذين خسروا أنفسهم من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين « فهم لا يؤمنون » به(1) جمعوا بين أمرين متناقضين فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » ، وقالوا « والله أمرنا بها » وقالوا : « الملائكة بنات الله » ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحراً ولم يؤمنوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قيل أنها مدنية ، والصحيح أنها مكية ، ويشهد لذلك سبب النزول الذى سقناه عن عمر — رضى الله عنه — فقد قال لعبد الله بن سلام : « إن الله أنزل على نبيه بمكة . . . » الخ .

---

(1) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢

ويؤكد كونها مكية — أيضاً — سياق الآيات قبلها ، فالآية التي قبلها وهي قوله — تعالى — : « قل أي شيء أكبر شهادة .. الخ » فيها شهادة من الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، والآية التي معنا فيها شهادة من أهل الكتاب بأنهم يعرفون صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) كما يعرفون أبناءهم ، ومن المعروف أن أهل مكة كانوا يسألون أهل الكتاب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وفضلا عن ذلك لم يرد نص صحيح يثبت أن هذه الآية الكريمة قد نزلت بالمدينة .

قال بعض العلماء : ويظهر أنهم — أي القائلون بأن الآية مدنية — لما وجدوا الحديث في هذه الآية عن أهل الكتاب ، ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهي قوله ـ تعالى ـ : في سورة البقرة « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » الآية ١٤٦ ، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة وفي المدينة دون مكة ، لما وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاداً حسب رواية مسندة ، وهو اجتهاد غير صحيح (١) .

ولما كان هذا الخسران أكبر ظلم ظلم به هؤلاء الكفار أنفسهم فقد قال ـ تعالى ـ في شأنهم : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون » .

أي : لا أحد أشد ظلماً من أولئك المشركين الذين كذبوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن هؤلاء الذين سقطوا في أقصى دركات الكذب لن يفوزوا ولن يفلحوا ، والاستفهام في الآية الكريمة إنكاري للنفي ، وفيه توبيخ للمشركين .

---

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ٥ لفضيلة الأستاذ محمد المدني .

ثم بين — سبحانه — بعض أحوالهم عند ما يحشرون يوم القيامة ، فقال — تعالى — :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

الحشر : الجمع ، والمراد به جمعهم يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم الدنيوية

والمعنى : واذكر لهم أيها الرسول الكريم - ليعتبروا ويتعظوا - حالهم يوم نجمعهم جميعاً فى الآخرة لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم ، ثم نسألهم سؤال إفضاح لا إيضاح — كما يقول القرطبى — : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاء لكى يدافعوا عنكم فى هذا اليوم العصيب .

و «يوم» منصوب على الظرفية بفعل مضمر بعده أى : ويوم نحشرهم كان كذا وكذا ، وحذف هذا الفعل من الكلام ليبقى على الإبهام الذى هو أدخل فى التخويف والتهويل ، وقيل إنه منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف

قبله والتقدير ، واذكر يوم نحشرهم ، أى : اذكر هذا اليوم من حيث ما يقع فيه ، والضمير فى «نحشرهم» للذين افتروا على الله كذبا ، أو كذبوا بآياته.

وفائدة كلمة «جميعاً» رفع احتمال التخصيص ، أى : أن جميع المشركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله للحساب .

وكان العطف بثم لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين ، إذ قبل ذلك سيكون قيامهم من قبورهم ، ويكون هول الموقف ، ويكون إحصاء الأعمال وقراءة كل امرىء لكتابه . . الخ ، ثم يقول الله — تعالى — للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟

ووبخهم — سبحانه — بقوله : (أين شركاؤكم . .) مع أنهم محشورون معهم ، لأنهم لا نفع يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب (كما تقول لمن جعل أحداً ظهيراً يعينه فى الشدائد إذا لم يعنه وقد وقع فى ورطة بحضرته أين فلان ؟ فتجعله لعدم نفعه — وأن كان حاضراً كالغائب)(١) .

ثم أخبر — سبحانه — عما يكون منهم من تخبط وحسرة فقال :

« ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين »

الفتنة مأخوذة من الفتن ، وهو إدخال الذهب فى النار لتعرف جودته من رداءته ، ثم استعمل فى معان أخرى كالاختبار ، والعذاب ، والبلاء ، والكفر . . .

والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدعاوى إلا أن قالوا مؤكدين ما قالوا بالقسم الكاذب والله ياربنا ما كنا مشركين . ظنا منهم أن تبرأهم من الشرك فى الآخرة سينجيهم من عذاب الله كما نجا المؤمنين بفضله ورضوانه .

قال ابن عباس : يغفر الله — تعالى — لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٣ ص ١٢١ .

يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك ، فتعالوا نقول : إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين . فقال الله — تعالى — : أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثاً ، فذلك قوله : « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً(١) » .

ثم قال — تعالى — (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

والمراد بالنظر هنا : التدبر والتفكير .

والمعنى : أنظر — أيها العاقل — وتأمل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم فى قولهم والله ربنا ما كنا مشركين ، وغاب عن علمهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من الأقوال الباطلة ، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً : ألا تراهم يقولون (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) وقد علموا أنه لا يقضى عليهم »(٢) .

وبعد أن بين — سبحانه — أحوال الكفار فى الآخرة اتبعه بما يوجب اليأس من إيمان بعضهم فقال : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً . . . . » .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٠١ (٢) تفسير الكشاف ج٢ص١٣

قال ابن عباس : إن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر ابن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، استمعوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيته ما أدرى ما يقول، إلا أنى أرى تحرك شفتيه يتكلم بشيء فما يقول إلا أساطير، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه فأنزل الله هذه الآية »(١) .

والأكنة : جمع كنان كغطاء وأغطية لفظا ومعنى والوقر — بالفتح — الثقل فى السمع .

والمعنى : ومن هؤلاء المشركين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا — بسبب عنادهم وجحودهم — على قلوبهم أغطية تحول بينهم وبين فقهه، كما جعلنا فى أسماعهم صمما يمنع من سماعه بتدبر وتعقل .

قال صاحب المنار : « وجعل الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان فى الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية، فإن القلب الذى لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء . والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم، لأن سمعها وعدمه سواء»(٢) .

وقال بعض العلماء : « وهنا يسأل سائل : إذا كان منع الهداية من الله — تعالى — بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم ؟

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ١٢٥ .

(٢) تفسير المنار ج ٧ ص ٣٤٧ .

والجواب عن ذلك أن الله ـ سبحانه ـ يسير الأمور وفق حكمته العليا ن يسلك سبيل الهداية يرشده وينير طريقه ويثيبه ، ومن يقصد إلى الغواية يسير فى طريقها تجيئه النذر تباعاً إنذارا بعد إنذار ، فإن أيقظت النذر نميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر . ومن لم تجد فيه نذر المتتابعة ولم توقظ له ضميرا ولم تبصره من عمى فقد وضع الله ـ تعالى ـ لى قلبه غشاوة وفى آذانه وقرا »(١) .

ثم صور — سبحانه — عنادهم وإعراضهم عن الحق مهما وضحت راهينه فقال : «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .

أى : وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق عوتك فلن يؤمنوا بها لاستحواذ الغرور والعناد على قلوبهم .

والمراد من الرؤيه هنا البصرية ، ومن الآيات المعجزات الحسية كانشقاق قمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

وهذه الجملة الكريمة المقصود بها ذمهم لعدم انتفاعهم بحاسة البصر بعد مهم لعدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم .

وجىء بكلمة «كل» لعموم النفى ، أى : أنهم لا يؤمنون بأية معجزة ونها مهما وضحت براهينها ، ومهما كانت دلالتها ظاهرة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم — .

ثم بين — سبحانه — ما كان يجرى منهم مع رسول الله — صلى الله ليه وسلم — فقال :

---

(١) مجلة لواء الإسلام لسنة ٢٣ العدد ٩ تفسير الآيات الكريمة لفضيلة لأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

« حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » .

الأساطير جمع إسطارة أو أسطورة ومعناها الخرافات والترهات .

أى : حتى إذا ما صاروا إليك أيها الرسول ليخاصموك وينازعوك فى دعوتك فإنهم يقولون لك بسبب كفرهم وجحودهم ، ما هذا القرآن الذى نسمعه منك إلا أقاصيص الأولين المشتملة على خرافاتهم وأوهامهم .

وفى قوله — تعالى — « حتى إذا جاءوك يجادلونك » إشارة إلى أن مجيئهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان من أجل المجادلة المتعنتة مع الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — .

ثم بين — سبحانه — أنهم لا يكتفون بمحاربة الدعوة الإسلامية ، بل هم لفجورهم — يحرضون غيرهم على محاربتها معهم فقال — تعالى — :

« وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

النهى : الزجر ، والنأى : البعد والضمير « هم » يعود على المشركين .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق ، بل يزجرون الناس عن اتباعه ، ويبعدونهم عن الاستماع إليه . فهم قد جمعوا بين فعلين قبيحين : محاربتهم للحق وحمل غيرهم معهم على محاربته والبعد عنه .

وهم بهذا العمل الباطل القبيح ما يهلكون إلا أنفسهم ولكنهم لا يشعرون بذلك لا نطماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم .

وعملهم هذا يدل على أنهم كانوا معترفين فى قرارة أنفسهم بأن القرآن حق ، لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين — كما زعموا — لتركوا الناس يسمعونها ليتأكدوا من أنها خرفات وأوهام ، ولكنهم لما كانوا مؤمنين ببلاغة القرآن وصدقه ، فإنهم نهوا غيرهم عن سماعه حتى لا يؤمن به وابتعدوا هم عنه حتى لا يتأثروا به فيدخلوا فى دين الإسلام ، ولقد حكى

له عنهم هذا المعنى فى قوله - تعالى - (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا قرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)(١) .

والضمير فى قوله - تعالى - (عنه) يرجع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به من آيات .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير « هم » يرجع إلى عشيرة النبى (صلى لله عليه وسلم) فيكون المعنى : وهم - أى أعمام النبى (ﷺ) وعشيرته نهون الناس عن إيذائه والتعرض له بسوء ، ولكنهم فى الوقت نفسه ينأون نه أى يبتعدون عن دعوته فـــلا يؤمنون بها ، ولعل أوضح مثل لذلك بو طالب ، فقد كان يدافع عن النبى (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه لم يدخل ى الإسلام مع تصريحه بأنه هو الدين الحق .

ومما روى عنه فى هذا المعنى قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفيناً
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة	وابشر بذاك وقر منك عيوناً
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى	فلقد صدقت وكنت قبل أميناً
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خـــير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتنى سمحاً بذاك يقيناً

والذى تطمئن إليه النفس أن الرأى الأول هو الأرجح . لأن الكلام مسوق فى بيان موقف المشركين من النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأنهم قد بلغ بهم السفه والعناد أنهم لا يكتفون بالإعراض عن الحق الذى جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) بل تعدى شرهم إلى غيرهم ، وأنهم كانوا يحرضون الناس على إيذائه وعلى الابتعاد عنه .

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦

ثم يصور — سبحانه — حالهم عند ما يعرضون على النار ، وعندما يقفون أمام ربهم ، وحكى مايقولونه فى تلك المواقف الشديدة فقال تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

« لو » شرطية ، حذف جوابها لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب وذلك أبلغ من ذكره .

و « وقفوا » بالبناء للمفعول بمعنى : وقفهم غيرهم . يقال : وقف على الأطلال أى : عندها مشرفاً عليها ، ويقال وقف على الشىء عرفه وتبينه . والمعنى : إنك أيها النبى الكريم - أو أيها الإنسان العاقل - لو أطلعت على

هؤلاء المشركين عند ما يقفون على النار ويشاهدن لهيبها وسعيرها . لرأيت شيئاً مروعاً مخيفاً يجعلهم يتحسرون على ما فرط منهم ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليصدقوا بآيات الله التي طالما كذبوه . وليكونوا من المؤمنين .

وعبر - سبحانه - بإذ التي تدل على الماضي - مع أن الحديث عما سيحصل لهم في الآخرة فكان يناسبه إذا - لإفادة تحقق الوقوع وتأكده ، وليتصور المستقبل على أنه موجود لا على أنه سيوجد ، وعطف بالفاء في قوله : « فقالوا . . . » للدلالة على أن أول شيء يقع في قلوبهم حينئذ إنما هو الندم على ما سلف منهم ، وتمنى الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .

ثم يعقب - سبحانه - على قولتهم هذه فيما لو أجيبوا إلى طلبهم على سبيل الفرض والتقدير فيقول : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

بل هنا للإضراب عما يدل عليه تمنيهم من إدراكهم لقبح الكفر وسوء مغبته ، ولحقيقة الإيمان وحسن عاقبته .

والمعنى : ليس الأمر كما يوهمه كلامهم في التمني من أنهم يريدون العودة للهداية ، بل الحق أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن استقبلتهم النار بلهيبها ، وبعد أن ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمال قبيحة ، ومن أفعال سيئة ، وبعد أن بدا لهم ما كانوا يكذبون به ، وينكرون تحققه ، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا بمتعها وشهواتها وأهوائها لعادوا لما نهوا عنه من التكذيب بالآيات ، والسخرية من المؤمنين ، وإنهم لكاذبون في كل ما يدعون .

فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم — على سبيل الفرض والتقدير — لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء والمصلحين .

ثم بين - سبحانه - بعض مفترياتهم فى الدنيا واغترارهم بها فقال - تعالى - « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

أى : أن هؤلاء الكافرين قد بلغ بهم الحب للدنيا والتعلق بها أنهم قالوا: «ما الحياة التى تسمى حياة فى نظرنا إلا هذه الدنيا التى نتمتع فيها بما نريد من شهوات وما نحن بمبعوثين ولا محاسبين بعد ذلك .

فالآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أى حياة سوى الحياة التى يعيشونها ، وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفياً مؤكداً بالباء وبالجملة الإسمية .

ويرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تتمة للآية السابقة لها من حيث المعنى ، وأن قوله « وقالوا » معطوف على « لعادوا » ، والتقدير « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسيىء الأعمال وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ويكون قوله « وإنهم لكاذبون » جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا ، إذ هى تكذيب لإدعائهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند ما يقفون ليستمعوا إلى ما يوجهه إليهم ربهم من توبيخ وتقريع بسبب كفرهم فقال :

« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق » .

أى : قال لهم - سبحانه - أليس هذا البعث الذى تشاهدونه بأعينكم ثابتاً بالحق ؟ وهنا يجيبون خالقهم مصدقين لأن الواقع يحتم عليهم ذلك فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - «بلى وربنا» أى : قالوا : بلى يا ربنا إنه للحق الذى لا شك فيه ، ولا باطل يحوم من حوله ، وأكدوا اعترافهم بالقسم شاهدين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا .

وهنا يحكم الله فيهم بحكمه العادل فيقول : « قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » أى : إذا كان الأمر كما ذكرتم وشهدتم على أنفسكم ، فانغمسوا فى العذاب ذائقين لآلامه وأهـــواله بسبب كفركم بآيات الله ، وإنكاركم لهذا اليوم العصيب .

والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه .

ثم صور ـ سبحانه ـ عاقبتهم السيئة ، وخسارتهم التى ليس بعدها خسارة فقال : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله » .

أى : أن أولئك الكفار الذين أنكروا البعث والحساب قد خسروا أعز شىء فى هذه الحياة ، ومن مظاهر ذلك أنهم خسروا الرضا الذى سيناله المؤمنون من ربهم ، وخسروا العزاء الروحى الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء ، لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله . . .

وإن هؤلاء الخاسرين سيستمرون فى تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنه « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » .

أى : حتى إذا جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة وهم فى طغيانهم يعمهون ، إعترامم الهم ، وحل بهم البلاء وقالوا : بعد أن سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا يا حسرتنا أقبلى فهذا أوانك ، فإننا لم نستعد لهذا اليوم ، بل أهملناه ولم نلتفت إليه . وعلى ذلك يكون المراد بالساعـــة يوم القيامة وما فيه من حساب .

وقيل : المراد بالساعة وقت مقدمات الموت ، فالكلام على حذف المضاف ، أى : جاءتهم مقدمات الساعة وهى الموت وما فيه من الأهوال . فلما كان الموت من مبادىء الساعة سمى باسمها ، ولذا قال (صلى الله عليه وسلم) « من مات فقد قامت قيامته » (١) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢١ .

وسميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها ، ولأنها تحمل أشد الأهوال ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة فانية وأخرى باقية .

وفى قوله - تعالى - « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » إشارة إلى أنها تفاجئهم بأهوالها من غير أن يكونوا مستعدين لها أو متوقعين لحدوثها ، أما المؤمنون - فإنهم رغم عدم علمهم بمجيئها - فإنهم يكونون فى حالة استعداداً لها بالإيمان والعمل الصالح .

والبغت والبغتة مفاجأة الشىء بسرعة من غير إعداد له ، وكلمة « بغتة » يصح أن تكون مصدراً فى موضع الحال من فاعل جاءتهم أى : جاءتهم مباغتة ، ويصح أن تكون مفعولا مطلقاً لفعل محذوف من لفظها أى : تبغتهم بغتة ، والحسرة : شدة الغم والندم على ما فات وانقضى .

ثم قال - تعالى - : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » .

الأوزار جمع وزر وهو - بكسر الواو - الحمل الثقيل ، ويطلق على الإثم والذنب لأنهما أثقل الأحمال النفسية التى تنوء بها القوة .

والجملة الكريمة من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حالهم وما يحملونه يوم القيامة من ذنوب ثقيلة مضنية ، بهيئة المثقل المجهد بحمل كبير يحمله على ظهره وينوء به . ثم حذفت الهيئة الدالة على المشبه به ورمز إليها بشىء من لوازمها .

وقيل إن الكلام على حقيقته وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهورهم فعلا ، حيث إن الذنوب والأعمال ستتجسم يوم القيامة ، وبهذا الرأى قال كثير من أهل السنة .

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون ذنوبهم

وآثامهم على ظهورهم ، ألا ما أسوأ ما حملوا ، وما أشد ما سيستقبلونه بعد ذلك من عذاب أليم .

ثم عقد - سبحانه - مقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة . بين فيها أن الحياة الآخرة هى الحياة العالية السامية الباقية ، أما الحياة الدنيا فهى إلى زوال وانتهاء فقال — تعالى — :

« وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » .

اللعب : هو العمل الذى لا يقصد به مقصداً صحيحاً من تحصل منفعة أو دفع مضرة ، واللهو : هو طلب ما يشغل عن معالى الأمور وعما يهم الإنسان ويعنيه .

والمعنى : إن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لاحياة سواها ما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأنانية وشره من غير استعداد لما يكون وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء ، وفيها النعيم الذى لا ينتهى ، وفيها السعادة التى لاتحد ، بالنسبة للذين اتقوا ربهم ، ونهوا أنفسهم عن الهوى .

فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للتكاثر والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام ، ولم يقيموا وزنا للأعمال الصالحة التى كلفهم الله - تعالى - بها . أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة ، وإن ما يحصل عليه المؤمنون فى هذا اليوم من ثواب جزيل ومن نعيم مقيم هو خير من الدنيا وما فيها من متعة زائلة ومن شهوات لا دوام لها .

والاستفهام فى قوله — تعالى — « أفلا تعقلون » للحث على التدبر والتفكر والموازنة بين اللذات العاجلة الفانية التى تكون فى الدنيا ، وبين النعيم الدائم الباقى الذى يكون فى الآخرة .

ثم أخذ القرآن الكريم في مخاطبة النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي تسليته عما أصابه من قومه فقال :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

قد هنا للتحقيق وتأكيد العلم وتكثيره والتحقيق هنا جاء من موضوعها لا من ذاتها كما أن التكثير راجع إلى متعلقات العلم ، لا إلى العلم نفسه ، لأن صفة القديم لاتقبل الزيادة والتكثير وإلا لازم حدوثها . والحزن ألم يعترى النفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : (يقول تعالى مسليا لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) أى : قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم وقوله « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » أى : هم لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه

بصدورهم كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن ناجيه عن على قال: قال أبو جهل للنبى - صلى الله عليه وسلم - : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . وعن أبى يزيد المدنى إن النبى - صلى الله عليه وسلم - لقى أبا جهل فصافحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء ؟ فقال : والله إنى لأعلم إنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »(١) .

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - عما كان يصيبه من المشركين ومما لاشك فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصاً على إسلامهم ، فإذا مارآهم معرضين عن دعوته حزن وأسف ، وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »(٢) .

ومنها قوله - تعالى - « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون »(٣) .

ومنها قوله - تعالى - « فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون »(٤) .

قال الجمل : (والفاء فى قوله (فإنهم لا يكذبونك) للتعليل ، فإن قوله (قد نعلم إنه ليحزنك ...) بمعنى لا يحزنك ، كما يقال فى مقام المنع والزجر نعلم ما تفعل . ووجه التعليل : أن التكذيب فى الحقيقة لى وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاق . ويحتمل أن يكون المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لى فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم(٥) .

والمعنى : إن هؤلاء الكفار - يا محمد - لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٦ (٣) سورة فاطر الآية ٨ .

(٤) سورة يس الآية ٧٦ (٥) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٢

قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع إعتقادهم صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أى نفى ما فى القلب ثبوته أو إثبات ما فى القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود.

وقال ـ سبحانه ـ (ولكن الظالمين ...) ولم يقل (ولكنهم) ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل الظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب .

ثم زاد القرآن فى تعزية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن عموم البلوى مما يخفف وقعها فقال : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) .

أى : أن الرسل من قبلك ــ يا محمد ــ قد كذبتهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى ، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك ، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، فعليك ـ وأنت خاتمهم وإمامهم ـ أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر ، فإن سنة الله لا تتخلف فى أى زمان أو مكان .

وجاء قوله ــ تعالى ــ (ولقد كذبت رسل من قبلك) مؤكدا بقد وباللام ، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية ، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين .

و (ما) فى قوله (على ما كذبوا) مصدرية ، (وأوذوا) معطوف على قوله (كذبت) أى : كذبت الرسل وأوذوا فصبروا على كل ذلك .

وقوله (حتى أتاهم نصرنا) غاية الصبر ، أى : صبروا على التكذيب وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبى - صلى الله عليه وسلم - مؤكداً للتسلية بأنه - سبحانه - سينصره على القوم الظالمين .

وقوله - تعالى - (ولا مبدل لكلمات الله) معناه : لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ، ومن ذلك قوله - تعالى - (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز(١) .

وقوله - تعالى - (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون)(٢). وقوله - تعالى - (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد)(٣) إلى غير ذلك من الآيات التى بشر فيها عبادة المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة .

ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه ، وصفاته ، وأحكامه ، وسننه فى كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر . وهذا الرأى أرجح من سابقة لأنه أعم وأشمل .

وإضافة الكلمات إليه - سبحانه - للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها لأنه - سبحانه - لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ، ولا يقع منه خلف فى قول من الأقوال ، فما دام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل ويجتهدون فى مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة ، فإنه - سبحانه - سيجعل العاقبة لهم .

وقوله - تعالى - (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) تأكيد وتقرير لما قبله

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢١ .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) سورة غافر الآية ٥١ .

أى : ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبائهم - مما قصه عليك فى كتابه - ما فيه العظات والعبر ، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم الله - تعالى - على ذلك بالظفر على أعدائهم .

ثم بين - سبحانه - أنه لا سبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين إلا بمشيئة الله وإرادته فقال (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ...) .

كبر عليك : أى شق وعظم عليك . والنفق : السرب النافذ فى الأرض الذى يخلص إلى مكان .

والمعنى : وإن كان - يا محمد - قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سبباً فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقاً فى جوف الأرض ، أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن يفيد شيئاً لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عناداً وجحوداً .

ثم قال - تعالى - (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .

أى : لو شاء الله جمعهم على ما جئت به من الهدى والرشاد لفعل ، بأن يوفقهم إلى الإيمان فيؤمنوا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا ، فلا تكونن من الجاهلين بحكمة الله فى خلقه ، وبسننه التى اقتضاها علمه .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق فقال :

(إنما يستجيب الذين يسمعون) أى : إنما يستجيب لك أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم وتأثر ، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون .

فالمراد بالاستجابة هنا ، الإجابة المقرونة بالتفكر والتأمل ، فهى إجابة محكمة دقيقة لأنها أتت بعد استقراء وتدبر وهذا ماتدل عليه السين .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الكفار فقال : « والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » أى : وموتى القلوب الذين لا يسمعون سماع تدبر وتقبل وهم المشركون ، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على أقوالهم الباطلة وأعمالهم السيئة .

فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم ـ سبحانه ـ بموتى الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والتحقير من شأنهم .

وقيل : أن لفظ الموتى على حقيقته وأن الله ـ تعالى ـ بقدرته النافذة سيبعث الجميع يوم القيامة ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساؤا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الشبهات التى تذرع بها المشركون تعنتا ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم ، وبما يؤكد قدرته النافذة وعلمه المحيط فقال ـ تعالى ـ :

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

« ولولا » هنا تحضيضية بمعنى هلا . والمعنى : وقال أولئك الكافرون :

هلا نزل عليك يا محمـــد معجزة حسية كتفجير الأنهار ، وفلق البحر ، ونزول الملائكة معك . . . الخ .

فهذه الآيات الكريمة تحكى عنهم أنهم لم يكتفوا بالقرآن معجزة خالدة للنبى (صلى الله عليه وسلم) وإنما يريدون معجزات حسية من جنس معجزات الأنبياء السابقين .

وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الآيات ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، حتى لكأنه لم ينزل عليه شىء عنادا وجحودا منهم .

وفى قولهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ « لولا نزل عليه آية من ربه » ببناء الفعل للمجهول وذكر لفظ الرب ، للإشارة إلى أنهم لا يوجهون الطلب إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) وإنما يوجهونه إلى الله تعالى ، لأنه إذا كان رسولا من عنده ، فليجب له هذا الطلب الذى نتمناه وتكون من بعده مؤمنين .

وقد رد الله ـــ تعالى ـــ عليهم بقوله : « قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولـكن أكثرهم لا يعلمون » .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التوبيخ والتقريع إن الله ـ تعالى ـ قادر على تنزيل مااقترحوا من آيات ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شىء ، ولكنه ـ سبحانه ـ ينزل ماتقتضيه حكمته ، إلا أنهم لجهلهم وعنادهم لا يعلمون شيئاً من حكم الله فى أفعاله ، ولا من سننه فى خلقه .

وقوله ـ تعالى ـ : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » يفيد أنهم لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم الآيات التى اقترحوها ، لأن عدم إيمانهم ليس عن نقص فى الدليل ولـكنه عن تكبر وجحود .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض الآيات الكونية المبثوثة فى الأرض والجو والمعروضة على البصائر والأبصار فقال ـ تعالى ـ :

« ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

الدابة : كل ما يدب على الأرض من حيوان . والطائر : كل ذى جناح يسبح فى الهواء ، والأمم : جمع أمة وهى جماعة يجمعهم أمر ما .

والمعنى : إنه لا يوجد نوع مامن أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التى تسبح فى الهواء إلا وهى أمم مماثلة لكم فى أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما الغرض من ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة عن عظم قدرة الله . وسعة سلطانه ، وتدبير تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها ، وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان » (١) .

وذكر الجناحين فى الطير لتوجيه الأنظار إلى بديع صنعه - سبحانه - وحسن خلقه .

قال - تعالى - : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » (٢) .

ثم قال - تعالى - : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » .

التفريط فى الأمر : التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت . والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقيل المراد به القرآن .

والمعنى : ما تركنا فى الكتاب شيئاً لم نحصه ولم نثبته ، وإنما أحطنا بكل شىء علماً ، وليس من مخلوق صغر أو كبر فى هذا الوجود إلا وسيجمع يوم القيامة أمام خالقه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١

(٢) سورة الملك : الآية ١٩

فالآية الكريمة مسوقة لبيان سعة علم الله — تعالى — وكمال قدرته، لتكون كالدليل على أنه - سبحانه - قادر على تنزيل الآية التي اقترحوها، وإنما لم ينزلها لأن حكمته تقتضي ذلك.

وجملة «مافرطنا في الكتاب من شيء» معترضة لتقدير مضمون ماقبلها.

والتعبير بثم في قوله «ثم إلى ربهم يحشرون» للإشارة إلى أنهم أعداد لا يحصيها العد، وجمعهم ليس يسيرا في ذاته، وإن كان بالنسبة لقدرته — تعالى — أمرا هينا.

ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر البهائم موتها. ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله - تعالى - : «وإذا الوحوش حشرت». وفي الحديث الشريف عن أبي ذر الغفاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى شاتين تتناطحان فقال : يا أبا ذر هل تدري فيم تتناطحان ؟ قال : لا. قال : ولكن الله يدري وسيقضي بينهما.

ثم قال - تعالى - : «والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات».

أي : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل الأصم الذي لايسمع، والأبكم الذي لايتكلم وهو مع ذلك في ظلمات لايبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى طريق القويم أو يخرج مما هو فيه من ضلال.

ففي التعبير القرآني استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين المعرضين عن كل دليل وبرهان بحال الصم البكم الذين يعيشون في الظلام من حيث لا نور يهديهم.

ثم قال - تعالى - : «من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» أي : من يشأ الله له الضلالة أضله بأن يجعله يسير في طريق هواه بسبب إعراضه عن طريق الخير، وإيثاره العمى على الهدى، ومن يشأ الله له الهداية يهده، لأنه قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فالهداية والضلالة ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما، وإنما الحق أن للعبد اختيارا في الطريق

الذى يسلكه ، فإن كان خيرا خطا فيه إلى النهاية ، وإن كان شرا سار فيه إلى الهاوية .

ثم بين — سبحانه — أن هؤلاء المشركين عند ما تحيط بهم المصائب والأهوال لا يتوجهون بالضراعة والدعاء إلا إلى الله ، وأنهم مع ذلك لا يخصونه بالعبادة كما يخصونه بالدعاء لكشف الضر ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

« أرأيتكم » المقصود به أخبرونى ، وكلمة أرأيت فى القرآن تستعمل التنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أرأيت كذا فإن لم تكن رأيته فانظره وتأمله .

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين : أخبرونى عن حالكم عندما

يداهمكم عذاب الله الدنيوى كزلزال مدمر ، أو ريح صرصر عاتية ، أو تفاجئكم الساعة بأهوالها وشدائدها ألستم فى هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده وتنسون آلهتكم الباطلة ، لأن الفطرة حينئذ هى التى تنطق على ألسنتكم بدون شعور منكم ؟ ومادام الأمر كذلك فلماذا تشركون مع الله آلهة أخرى ؟ إن أحوالكم هذه لتدعو إلى الدهشة والغرابة ، لأنكم تلجأون إليه وحده عند الشدائد والكروب ومع ذلك تعبدون غيره ومن لا يملك ضرا ولا نفعا .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « أغير الله تدعون » للتوبيخ والتقريع والتعجب من حالهم .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن كنتم صادقين فى أن الأصنام تنفعكم فادعوها .

ثم أكد ـ سبحانه ـ أنهم عند الشدائد والكروب لا يلجأون إلا إلى الله فقال ـ تعالى ـ : « بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » .

بل للإضراب الانتقالى عن تفكيرهم وأوهامهم ، أى : بل تخصونه وحده بالدعاء دون الآلهة ، فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك ، لأنه هو القادر على كل شىء « وتنسون ما تشركون » أى : تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأهوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة .

وقدم ـ سبحانه ـ المفعول على الفعل فى قوله : « بل إياه تدعون » لإفادة الاختصاص ، أى : لا تدعون إلا إياه ، وذلك يدل على أن المشركين مهما بلغ ضلالهم فإنهم عند الشدائد يتجهون بتفكيرهم إلى القوة الخفية الخالقة لهذا الكون .

وفى قوله « فيكشف ما تدعون » استعارة حيث شبه حال إزالة الشر بحال كشف غطاء غامر ، ولم بجامع إزالة الضر فى كل وإحلال السلامة محله .

والمقصود فيكشف الضر الذى تدعونه أن يكشفه : فالكلام على التقدير حذف مضاف .

وجواب الشرط لقوله : « إن شاء » محذوف لفهم المعنى ودلالة ما قبله عليه»

أى إن شاء أن يكشف الضر كشفه ، لأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل .

ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى بيان أحوال الأمم الماضية فقال - تعالى - : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون » .

البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد ، وعلى مايصيب الأمم من أزمات تجتاحها بسبب الحروب والنكبات . والضراء . تطلق على الأمراض والأسقام التى تصيب الأمم والأفراد .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلا إلى أقوامهم ، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك فى الشرك والجحود ، فعاقبناهم بالفقر الشديد والبلاء المؤلم ، لعلهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم .

فالآية الكريمة تصور لوناً من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم التى تكفر بأنعمه ، وتكذب أنبياءه ورسله إذ أن الآلام والشدائد علاج النفوس المغرورة بزخارف الدنيا ومتعها إن كانت صالحة للعلاج .

ولقد بين — سبحانه — بعد ذلك . أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها من شدائد فقال : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

ولولا هنا للنفى ، أى أنهم ماخشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا .
وقيل إنها للحث والتحضيض بمعنى هلا ، أى : فهلا تضرعوا تائبين إلينا وقت أن جاءهم بأسنا .

وقد اختار صاحب الكشاف أنها للنفى فقال : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا » معناه : نفى التضرع ، كأنه قيل . فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم » (١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣ .

ثم بين - سبحانه - أن أمرين حالا بينهم وبين التوبة والتضرع عند نزول الشدائد بهم، أما الأمر الأول: فهو قسوة قلوبهم، وقد عبر- سبحانه- عن هذا الأمر الأول بقوله: «ولكن قست قلوبهم» أي: غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة.

وأما الأمر الثاني فهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة، بأن يوحى إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب، وأن ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيراً لأنه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم.

هذان هما الأمران اللذان حالا بينهم وبين التضرع إلى الله والتوبة إليه.

ثم بين - سبحانه - أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدوا فقال — تعالى — :

«فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون».

والمعنى: فلما أعرضوا عن النذر والعظات التي وجهها إليهم الرسل، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق وأسباب القوة والجاه. حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتة فإذاهم متحسرون يائسون من النجاة.

والفاء في قوله — تعالى — «فلما نسوا» لتفصيل ما كان منهم. وبيان ما ترتب على كفرهم من عواقب قريبة وأخرى بعيدة.

والمراد بالنسيان هنا: الإعراض والترك. أي: أنهم تركوا الإهتداء بما جاء به الرسل حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم.

والتعبير بقوله - تعالى - «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» يرسم صورة

بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكل قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء .

وعبر — سبحانه — عن إعطائهم النعمة بقوله : « بما أوتوا » بالبناء للمجهول لأنهم يحسبون ان ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم ، كما قال قارون من قبل « إنما أوتيته على علم عندى » .

وأضاف - سبحانه - الأخذ الى ذاته فى قوله « أخذناهم » لأنهم كانوا لا ينكرون ذلك ، بل كانوا ينسون الخلق والإيجاد الى الله — تعالى — .

وكان الأخذ بغتة ليكون أشد عليهم وأفظع هولا ، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم . أوحال كونهم مبغوتين ، فقد فجأهم العذاب على غرة بدون إمهال .

وإذا فى قوله « فإذاهم مبلسون » فجائية ، والمبلس : الباهت الحزين اليائس من الخير ، الذى لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « واذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ، ثم تلا قوله - تعالى - « فلما نسوا ما ذكروا به .. الآية » .

ثم قال — تعالى — : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

الدابر : الآخر ، والمعنى : فأهلك الله - تعالى - أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم ، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسله وأولياءه على أعدائهم ، وفى ختام هذه الآية بقوله « والحمد لله رب العالمين » تعليم لنا ، إذ أن زوال الظالمين نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله - تعالى -

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمة عليهم في خالقهم وتكوينهم ، وبين لهم إذا سلبهم شيئاً من حواسهم فإنهم لا يتجهون إلا اليه فقال ـ تعالى ـ :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين : أخبروني إن سلب الله منكم نعمتي السمع والبصر فأصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون ، وختم على قلوبكم فصرتم لا تفقهون شيئاً ، من إله غيره يقود على رد ما سلب منكم وأنتم تعرفون ذلك ولا تنكرونه فلماذا تشركون معه آلهة أخرى ؟ ثم التفت عنهم الى التعجيب من حالهم فقال ـ تعالى ـ « أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » أى : أنظر كيف ننوع الآيات والحجج والبراهين فنجعلها على وجوه شتى ليتعظوا ويعتبروا ثم هم بعد ذلك يعرضون عن الحق ، وينأون عن طريق الرشاد .

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ « أرأيتم » للتنبيه ، أى : « ان لم تكونوا قد رأيتم ذلك فبينوه وتأملوا ما يدل عليه .

والضمير في (به) يعود الى المأخوذ وهو السمع والبصر والفؤاد .

وفى قوله (أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) تعجيب من عدم تأثرهم رغم كثرة الدلائل وتنوعها من أسلوب الى أسلوب .

وجملة (ثم هم يصدفون) معطوفة على جملة نصرف الآيات وداخلة فى حكمها ، وكان العطف بثم لإفادة الاستبعاد المعنوى ، لأن تصريف الآيات والدلائل يدعو الى الإقبال ، فكان من المستبعد فى العقول والأفهام أن يترتب عليه الإعراض والإبتعاد .

قال القرطبى : (يصدفون) أى . يعرضون . يقال : صدف عن الشيء اذا أعرض صدفا وصدوفا فهو صادف ... فهم مائلون معرضون عن الحجج والدلالات (١) .

ثم وجه عقولهم الى لون آخر من ألوان الإقناع فقال — تعالى — : (قل أرايتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أوجهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون) . بغتة : أى مفاجأة ، وجهرة : أى جهارا عيانا .

والمعنى : قل لهم أيها الرسول الكريم أخبرونى عن مصيركم ان أتاكم عذاب الله مباغتاً ومفاجئاً لكم من غير ترقب ولا انتظار ، أو أتاكم ظاهراً واضحاً بحيث ترون مقدماته ومباديه ، هل يهلك به إلا القوم الظالمون ؟

والاستفهام فى قوله (هل يهلك .) بمعنى النفى ، أى : ما يهلك به إلا القوم الظالمون ، الذين أصروا على الشرك والجحود ، فهلاكهم سببه السخط عليهم والعقوبة لهم ، لأنهم عموا وصموا عن الهداية .

ثم بين ـ سبحانه ـ وظيفة الرسل فقال : (وما نرسل المرسلين) إلا مبشرين ومنذرين) ، أى : تلك سنتنا وطريقتنا فى اهلاك المكذبين للرسل ، والمعرضين عن دعوتهم ، فإننا ما نرسل المرسلين اليوم الا بوظيفة معينة محددة هى تقديم البشارة لمن آمن وعمل صالحاً ، وسوق الإنذار لمن كذب وعمل سيئاً .

فالجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لبيان وظيفة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولإظهار أن مايقترحه المشركون عليهم من مقترحات باطلة ليس من وظائف المرسلين أصلا .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٢٨ .

ثم بين — سبحانه — عاقبة من آمن وعاقبة من كفر فقال : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) .

والمعنى : فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأصلح فى عمله . فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالجاحدين ، ولا من عذاب الآخرة الذى يحل بالمكذبين ، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم والمس اللمس باليد ، ويطلق على ما يصيب المرء من ضر أو شر - فى الغالب - وفى قوله (يمسهم العذاب) استعارة تبعية ، فكأن العذاب كائن حى يفعل بهم ما يريد من الآلام والعذاب .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) الأجوبة الحاسمة التى تدمغ شبهات الكافرين ، وتبين ضلال مقترحاتهم فقال :

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقترحون عليك المقترحات الباطلة قل لهم : ليس عندى خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون ، وإنما ذلك لله — تعالى — فهو الذى له خزائن السموات والأرض ، وقد كان المشركون يقولون للنبى — صلى الله عليه وسلم — إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع عيشنا ويغنى فقرنا ، وقل لهم كذلك إنى لا أعلم الغيب فأخبركم بما مضى وبما سيقع فى المستقبل ، وإنما علم ذلك عند الله ، وقد كانوا يقولون له أخبرنا بما ينفعنا ويضرنا فى المستقبل . حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، وقل لهم : إنى لست ملكا فأطلع على مالا يطلع عليه الناس وأقدر على مالا يقدرون عليه . وقد كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل طعاما ويمشى فى الأسواق ثم يتزوج النساء .

ثم بين لهم وظيفته فقال : (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى إن وظيفتى اتباع ما يوحى الى من ربى . فأنا عبده وممتثل لأمره ، وحاشاى أن أدعى شيئا من تلك الأشياء التى اقترحتموها على . فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لإظهار تبريه عما يقترحونه عليه .

ثم بين لهم — سبحانه — الفرق بين المهتدى والضال فقال . (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

أى : قل لهم : هل يستوى أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، وذو البصيرة المنيرة التى اهتدت إلى الحق فآمنت به واتبعته ؟

فالمراد بالأعمى الكافر الذى لم يستجب للحق ، وبالبصير المؤمن الذى انقاد له .

والاستفهام للانكار ونفى الوقوع ، أى: كما أنه لا يتساوى أعمى العينين وبصيرهما ، فكذلك لا يتساوى المهتدى والضال والرشيد والسفيه بل إن الفرق بين المهتدى والضال أقوى وأظهر ، لأنه كم من أعمى العينين وبصير القلب هو من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء . وكم من بصير العينين أعمى القلب هو أضل من الأنعام ، ولذا قرعهم الله - تعالى - بقوله : « أفلا تتفكرون ؟ أى : أفلا تتفكرون فى ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام، وبين صفات الرب وصفات الانسان والاستفهام هنا للتحريض على التفكر والتدبر .

ثم أمر الله — تعالى — نبيه — ﷺ — أن يجتهد فى إنذار قوم يتوقع منهم الصلاح والاستجابة للحق ، بعد أن أمره قبل ذلك بتوجيه دعوته إلى الناس كافة فقال تعالى : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون » .

والمعنى : عظ وخوف يا محمد بهذا القرآن أولئك الذين يخافون شدة الحساب والعقاب ، وتعتريهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال يوم القيامة لأنهم يعلمون أنه يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، فهؤلاء هم الذين ترجى هدايتهم لرقة قلوبهم وتأثرهم بالعظات والعبر .

فالمراد بهم المؤمنون العصاة الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ولذا قال ابن كثير : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . .) أى وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب أى : يوم القيامة ، (ليس لهم) يومئذ (من دون الله ولى ولا شفيع) أى : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم (لعلهم يتقون) فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ويضاعف لهم الجزيل من ثوابه)(١) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٤ .

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرب فقراء المسلمين من مجلسه لأنهم مع فقرهم أفضل عند الله من كثير من الأغنياء . فقال تعالى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » .

أى : لا تبعد أيها الرسول الكريم عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم صباح مساء ، ويريدون بعملهم وعبادتهم وجه الله وحده بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء المتغطرسين والأقوياء الجاهلين .

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن مسعود قال : (مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ لا أطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك . فنزلت هذه الآية(١) :

ففى الآية الكريمة نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء من مجلسه . لأنه وإن كان صلى الله عليه وسلم يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للاسلام لينال بقوتهم قوة ، إلا أن الله تعالى بين له أن القوة فى الإيمان والعمل الصالح ، وأن هؤلاء الضعفاء من المؤمنين قد وصفهم خالقهم بأنهم يتضرعون إليه فى كل أوقاتهم ولا يقصدون بعبادتهم إلا وجه الله ، فكيف يطردون من مجالس الخير ؟

ثم قال تعالى : (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

أى : إن الله تعالى هو الذى سيتولى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شيء ، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شيء ، فهم مجزيون .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠٤ .

بأعمالهم ، كما أنك أنت يامحمد مجزى بعملك ، فإن طردتهم استجابة لرضى غيرهم كنت من الظالمين . إذ أنهم لم يصدر عنهم ما يستوجب ذلك ، وحاشا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد قوما تلك هي صفاتهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما كفى قوله (ما عليك من حسابهم من شيء) حتى ضم إليه (وما من حسابك عليهم من شيء)؟ قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى في قوله : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه .

وقيل: الضمير للمشركين . والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين)(١) .

وهنا تخريج آخر لقوله : (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء) بأن المعنى : ما عليك شيء من حساب رزقهم ان كانوا فقراء ، وما من حسابك في الفقر والغنى عليهم من شيء ، أي أنت مبشر ومنذر ومبلغ للناس جميعاً سواء منهم الفقير والغني ، فكيف تطرد فقيراً لفقره ، وتقرب غنيا لغناه ؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك .

وقوله (فتكون من الظالمين) جواب للنهي عن الطرد ، وقوله (فتطردهم) جواب لنفي الحساب .

ثم قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : هؤلاء من الله عليهم من بيننا . أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٣ .

والمعنى : ومثل ذلك الفتن . أى الابتلاء والاختبار ، جعلنا بعض البشر فتنة لبعض ، ليترتب على هذه الفتن أن يقول المفتونون الأقوياء فى شأن الضعفاء : أهؤلاء الصعاليك خصهم الله بالإيمان من بيننا ! وقد رد الله عليهم بقوله (أليس الله بأعلم الشاكرين) أى : أليس هو بأعلم بالشاكرين له باقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيرفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

والكاف فى قوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ..) فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف والتقدير : ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية فتنا بعض هذه الأمم ببعض ، ومن مظاهر ذلك أننا ابتلينا الغنى بالفقير ، والفقير بالغنى ، فكل واحد مبتلى بضده ، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم ، فامتنعوا عن الدخول فى الإسلام لذلك ، فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم . فكان ذلك فتنة لهم(١) .

واللام فى قوله ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) تعليلية لأنها هى الباعث على الاختيار أى : ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة ابتلاء منا وامتحانا .

والاستفهام فى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) للتقرير على أكمل وجه لأنه سبحانه محيط بكل صغير وكبير ودقيق وجليل .

وكذلك تكون الآيات الكريمة قد قررت أن الفضل ليس بالغنى ولا بالجاه ولا بالقوة فى الدنيا ، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم ، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علماً ليس فوقه علم .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٣٤ .

وَإِذَا جَآءَكَ

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

السلام والسلامه مصدران من الثلاثى . يقال سلم فلان من المرض أو من البلاء سلاماً وسلامة ومعناهما البراءة والعافية . ويستعمل السلام فى التحية، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل سوء ، فهو آية المودة والأمان والصفاء .

والمعنى : وإذا حضر إلى مجالسك يا محمد أولئك الذين يؤمنون بآياتنا ويعتقدون صحتها فقل لهم : تحية لكم من خالقكم وبشارة لكم بمغفرته ورضوانه مادمتم متبعين لهديه ، ومحافظين على فرائضه .

(كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أنه سبحانه أوجب على نفسه الرحمة لعباده تفضلا منه وكرما .

ثم بين سبحانه أصلا من أصول الدين فى هذه الرحمة المكتوبة فقال « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » .

أى أنه من عمل منكم عملا تسوء عاقبته متلبساً بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد ثم تاب من بعد تلك الجهالة وأصلح خطاه وندم على مابدر منه ، ورد المظالم إلى أهلها ، فالله سبحانه شأنه فى معاملته لهذا التائب النادم أنه غفور رحيم »

ثم قال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) المنزلة فى بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر الصحيح والفقه الدقيق .

« ولتستبين سبيل المجرمين » أى ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يصارح أعداءه ببراءته من شركهم ومن اتباع باطلهم فقال - تعالى - : قل إنى نهيت . . . . .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين . ذكر فى هذه الآية أنه - تعالى - نهى عن سلوك سبيلهم فقال : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس مرتبة من الإنسان بكثير . وكون الأشرف مشتغلا بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل وأيضاً فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها ، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه ، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للهدى »(١) .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك أن تركن إليهم ، إن الله نهانى وصرفنى بفضله ، وبما منحنى من عقل مفكر عن عبادة الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، وقل - أيضاً - لهم بكل صراحة وقوة : إنى لست متبعا لما تمليه عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل ، ولو أنى ركنت إليكم لضللت عن الحق وكنت خارجا عن طائفة المهتدين .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٤ طبعة المطبعة الشرقية ١٣٢٤ هـ .

فالآية الكريمة قطعت بكل حسم ووضوح أطماعهم الفارغة فى استمالة النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أهوائهم، وصمتهم بأنهم فى الضلال غارقون، وعن الهدى مبتعدون.

وجاءت كلمة «نهيت» بالبناء للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهوره أى: نهانى الله - تعالى - عن ذلك. وأجرى على الأصنام اسم الموصول الموضوع للعقلاء لأنهم عاملوهم معاملة العقلاء فأتى لهم بما يحكى اعتقادهم.

قال أبو حيان: «وتدعون معناه تعبدون: وقيل معناه تسمونهم آلهة من دعوت ولدى زيداً أى سميته بهذا الإسم. وقيل تدعون فى أموركم وحوائجكم وفى قوله تدعون من دون الله استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا منه على غير بصيرة، ولفظة نهيت أبلغ من النفى بلا أعبد إذ ورد فيه ورود تكليف» (١).

وجملة «قل لا أتبع أهواءكم» مستأنفة، وعدل بها عن العطف الى الاستئناف لتكون غرضاً مستقلا، وأعيد الأمر بالقول زيادة فى الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفى شاملا الإتباع فى عبادة الأصنام وفى غيرها من ألوان ضلالهم كطلبهم طرد المؤمنين من مجلسه، وعبر بقوله «قل لا أتبع أهواءكم» دون لا أتبعكم. الإشارة إلى أنهم فى عبادتهم لغير الله تابعون للأهواء الباطلة، نابذون الأدلة العقلية، وفى هذا أكبر برهان على انطماس بصيرتهم، وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل.

وجملة «قد ضللت إذاً» جواب لشرط مقدر. أى: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت إذاً وما أهديت.

وجملة «وما أنا من المهتدين» معطوفة على جملة «قد ضللت» ومؤكدة

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٤ ص ١٤٢

لمضمونها أى : إنه إن فعل ذلك - على سبيل الفرض والتقدير - خرج عن الحالة التى هو عليها الآن من كونه فى عداد المهتدين الى كونه فى زمرة الضالين .

والتعبير بقوله « وما أنا من المهتدين » أبلغ من قوله وما أنا مهتد ، لأن التعريف فى المهتدين تعريض للجنس ، وإخبار المتكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة المهتدين ، فيفيد أنه مهتد بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشىء بإثبات ملزومه وهى أبلغ من التصريح . ولذا قال صاحب الكشاف قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم ، لأنك تشهد له بكونه معدوداً فى زمرتهم ومعرفة مساهمته معهم فى العلم » .

وبعد أن أمر الله - تعالى - نبيه بمصارحة المشركين بأنه لن يكون فى يوم من الأيام متبعاً لأهوائهم ، أمره أن يخبرهم بأنه على الحق الواضح الذى لا يضل متبعه ، وبأن الله وحده هو الذى سيقضى بينه وبينهم فقال - تعالى -:

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

البينة الدلالة الواضحة من بان يبين إذا ظهر ، أو الحجة الفاصلة بين

الحق والباطـــل على أنها من البينونة أى الانفصال .

والمعنى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وملة صحيحة لا يعتريها شك ، ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربى الذى لا يضل ولا ينسى .

والتنوين فى كلمة « بينة » للتفخيم والتعظيم ، وهى صفة لموصوف محذوف للعلم به فى الكلام ، أى : على حجة بينة واضحة محقة للحق ومبطلة للباطل فأنا لن أتزحزح عنها أبدا .

وفى ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، وإنما هم قد اتبعوا ماوجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وجملة « وكذبتم به » فى موضع الحال من « بينه » وهى تفيد التعجب منهم حيث كذبوا بمادلت عليه البينات ، واتفقت على صحته العقول السليمة.

والضمير فى قوله « به » يعود على الله ـ تعالى ـ أى : وكذبتم بالله مع أن دلائل توحيده ظاهرة واضحة .

وقيل يعود على البينة والتذكير باعتبار أنها بمعنى البيان .

وقيل يعود على القرآن أى والحال أنكم كذبتم بالقرآن الذى هو بينتى من ربى .

وقوله « ماعندى ماتستعجلون به » أى : ليس فى مقدورى أن أنزل بكم ما تستعجلونه من العذاب ، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده .

وهذه الجملة الكريمة رد على المشركين الذين استعجلوا نزول العذاب عند ما أنذرهم النبى (صلى الله عليه وسلم) بسوء المصير إذا ما استمروا فى ضلالهم ، فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فكان رد النبى (ﷺ) عليهم بأن الذى يملك إنزال العذاب بهم إنما هو الله وحده ، وتأخير العذاب عنهم إنما هو لحكمة يعلمها الله ، فهو وحده الذى يقدر وقت نزوله .

وقوله « إن الحكم إلا لله » أى : ما الحكم فى تعجيل العذاب أو تأخيره وفى كل شأن من شئون الخلق إلا لله وحده فهو ـ سبحانه ـ الذى ينزل قضاءه حسب سنته الحكيمة ، وموازينه الدقيقة .

وقرأ الكسائى وغيره « يقض الحق » أى : يقض ـ سبحانه ـ القضاء الحق فى كل شأن من شئونه .

وقوله « يقص الحق » أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره « وهو خير الفاصلين » أى : القاضين بين عباده .

قال ابن جرير : « وهو خير الفاصلين » أى : وهو خير من ميز بين المحق والمبطل وأعدل لهم ، لأنه لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة إليه ولا لقرابة ولا مناسبه ، ولا فى قضائه جور لأنه لا يأخذ الرشوة فى الأحكام فيجور ، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم فيما لو كان أمر إنزال العذاب عليهم بيد النبى عليه الصلاة والسلام فقال : قال لو أن عندى . . . . . .

أى : قل لهم يا محمد لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تستعجلونه ، لقضى الأمر بينى وبينكم .

قال صاحب الكشاف أى : لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى . وامتعاضا من تكذيبكم به ، ولتخلصت منكم سريعا » (٢) .

وجملة « والله أعلم بالظالمين » تذييل ، أى : والله أعلم منى ومن كل أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله ، لأنه العليم الخبير الذى عنده ما تستعجلون به .

والتعبير « بالظالمين » إظهار فى مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٣٥

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٠ طبعة بيروت .

ظالمون فى شركهم وظالمون فى تكذيبهم لما جاء به النبى (صلى الله عليه وسلم).

قال ابن كثير : فإن قيل : فكيف الجمع بين هذه الآية وبين ماثبت فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يارسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب(١) فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فيها فإذا جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وماردوا به عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يامحمد : إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له .

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

قال ابن كثير فالجواب على ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة يكتنفانها جنوبا وشمالا فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم ، (٢) .

ثم يمضى السياق القرآنى مع المكذبين المتعجلين للعذاب ، فيسوق لهم

---

(١) قرن الثعالب أو قرن المنازل : اسم مكان على بعد يوم وليلة من مكة وهو ميقات أهل نجد .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٦

صورة لعلم الله الشامل الذى لايند عنه شىء « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو . . . .

قال القرطبى : « مفاتح جمع مفتح ، ويقال مفتاح ويجمع مفاتيح ، وهى قراءة ابن السميقع ، والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقاً محسوساً كان كالقفل على البيت أو معقولا كالنظر ، وروى ابن ماجه فى سننه وأبى حاتم البستى فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه ، وهو فى الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل فى الشاهد بالمفتح إلى الغيب عن الإنسان . ولذلك قال بعضهم هو مأخوذ من قول الناس افتح على كذا ، أى: أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به فانه — تعالى — عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو ، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه . . » (١) .

والغيب : ما غاب عن علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى معرفته ، وهو يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن ، ويشمل الأعراض الخفية ومواقيت الأشياء وغير ذلك . وقدم الظرف لإفادة الاختصاص ، أى : عنده لا عند غيره مفاتيح الغيب ، وجملة لايعلمها إلا هو ، فى موضع الحال من مفاتح ، وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها .

ومعنى « لا يعلمها إلا هو » أى : لا يعلم الغيوب علماً تاماً مستقلا إلا هو - سبحانه - فأما ما أطلع عليه بعض أصفيائه من الغيوب فهو إخبار منه لهم ،

(١) تفسير القرطبى ﺟ ٧ ص ١ طبعة دار الكتاب العربى .

فكان فى الأصل راجعاً إلى علمه هو . قال - تعالى - عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول » .

ثم بين - سبحانه - أن علمه ليس مقصورا على المغيبات، وإنما هو يعملها كما يشمل المشاهدات فقال « ويعلم ما فى البر والبحر » .

قال الراغب : أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ، وقيل إن أصله الماء الملح دون العذب وأطلق على النهار بالتوسع أو التغليب ، والبر ما يقابله من الأرض وهو ما يسمى باليابسة .

وهذه الجملة معطوفة على جملة ، وعنده مفاتيح الغيب ، لإفادة تعميم علمه — سبحانه — بالأشياء الظاهرة المتفاوتة فى الظهور بعد افادة علمه بما لا يظهر للناس .

وقدم ذكر البر على البحر على طريقه الترقى من الأقل إلى الأعظم ، لأن قسم البحر من الأرض أكبر من قسم البر ، وخفاياه أكثر وأعظم ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر .

ثم صرح - سبحانه - بشمول علمه الكل كلى وجزئى ، ولكل صغير وكبير ، ولكل دقيق وجليل ، فقال - تعالى - «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين» .

أى : وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ولا حبة فى باطن الأرض وأجوافها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها إلا ويعلمه الله علما تاما شاملا ، لأن كل ذلك مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهى الثابت .

وجملة « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » معطوفة على جملة ، ويعلم ما فى البر والبحر ، لقصد زيادة التعميم فى الجزئيات الدقيقة .

والمراد بظلمات الأرض بطونها ، وكنى بالظلمة عن البطن لأنه لا يدرك ما فيه كما لا يدرك ما فى الظلمة .

وقوله « إلا فى كتاب مبين » تأكيد لقوله « لا يعلمها » لأن المراد بالكتاب المبين علم الله - تعالى - الذى وسع كل شىء ، أو اللوح المحفوظ الذى هو محل معلوماته - عز وجل - .

قال الإمام الرازى : قال الزجاج : يجوز أن الله - تعالى - : أثبت كيفية المعلومات فى كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال - تعالى - : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » .

ثم قال الإمام الرازى : وفائدة هذا الكتاب أمور :

أحدها : أنه - تعالى - : إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علمه فى المعلومات، وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شىء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له .

وثانيها : أنه يجوز أن يقال : أنه - تعالى - : ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها : أنه - تعالى - : علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع - أيضاً - تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كتابة جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجبا تاما ، وسببا كاملا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال صلى الله عليه وسلم « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة »(١) .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أمور من أهمها :

أن علم الله - تعالى - : محيط بالكليات والجزئيات ، وبكل شىء فى هذا الكون ، وبذلك يتبين بطلان رأى بعض الفلاسفة الذين قالوا بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٥٧ .

أن علم الغيب مرده إلى الله وحده ، قال الحاكم : دل قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب » .

وقال القاسمى : قال صاحب « فتح البيان » : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من مدعى الكشف والإلهام ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم سوى خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد » قال ابن مسعود « أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتيح الغيب » .

وروى البخارى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله . لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يدرى أحد متى يجىء المطر »(١) .

وقال القرطبى: قال علماؤنا : أضاف ـ سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده ، فمن قال : إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر ، وكذلك من قال: إنه يعلم ما فى الرحم فهو كافر...وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » ثم قال : وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقر والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال،

(١) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٣٤٣ .

واستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب(١) والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال ، وكل ذلك من الكبائر لحديث النبي ﷺ « من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما » والعراف هو الحازر والمنجم الذي يدعي علم الغيب(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - : شمول علمه لكل شيء ، أتبع ذلك بالحديث عن كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال - تعالى - :

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

(١) السراب : ما يراه الشخص في منتصف النهار ملتصقا بالأرض كأنه ماء جار وهو ليس بشيء ، الآل : ما يراه بالضحى كأنه الماء بين السماء والأرض
(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣ .

قوله – تعالى – : (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى : ينيمكم فيه . والتوفى أخذ الشيء وافياً ، أى تاما كاملا . والتوفى يطلق حقيقة على الإماتة وإطلاقه على النوم – كما هنا مجاز لشبه النوم بالموت فى انقطاع الإدراك والعمل والإحساس قال – تعالى – : (والله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فهذه الآية صريحة فى أن التوفى أعم من الموت ، فقد صرحت بأن الأنفس التى تتوفى فى منامها غير ميتة ، فهناك وفاتان : وفاة كبرى وتكون بالموت ، ووفاة صغرى وتكون بالنوم . والمعنى : وهو – سبحانه – الذى يتوفى أنفسكم فى حالة نومكم بالليل ، دون غيره لأن غيره لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشورا .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى : ما كسبتم وعملتم فيه من أعمال . وأصل الجرح تمزيق جلد الحى بشيء محدد مثل السكين والسيف والظفر والناب وأطلق هنا على ما يكتسبه الإنسان بجوارحه من يد أو رجل أو لسان.

وتخصيص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد ، لأن الغالب أن يكون النوم ليلا ، وأن يكون الكسب والعمل نهاراً ، قال – تعالى – : (وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا) .

(ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى) أى : ثم إنه بعد توفيكم بالنوم يوقظكم منه فى النهار ، لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمى فى علم الله – تعالى – ، والمقدر له فى هذه الدنيا ، فقد جعل – سبحانه – لأعماركم آجالا محددة لا بد من قضائها وإتمامها .

وجملة ، ثم يبعثكم فيه معطوفة على (يتوفاكم بالليل) فتكون ثم للمهلة الحقيقية وهو الأظهر .

(ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) أى : ثم إليه وحده

يكون رجوعكم بعد إنقضاء حياتكم فى هذه الدنيا ، فيحاسبكم على أعمالكم التى اكتسبتموها فيها ، إن خيراً فخير وإن شرا فشر .

فالآية الكريمة تسوق للناس مظهرا من مظاهر قدرة الله ، وتبرهن لهم على صحة البعث والحساب يوم القيامة ، لأن النشأة الثانية — كما يقول القرطبى — منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى .

هذا ، ويرى جمهور المفسرين أن ظاهر الخطاب فى الآية للمؤمنين والكافرين ، ولكن الزمخشرى خالف فى ذلك فجعلها خطابا للكافرين فقال: (وهو الذى يتوفاكم بالليل ، الخطاب للكفرة ، أى : أنتم منسدحون الليل كله كالجيف — أى مسطحون على القفا — (ويعلم ما جرحتم بالنهار) ما كسبتم من الآثام فيه (ثم يبعثكم فيه) من القبور فى شأن ذلك الذى قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار (ليقضى أجل مسمى) وهو الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم) (١) .

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح لأنه لم يرد نص يدل على تخصيص الخطاب فى الآية للكافرين .

ثم قال — تعالى — : (وهو القاهر فوق عبادة) أى : وهو الغالب المتصرف فى شئون خلقه يفعل بهم ما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وأماتة وإثابة وعقابا إلى غير ذلك ، والمراد بالفوقية فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة .

قال الإمام الرازى : وتقرير هذا القهر من وجوه : الأول ، أنه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد . والثانى : أنه قهار للوجود بالافناء والإفساد ، فإنه

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٢

- تعالى - هو الذى ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم تارة أخرى فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه فى الممكنات والثالث : أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار ، وتمام تقريره فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) . . (١) .

وقوله (ويرسل عليكم حفظه) أى : ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها وتسجل ماتعملونه من خير أوشر . قال :- تعالى - : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون) وقال - تعالى -: (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم) (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون)

قال صاحب الكشاف : فإن قلت إن الله - تعالى - غنى بعلمه عن كتابة الملائكة فما فائدتها ؟ قلت : فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم ، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على رءوس الأشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء) (٢) .

وجملة (ويرسل عليكم حفظة) يجوز أن تكون معطوفة على اسم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٥٨

(٢) « الكشاف جـ ٢ ص ٣٣

الفاعل الواقع صلة لأول ، لأنه فى معنى يقهـ والتقدير وهو الذى يقهر عباده ويرسل فعطف الفعل على الإسم لأنه فى تأويله .

وقوله « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » أى : حتى إذا إحتضر أحدكم وحان أجله قبضت روحه ملائكتنا الموكلون بذلك حالة كونهم لا يتوانون ولا يتأخرون فى أداء مهمتهم .

قال الآلوسى : « وحتى فى قوله ، حتى إذا جاء أحدكم الموت ، هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل : ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما يحفظون منكم مدة حياتكم ، حتى إذا انتهت مدة أحدكم وجاءت أسباب الموت ومباديه توفته رسلنا الآخرون المفوض إليهم بذلك وانتهى هناك حفظ الحفظة . والمرسل بالرسل على ماأخرجه ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أعوان ملك الموت »(١) .

وقال الجمل : فإن قلت : إن هناك آية تقول : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ، وثانية تقول : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » ، والتى معنا تقول « توفته رسلنا » ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

فالجواب على ذلك أن المتوفى فى الحقيقة هو الله . فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، ولملك الموت أعوان من الملائكة فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده ، فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه ، وقيل المراد من قوله « توفته رسلنا » ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له (٢) .

ثم صرح - سبحانه - بأن مصير الخلق جميعا إليه فقال : ثم ردوا إلى

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٧٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٠ .

الله مولاهم الحق » أى : ثم رد الله - تعالى - هؤلاء الذين توفتهم الملائكة إلى مالكهم الحق الذى لا يشوب ملكه باطل ليتولى حسابهم وجزاءهم على أعمالهم .

فالضمير فى « ردوا » يعود على الخلائق الذين توفتهم الملائكة والمدلول عليهم بأحد . والسر فى الإفراد أولا والجمع ثانياً وقوع التوفى على الأفراد والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث فيحكم فيهم بعدله . قال - تعالى - « قل إن الأولين والآخرين لمجموعين إلى ميقات يوم معلوم » .

وقيل إن الضمير فى « ردوا » يعود على الملائكة . أى : ثم ردوا أولئك الرسل بعد إتمام مهمتهم بإماتة جميع الناس فيموتون هم أيضاً . وجملة « ألا له الحكم وهـــو أسرع الحاسبين » تذييل ولذلك ابتدىء بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر .

أى : ألا له الحكم النافذ لا لغيره وهو - سبحانه - أسرع الحاسبين لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلائق من تفكر واشتغال بحساب عن حساب .

وبذلك تكون هذه الآيات الثلاث قد أقامت أقوى البراهين وأصحها على كمال قـــدرة الله ، ونفاذ إرادته ، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا .

ثم ساق القرآن لوناً آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله وسابغ رحمته وفضـــله وإحسانه فقال - تعالى - : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » .

قال صاحب الكشاف : ظلمات البر والبحر مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما .

يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب ، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل » (١) .

وقيل حمله على الحقيقة أولى فظلمة البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل ومن ظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب ، وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك .

والتضرع : المبالغة فى الضراعة مع الذل والخضوع . والخفية ـ بالضم والكسر ـ الخفاء والاستتار . والكرب الغم الشديد مأخوذ من كرب الأرض وهو إثارتها وقلبها بالحفر . فالغم يثير النفس كما يثير الأرض كاربها .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين من الذى ينجيكم من ظلمات البر والبحر عند ما تغشاكم بأهوالها المرعبة ، وشدائدها المدهشة ، إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلانا وأسرارا بذلة وخضوع وإخلاص قائلين له : لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدائد والدواهى المظلمة لنكونن لك من الراسخين فى الشكر المداومين عليه قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ومن كل غم يأخذ بنفوسكم ثم أنتم بعد هذه النجاة تشركون معه غيره ، مخلفين بذلك وعدكم حانثين فى أيمانكم .

قال الإمام الرازى : « والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله ، وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا ، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه ، وهو المراد من قوله « تضرعا وخفية » فبين ـ سبحانه ـ أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية فى هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله ولا تعويل إلا على فضله وجب أن يبقى هذا الإخلاص فى كل الأحوال ، لكن الإنسان ليس كذلك فإنه بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية ويقدم على الشرك .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٣

ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد يأتى الإنسان بأمور أحدها الدعاء، وثانيها التضرع، وثالثها الإخلاص بالقلب وهو المراد من قوله «خفية» ورابعها التزام الاشتغال بالشكر. ونظير هذه الآية قوله - تعالى - «وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه..» وقوله «وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين.» وبالجملة فعادة أكثر الناس أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به»(١).

ثم بين - سبحانه - قدرته على تعذيبهم تهديدا لهم حتى يخشوا بأسه أثر بيان قدرته على تنجيتهم فقال - تعالى -:

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢ ص ٦٢.

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين ، إن الله ـ تعالى ـ وحده هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم أى : من جهة العلو كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة ، أو من تحت أرجلكم أى من السفل كما حدث بالنسبة لفرعون وجنده من الغرق ، وبالنسبة لقارون حيث خسف به الأرض .

وقيل : من فوقكم أى من قبل سلاطينكم وأكابركم ، ومن تحت أرجلكم أى : من قبل سفلتكم وعبيدكم . وقيل : هو حبس المطر والنبات .

وتصوير العذاب بأنه آت من أعلى أو من أسفل أشد وقعا فى النفس من تصويره بأنه آت من جهة اليمين أو من جهة الشمال ، لأن الآتى من هاتين الجهتين قد يتوهم دفعه ، أما الآتى من أعلى أو من أسفل فهو عذاب غامر قاهر مزلزل لا مقاومة له ولا ثبات معه .

وقوله « أو يلبسكم شيعا » أى : يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، متباينة المشارب ، مضطربة الشئون ، كل فرقة تتبع إماما لها تقاتل معه غيرها ، فيزول الأمن ويعم الفساد .

و « شيعا » جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، وقوله « ويذيق بعضكم بأس بعض » معطوف على ما قبله ، أى : يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ، لأن من عواقب ذلك اللبس التقاتل والتصارع . وفى هاتين الجملتين تصوير مؤثر للعذاب الذى يذوقه الناس بحواسهم إذ يجعلهم ـ سبحانه ـ شيعا وأحزابا غير منعزل بعضها عن بعض ، فهى أبدا فى جدال وصراع وفى خصومة ونزاع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك ، وذلك أشنع ما تصاب به الجماعة فيأكل بعضها بعضا .

ثم تختتم الآية بهذا التعبير الحكيم « انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

أى : أنظر وتدبر ـ أيها الرسول الكريم ـ أو أيها العاقل كيف ننوع

الآيات والعبر والعظات بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى لعلهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة، ويكفوا عن كفرهم وعنادهم.

هذا، وقد ساق ابن كثير عقب تفسير هذه الآية جملة(١) من الأحاديث منها مارواه الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي - ﷺ - ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه. ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».

بعد هذا التهديد الشديد للمعاندين اتجه القرآن إلى الرسول - ﷺ - فأمره أن يصارح قومه بسوء مصيرهم إذا ما استمروا في ضلالهم فقال:

وكذب به قومك وهو الحق، أي: وكذب جمهور قومك بهذا العذاب الذي حدثناك عنه فظنوا أن الله لن يعذبهم بسبب إعراضهم عن دعوتك، أو كذبوا بهذا القرآن الذي هو معجزتك الكبرى.

والتعبير عنهم بقومك تسجيل عليهم بسوء المعاملة لمن هو من أنفسهم وجملة «وهو الحق» مستأنفة لقصد تحقيق القدرة على بعث العذاب عليهم، أو حال من الهاء في به «أي: كذبوا حال كونه حقا، وهو أعظم في القبح قل لهم - يا محمد - «لست عليكم بوكيل» أي: لم يفوض إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق، فأنا لست بقيم عليكم وإنما أنا منذر وقد بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون الناصحين.

ثم ختم هذا التهديد بقوله - تعالى - «لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون».

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٤٠ وما بعدها.

قال الراغب : « النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة » .

والمستقر : وقت الاستقرار .

أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لابد منه ، وسوف تعلمونه فى المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك ، قال — تعالى — « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من قدرة الله ، وهددت المعاندين فى كل زمان ومكان بسوء المصير .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله وأتباعه بأن يهجروا المجالس التى لا توقر فيه آيات الله وشرائعه ، فقال — تعالى — :

« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم . . . » .

قال الراغب : الخوض هو الشروع فى الماء والورود فيه ، ثم استعير للأخذ فى الحديث فقيل : تخاوضوا فى الحديث ، أى : أخذوا فيه على غير هدى وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله - تعالى - « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »(١) .

والمعنى : وإذا رأيت أيها النبى الكريم ، أو أيها المؤمن العاقل ، الذين

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٦٠ للراغب الأصفهانى .

يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والطعن والاستهزاء فأعرض عنهم . وانصرف عن مجالسهم ، وأرهم من نفسك الاحتقار لتصرفاتهم ، ولا تعد إلى مجالسهم حتى يخوضوا فى حديث آخر ، لأن آياتنا المنسوبة إلينا من حقها أن تعظم وأن تحترم لا أن تكون محل تهكم واستهزاء .

قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزؤا فنزلت هـــذه الآية فجعل (صلى الله عليه وسلم) إذا استهزؤا قام فحذروا وقالوا : لا تستهزؤا فيقوم .

وإنما عبر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض ، لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى فيه ولا منفعة من ورائه غالباً .

وقوله «وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» أى : وإما ينسينك الشيطان ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين على سبيل الفرض والتقدير فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها ، وقد جاء الشرط الأول بإذا لأن خوضهم فى الآيات محقق ، وجاء الشرط الثانى بإن لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع .

فإن قيل : النسيان فعل الله فلم أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب بأن السبب من الشيطان وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر فأضيف اليه لذلك، كأن من ألقى غيره فى النار فمات يقال : إنه القاتل وإن كان الإحراق فعل الله .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى :

١ — وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله ، وأن لا يقعد لأن فى القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال القرطبى : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجر ، مؤمنا كان

أوكافراً ، وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم ، وكذلك منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع . فقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة .

وروى الحاكم عن عائشة — رضي الله عنها — قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام » (١) .

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل مافيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادي فيه وأكبره أنه رضاه به ومشاركة فيه والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر قال — تعالى — « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا » (٢) .

٢ — جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض . لأنه إنما أمرنا بالإعراض في حالة الخوض ، وأيضا فقد قال — تعالى — « حتى يخوضوا في حديث غيره » .

قال بعض العلماء : « وحتى غاية الإعراض ، لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبته رعاية المصلحة ، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصلحة » (٣) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٣

(٢) « المنار ج ٧ ص ٥٠٦

(٣) « التحرير والتنوير ج ٧ ص ٢٨٨ للشيخ الفاضل بن عاشور .

٣ – استدل بهذه الآية على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد اليه التكليف فيعفى عما ارتكبه حال نسيانه ففى الحديث الشريف « إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعا وإسناده صحيح .

٤ – قال القرطبى : قال بعضهم إن الخطاب فى الآية للنبى (صلى الله عليه وسلم) والمقصود أمته ، ذهبوا إلى ذلك لتبرئته (صلى الله عليه وسلم) من النسيان . وقال آخرون إن الخطاب له (صلى الله عليه وسلم) والنسيان جائز عليه فقد قال – صلى الله عليه وسلم – مخبرا عن نفسه : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى » فأضاف النسيان اليه . واختلفوا بعد جواز النسيان عليه هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أولا ؟ فذهب إلى الأول – فيما ذكره القاضى عياض – عامة العلماء والأئمة كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن اشترط الأئمة أن الله – تعالى – ينبهه على ذلك ولا يقره عليه . ومنعت طائفة من العلماء السهو عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعية كما منعوه اتفاقا فى الأقوال البلاغية »(١) .

قال الآلوسى : « وأنا أرى أن محل الخلاف النسيان الذى لا يكون منشؤه إشتغال السر بالوساوس والخطرات الشيطانية فإن ذلك مما لا يرتاب مؤمن فى استحالته على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ... »(٢) .

ثم بين – سبحانه – أنه لا تبعة على المؤمنين ما داموا قد أعرضوا عن مجلس الخائضين فقال – تعالى – « وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون » .

أى : وما على الذين يتقون الله شىء من حساب الخائضين على ما ارتكبوا من جرائم وآثام ما دموا قد أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم أن يعرضوا عنهم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ١٤ (٢) تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ١٨٣

ويذكروهم ويمنعوهم عما هم فيه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير لعل أولئك الخائضين يجتنبون ذلك ، ويتقون الله فى أقوالهم وأفعالهم .

وعليه يكون الضمير فى قوله (لعلهم يتقون) يعود على الخائضين .

وقيل يجوز أن يكون الضمير فى قوله (لعلهم يتقون) للذين اتقوا أى: عليهم أى يذكروا أولئك الخائضين ، لأن هذا التذكير يجعل المتقين يزدادون إيمانا على إيمانهم ، ويثبتون على تقواهم .

روى البغوى عن ابن عباس قال : (لما نزلت : وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم .. الخ) قال المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً ؟ فأنزل الله ـ تعالى ـ (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ، يعنى إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون ، وما عليكم نصيب من إثم ذلك الخوض .

قال الجمل : قوله (ولـكن ذكرى) فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنها منصوبة على المصدر بفعل مضمر وقدره بعضهم أمراً ، أى : ولكن ذكروهم ذكرى ، وبعضهم قدره خبراً . أى : ولكن يذكرونهم ذكرى .

والثانى : أنه مبتدأ خبره محذوف : أى : ولكن عليكم ذكرى ، أى : تذكيرهم .

والثالث : أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : هو ذكرى أى : النهى عن مجالستهم والامتناع منها ذكرى .

والرابع : أنه عطف على موضع شىء المجرور بمن أى : ما على المتقين من حسابهم شىء ولـكن عليهم ذكرى فيكون من عطف المفردات وأما على الأوجه السابقة فهو من عطف الجمل » (١) .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ينطلق

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٤

فى تبليغ دعوته دون أن يشغل نفسه بسفاهة السفهاء ، وأن يذكر المعاندين بسوء مصيرهم فقال ـ تعالى ـ :

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

والمعنى : واترك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعبا ولهوا حيث سخروا من تعاليمه واستهزؤا

بها ، وغرتهم الحياة الدنيا حيث اطمأنوا إليها ، واشتغلوا بلذاتها وزعموا أنه لا حياة بعدها .

ولم يقل — سبحانه — اتخذوا اللعب واللهو ديناً لأنهم لم يجعلوا كل ما هو من اللعب واللهو ديناً لهم ، وإنما هم عمدوا إلى أن ينتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها ديناً .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (ومعنى ذرهم : أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم فى نظرك وزناً ، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده (وذكر به) وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم لا ترك إنذارهم وتخويفهم . . ومعنى اتخاذ دينهم لعبا ولهوا ، أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم ، أو أن الكفار كانوا يحكمون فى دين الله بمجرد التشهى والتمنى مثل تحريم السوائب والبحائر ، ولم يكونوا يحتاطون فى أمر الدين ، بل كانوا يكتفون فيه بمجرد التقليد فعبر الله عنهم لذلك بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا . وأنهم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا قال ابن عباس : جعل الله لكل قوم عيدا يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله ، ثم إن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا أما المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله . . » (١) .

والضمير فى قوله (وذكر به) يعود القرآن : أى ذكر الناس بهذا القرآن وقد جاء مصرحا به فى قوله - تعالى - (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

وقوله (أن تبسل نفس بما كسبت) أى : وذكر بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك ، أو تحبس أو ترتهن أو تفتضح ، أو تحرم الثواب بسبب كفرها واغترارها بالحياة الدنيا ، واتخاذها الدين لعبا ولهوا .

ولفظ تبسل مأخوذ من البسل بمعنى المنع بالقهر أو التحريم أو الحبس ومنه أسد باسل لمنعه فريسته من الإفلات . وشراب بسيل أى متروك وهذا الشىء بسيل عليك أى محرم عليك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٦٥

ثم بين – سبحانه – أن هذه النفس المعرضة للحرمان ليس لها ما يدفع عنها السوء فقال . ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أى : ليس لهذه النفس من غير الله ناصر ينصرها ولا شفيع يدفع عنها ، ومهما قدمت من فداء فلن يقبل منها فالمراد بالعدل هنا الفداء فهو كقوله – تعالى – « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به .

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة فلا ولى يتولى دفع ذلك المحذور عنها ، ولا شفيع يشفع فيها ولا فدية تقبل منها ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع . فإذا كانت وجوه الخلاص هى الثلاثة فى الدنيا وثبت أنها لا تفيد فى الآخرة البتة وظهر أنه ليس هناك إلا الإبسال الذى هو الارتهان والاستسلام فليس لها البتة دافع من عذاب الله ، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصى الله »(١) .

ثم بين – سبحانه – عاقبة أولئك الغافلين فقال : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

أى : أولئك الذين أسلموا للهلاك بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من أعمال قبيحة لهم شراب من حميم أى من ماء قد بلغ النهاية فى الحرارة يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم ساق القرآن صورة منفرة للشرك والمشركين تدعو المؤمنين إلى أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم فقال – تعالى – :

« قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا . . . » .

قال ابن كثير : قال السدى : قال المشركون للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٦٥ .

دين محمد — صلى الله عليه وسلم — فأنزل الله - عز وجل - « قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا . . . »(١) .

والمعنى : قل يامحمد أو أيها العاقل لهؤلاء المشركين الذين يحاولون رد المسلمين عن الإسلام ، قل لهم : أنعبد من دون الله مالا يقدر على نفعنا إن دعوناه ولا على ضرنا إن تركناه . ونرد على أعقابنا ، أى نرجع إلى الشرك الذى كنا فيه ، بعد أن هدانا الله إلى الإسلام وأنقذنا من الكفر والضلال.

يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها : قد رد على عقبيه .

والاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار والنفى ، وجىء بنون المتكلم ومعه غيره ، لأن الكلام مع الرسول - ﷺ - عن نفسه وعن المسلمين كلهم .

والمراد بما لا ينفع ولا يضر تلك الأصنام فإنها مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضر ، ولو كانت تستطيع الضر لأضرت بالمسلمين لأنهم خلعوا عبادتها ، وسفهوا أتباعها ، وأعلنوا حقارتها .

وجملة « ونرد على أعقابنا » معطوفة على « ندعو » وعلى داخلة فى حيز الإنكار والنفى . والتعبير عن الشرك بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الإشارة إلى أن الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ومن المستحيل أن يرجع إليها من ذاق حلاوة الإيمان .

وحرف « على » فى قوله « ونرد على أعقابنا » للاستعلاء ، أى رجع على طريق هى جهة عقبه أى مؤخر قدمه كما يقال : رجع وراءه ثم استعمل هذا التعبير فى التمثيل للتلبس بحالة ذميمة كان قد فارقها صاحبها ثم عاد اليها وتلبس بها .

وفى الحديث الشريف « اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٤٥ .

ثم ساق القرآن صورة مؤثرة دقيقة للضلالة والحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد فقال : « كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا » .

« استهوته الشياطين » أى استغوته وزينت هواه ودعته إليه والعرب تقول استهوته الشياطين لمن اختطف الجن عقله فسيرته كما تريد دون أن يعرف له وجهة فى الأرض .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتريدون منا أن نعود إلى الكفر بعد أن نجانا الله منه فيكون مثلنا كمثل الذى ذهبت به مردة الشياطين فألقته فى صحراء مقفرة وتركته تائها ضالا عن الطريق القويم ولا يدرى ماذا يصنع وله أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له ائتنا لكى تنجو من الهلاك ولكنه لحيرته وضلاله لا يجيبهم ولا يأتيهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم ويقولون : ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم . ومحمد — صلى الله عليه وسلم — هو الذى يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام »(١) .

ثم أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم أن يرد على الكفار بما يخرس ألسنتهم فقال :

« قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن هدى الله الذى أرسلت به رسله هو الهدى وحده وما وراءه ضلال وخذلان ، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٤٥ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما محل الكاف في قوله «كالذى استهوته» قلت : النصب على الحال من الضمير في «نرد على أعقابنا» أى : أننكص مشبهين من استهوته الشياطين ؟ فإن قلت ما معنى «استهوته» ؟ قلت هو استفعال من هوى في الأرض أى ذهب فيها كأن معناه : طلبت هويه وحرصت عليه ، فإن قلت : فما محل أمرنا ؟ قلت : النصب عطفاً على محل قوله : «إن هدى الله هو الهدى» على أنهما مقولان كأنه قيل: قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم . . . »(١) .

وقوله «وأن أقيموا الصلاة واتقوه» معطوف على محل «لنسلم» كأنه قيل أمرنا لنسلم وأمرنا أيضاً بإقامة الصلاة والاتقاء .

وفى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى دليل على تفخيم أمرها وعظمة شأنها .

وقوله «وهو الذى إليه تحشرون» جملة مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر من الأمور الثلاثة ، أى : هو الذى تعودون إليه يوم القيامة للحساب لا إلى غيره .

وقوله «وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق» معطوف على قوله «وهو الذى إليه تحشرون» .

قال الآلوسى : «ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما - أيضاً - وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات .

وقوله «بالحق» متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل «خلق» أى : قائما بالحق ، وجوز أن يكون صفة لمصدر الفعل المؤكد أى : خلقا متلبسا بالحق » .

والحق فى الأصل مصدر حق إذا ثبت ، ثم صار إسما للأمر الثابت الذى لا ينكر وهو ضد الباطل .

وقوله «ويوم يقول كن فيكون قوله الحق» أى : وقضاؤه المعروف

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧ .

بالحقيقة كائن ، حين يقول – سبحانه – لشيء من الأشياء « كن فيكون » ذلك الشيء ويحدث .

و « يوم » خبر مقدم ، و « قوله » مبتدأ مؤخر ، و « الحق صفته » .

والجملة الكريمة بيان لقدرته - تعالى - على حشر المخلوقات يكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وإن قوله هو النافذ وأمره هو الواقع قال – تعالى – « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

وفى قوله «قوله الحق» صيغة قصر للمبالغة أى : هو الحق الكامل، لأن أقوال غيره وإن كان فيها كثير من الحق فهى معرضة للخطأ وما كان فيها غير معرض للخطأ فهو من وحى الله أو من نعمته بالعقل والإصابة للحق .

وقوله «وله الملك يوم ينفخ فى الصور» أى : أن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه .

قال أبو السعود : «وتقييد اختصاص الملك له – تعالى - بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، فهو كقوله - تعالى – «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وقوله : « الملك يومئذ الحق للرحمن » .

المراد « بالصور » القرن الذى ينفخ فيه الملك نفخة الصعق والموت ونفخة البعث والنشور والله أعلم بحقيقته .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : إن أعرابياً سأل النبى (صلى الله عليه وسلم) عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » رواه أبو داود والترمذى والحاكم عنه أيضاً .

وقيل المراد بالصور هنا جمع صورة والمراد بها الأبدان أى : يوم ينفخ فى صور الموجودات فتعود إلى الحياة .

ثم ختمت الآية بما يدل على سعة علم الله - تعالى - وعظم إتقانه فى صنعه

فقال ـ تعالى ـ : « عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير » .

الغيب . ما غاب عن الناس فلم يدركوه . الشهادة : ضد الغيب وهي الأمور التي يشاهدها الناس ويتوصلون إلى علمها .

وصفة «الحكيم» تجمع إتقان الصنع فدل على عظم القدرة مع تعلق العلم بالمصنوعات . وصفة « الخبير » تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيها .

أي : فهو ـ سبحانه ـ وحده العالم بأحوال جميع الموجودات ماغاب منها وماهو مشاهد ، وهو ذو الحكمة في جميع أفعاله والعالم بالأمور الجلية والخفية .

وبعد أن ساق القرآن ألواناً من الأدلة على وحدانية الله وسعة علمه وقدرته أخذ في التدليل على بطلان الشرك وإثبات التوحيد عن طريق القصة ، فحكى لنا جانباً مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه فقال ـ تعالى ـ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

والمعنى : واذكر يا محمد وذكر قومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه عبادة الأصنام (أتتخذ أصناماً آلهة) تعبدها من دون الله الذي خلقك فسواك فعدلك (إني أراك وقومك) الذين يتبعونك في عبادتها في ضلال مبين أي في انحراف ظاهر بين عن الطريق المستقيم .

قال الآلوسي : (وآزر بزنه آدم علم أعجمي لأبي إبراهيم - عليه السلام - وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من إبراهيم أو عطف بيان عليه وقيل إنه لقب لأبي إبراهيم واسمه الحقيقي تارح وأن آزر لقبه ، وقيل هو اسم جده ومنهم من قال إنه عمه ، والعم والجد يسميان أبا مجازاً .)(١) .

والإستفهام في قوله (أتتخذ أصناما آلهة) للإنكار . والتعبير بقوله (أتتخذ) الذي هو افتعال من الأخذ ، فيه إشارة بأن عبادته هو وقومه لها شيء مصطنع ، وأن الأصنام ليست أهلا للألوهية ، وفي ذلك ما فيه من التعريض بسخافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم .

والرؤية يجوز أن تكون بصرية تصد منها في كلام إبراهيم أن ضلال أبيه وقومه صار كالشيء المشاهد لوضوحه ، وعليه فقوله (في ضلال مبين) في موضع المفعول .

ويجوز أن تكون الرؤية علمية وعليه فقوله (في ضلال مبين) في موضع المفعول الثاني .

ووصف الضلال بأنه مبين يدل على شدة فساد عقولهم حيث لم يتفطنوا لضلالهم مع أنه كالمشاهد المرئي .

قال الشيخ القاسمي : قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة في الدين لاسيما للأقارب ، فإن من كان أقرب فهو أهم ، ولهذا قال - تعالى - (وأنذر عشيرتك الأقربين) وقال - تعالى - :(قوا أنفسكم

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٧ ص ١٤٩

وأهليكم ناراً » ، وقال (صلى الله عليه وسلم) « أبدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولهذا بدأ النبى (صلى الله عليه وسلم) بعلى وخديجة وزيد وكانوا معه فى الدار فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب ، ثم بالموالى، وبدأ إبراهيم بأبيه ثم بقومه ، وتدل هذه الآية ـ أيضا ـ على أن النصيحة فى الدين والذم والتوبيخ لاجله ليس من العقوق ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : يلقى إبراهيم آباه آزر يوم القيامة « وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصنى فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب انك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله ـ تعالى ـ إنى حرمت الجنة على الكافرين . : . . »

ثم قال الشيخ القاسمى : والآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن آزر عم إبراهيم لا أبوه ، وذلك لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ومثله لا يجزم به من غير نقل » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم فقال ـ تعـــالى ـ « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

أى : وكما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ماعليه أبوه وقومه من الشرك ، نريه ـ أيضا ـ مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات والأرض، ونطلعه على حقائقها . ليزداد إيمانا على إيمانه وليكون من العالمـــين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفيه على الباطل .

(١) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٣٦٨

والرؤية هنا المقصود بها الانكشاف والمعرفة . فتشمل المبصرات والمعقولات التي يستدل بها على الحق .

وإنما قال « نرى إبراهيم » بصيغة المضارع ، مع أن الظاهر أن يقول « أريناه » لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته — تعالى — في ذلك الملكوت العظيم .

والملكوت : مصدر كالرغبوت والرحموت والجبروت ، وزيدت فيه الواو والتاء للمبالغة في الصفة ، والمراد به الملك العظيم وهو مختص بملكه — تعالى — كما قال الراغب في مفرداته .

ثم بين — سبحانه — ثمار تلك الإرادة التي أكرم بها نبيه إبراهيم فقال : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي » .

« جن عليه الليل » : أى ستره بظلامه وتغشاه بظلمته ، وأصل الجن : الستر عن الحاسة . يقال : جنه الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا ، ومنه الجن والجنة — بالكسر — والجنة — بالفتح — وهى البستان الذى يستر بأشجاره الأرض .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم رأى كوكبا قال هذا ربي، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان ، مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليه بالإبطال ، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال .

قال صاحب الكشاف : « كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال . ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها . لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثا

أحدثها، وصانعا صنعها ، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم «هذا ربى» قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما رو غيره متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (١) .

وجملة « قال هذا ربى » مستأنفة إستئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة « رأى كوكبا » وهو أن يسأل سائل : فماذا كان منه عندما رآه فيكون قوله : « قال هـ ا ربى » جوابا لذلك .

وقوله « فلما أفل » أى : غاب وغرب : يقال أفل الشيء يأفل ويأفل أفلا وأفولا أى : غاب .

وقوله « قال لا أحب الآفلين » أى : لا أحب عبادة الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وابتعاد وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

وجاء بالآفلين بصيغة جمع المذكر المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة فى الأكوان .

ثم بين — سبحانه — حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم على وحدانية الله فقال — تعالى — : فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى » أى : فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا فى الطلوع ، منتشرا ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى .

وبازغا : مأخوذ من البزوغ وهو الطلوع والظهور . يقال : بزغ الناب بزوغا إذا طلع .

« فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » .

أى : فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٧٦ .

لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفول — أيضاً — لا يصلح أن يكون إلها .

وفى قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق وأنه واحد وأن الكواكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية . وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب . ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله « لأكونن من القوم الضالين » يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال .

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أفوله ، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أفوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم إستدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم .

ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال — تعالى — « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة فى الطلوع وقد عم نورها الآفاق، قال مشيرا إليها « هذا ربى هذا أكبر » أى : أكبر « الكواكب جرما وأعظمها قوة ، فهو أولى بالألوهية ان كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية .

فقوله « هذا أكبر » تأكيد لما رامه من إظهار النصفة للقوم ، ومبالغة فى تلك المجاراة الظاهرة لهم ، وتمهيد قوى لإقامة الحجة البالغة عليهم ، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم بعد ذلك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما وجه التذكير فى قوله « هذا ربى » والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد ، كقولهم : ما جاءت حاجتك ومن كانت أمك ، وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا فى صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ إحترازاً من علامة التأنيث (١) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤١ .

وقوله « فلما أفلت قال : « ياقوم إنى برىء مما تشركون »أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوؤها ، جاهر إبراهيم قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال : ياقوم إنى برىء من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأفول ، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة اخرى .

قال الآلوسى : وإنما احتج - عليه السلام- بالأفول دون البزوغ مع أنه انتقال ، لأن الأفول متعدد الدلالة أيضاً إذ هو انتقال مع احتجاب ولا كذلك البزوغ ، ولأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول(١) .

هذا والمتأمل فى هذه الحالات الثلاث يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى الاستدلال على وحدانية الله ، فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدها بأسلوب يقنع العقول السليمة ، ورحم الله صاحب الانتصاف فقد بين ذلك بقوله :

« والتعريض بضلالهم ثانيا أى فى قوله « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » أصرح وأقوى من قوله أولا « لا أحب الآفلين » وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدح فى معتقدهم ولو قيل هذا فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال فاعرض - صلوات الله عليه - بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود(٢) .

ثم ختم إبراهيم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله بقوله - كما حكى القرآن عنه - : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا »

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) الانصاف على الكشاف لأحمد بن المنير ج ٢ ص ٤٠ .

أى : أنى صرفت وجهى وقلبى فى المحبة والعبادة لله الذى أوجد وأنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق .

ومعنى « حنيفا » مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق ، وهو ـ أى حنيفا ـ حال من ضمير المتكلم فى « وجهت » .

وقوله « وما أنا من المشركين » أى : وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم . وقد أفادت هذه الجملة التأكيد لجملة « إنى وجهت وجهى . . . إلخ » .

وبذلك يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أقام الأدلة الحكيمة والبراهين الساطعة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وسفه المعبودات الباطلة وعابديها .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال :

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة ، والحجة الدلالة المبينة للمحجة أى : المقصد المستقيم - كما قال الراغب - وتطلق الحجة على كل مايدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه .

فمعنى « وحاجه قومه » أى : جادلوه وخاصموه أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد وأخرى بالتهديد والتخويف فقد حكى القرآن أنهم قالوا له عندما نهاهم عن عبادة الأصنام « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

وقد رد عليهم إبراهيم ردا قويا جريئا فقال لهم : « أتحاجونى فى الله وقد هدان » أى أتجادلوننى فى شأنه -تعالى- وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه — سبحانه — قد هدانى إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة .

والاستفهام للانكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .

وجملة « وقد هدان » حال مؤكدة للانكار أى لاجدوى من محاجتكم إياى بعد أن هدانى الله إلى الطريق المستقيم ، وجعلنى من المبغضين للأصنام المحتقرين لها .

ثم صارحهم بأنه لايخشى أصنامهم ولا يقيم لها وزنا فقال : « ولا أخاف ماتشركون به » أى لا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع . ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنبيها هود « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » فرد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح .

وقوله « إلا أن يشاء ربى شيئاً » استثناء مما قبله أى : لاأخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئاً من المكروه يصيبنى من جهتها بأن يسقط على صنم يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بقدرة أصنامكم أو مشيئتها ، وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه صاحب الكشاف يكون الاستثناء متصلا .

ويرى ابن عطية وغيره أن الاستثناء منقطع على معنى : لا أخاف معبوداتكم ولكن أخاف أن يشاء ربي خوفي مما أشركتم به .

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم — عليه السلام — مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله ، وعلق مستقبله على ما يريد الله فيه .

وقوله « وسع ربي كل شيء علماً » أى : أن علم ربي وسع كل شيء وأحاط به ، فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال ما يخيفنى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب .

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا فكأن قومه قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه فكان جوابه عليهم : «وسع ربي كل شيء علما» فأنا وإن كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بإلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده .

و «علما» منصوب على التمييز المحول عن الفاعل ، إذ الأصل فى هذا التعبير «أن يقال : وسع علم ربي كل شيء ، ولكن عدل به عن هذا النسق ، وأسند الفعل فيه إلى الله لا إلى علمه ، وجعل لفظ العلم تمييزا لا فاعلا ليكون الوسع والإحاطة والشمول لله ، فيخلع التعبير ظلا أشمل وأفخم وأعمق وقعا فى النفس

وقوله «أفلا تتذكرون» أى تعرضون أيها الغافلون عن التأمل والتفكير بعد أن أوضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة وأن هذه المعبودات التى سواه لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

فالاستفهام للإنكار والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل .

وفى إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز فى العقول ولا يتوقف إلا على التذكير .

ثم حكى القرآن عن إبراهيم — عليه السلام — أنه بعد أن صارح قومه بأنه لا يخشى آلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم والتعجب من شأنهم لأنهم يخوفونه بما لا يخيف فقال : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » .

أى : كيف ساغ لكم أن تظنوا إنى أخاف معبوداتكم الباطلة وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل

فالاستفهام للإنكار التعجبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع أعظم المخلوفات وأهوالها وهو إشراكهم بالله .

قال بعض العلماء : وجملة « وكيف أخاف ... الخ » معطوفة على جملة «ولا أخاف ماتشركون به » ليبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجباً من عدم خوفهم من الله ، وهذا يؤذن بأن قومه كانوا يعرفون الله وأنهم أشركوا معه فى الإلهية غيره فلذلك احتج عليهم بأنهم أشركوا بربهم المعترف به دون أن ينزل عليهم سلطانا بذلك (١) .

وقال الآلوسى : وقوله « وكيف أخاف ما أشركتم» استئناف - كما قاله شيخ الإسلام - مسوق لنفى الخوف عنه - عليه السلام - بحسب زعم الكفر بالطريق الإلزامى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر ، وفى توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ماليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال: أأخاف لما أن كل موجود لا يخلو عن كيفية ، فإذا انتفت جميع كيفياته فقد انتفى من جميع الجهات بالطريق البرهانى » (٢) .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد عاشور ج ٧ ص ٣٣٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٢٠٦

وما فى قوله « ما أشركتم » موصولة والعائد محذوف أى : ما أشركتكم به ثم ركب — عليه السلام — على هذا الإنكار التعجبى ما هو نتيجة له فقال : « فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

أى : فأى الفريقين فريق للموحدين أم فريق المشركين أحق وأولى بالأمن من لحوق الضرر به إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى به وأظهروه بالدلائل والحجج . فجواب الشرط محذوف تقديره أخبرونى بذلك .

وهذا لون من ألجائهم إلى الاعتراف بالحق إن كانوا مما يعقل أو يسمع، وحث لهم على الإجابة .

قال صاحب المنار : « ونكتة عدوله عن قوله « فأينا أحق بالأمن » إلى قوله « فأى الفريقين » هى بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك لا خاصة به وبهم فهى متضمنة لعلة الأمن . وقيل إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس ، واسم التفضيل على غير بابه ، فالمراد أينا الحقيقى بالأمن ، ولكنه عبر باسم التفضيل ناطقا فى استنزالهم عن منتهى الباطل وهو ادعاؤهم أنهم هم الحقيون بالأمن وأنه الحقيق بالخوف إلى الوسط النظرى بين الأمرين، وهو أى الفريقين أحق واحترازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ من هو الفريق الأحق بالأمن فقال ـ تعالى ـ :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى

---

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٢٧٩

الله زلفى ، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم فى ضلال مبين .

هذا وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت «إن الشرك لظلم عظيم» ، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية «الذين آمنوا ولم يلبسوا أيمانهم بظلم» شق ذلك على الناس فقالوا يارسول الله : فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « إن الشرك لظلم عظيم » إنما هو الشرك .

قال الإمام الرازى : والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات فوجب حمل الظلم هاهنا على ذلك » (١) .

وقد فسر الزمخشرى فى كشافه الظلم بالمعصية فقال : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم » وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس (٢) . أى : لأن لبس الإيمان بالشرك أى خلطه به مما لا يتصور لأنهما ضدان لا يجتمعان فى رأى الزمخشرى .

قال الشيخ القاسمى : وفهم الزمخشرى هذا مدفوع بأنه يلابسه ، لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق سواء كان باللسان أو غيره فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب لجواز أن يصدق بوجود الصانع دون وحدانيته لما فى قوله — تعالى — : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٨٢

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالكفر الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك ، بل تغطيته بالكفر وجعله مغلوبا مضمحلا ، أو اتصافه بالإيمان ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مرارا »(١) .

وقال صاحب الانتصاف : « وإنما يروم الزمخشرى بذلك تنزيل الآية على معتقده فى وجوب وعيد العصاة وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصى . ونحن نسلم ذلك ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما »(٢) .

والذى نراه أنه مادام قد ورد عن الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث الصحيح أنه قد فسر الظلم فى الآية بالشرك فيجب أن نسلم به وأن نعض عليه بالنواجذ واجتهاد الزمخشرى هنا — لتأييد مذهبه — مجانب للصواب ، لأنه لا اجتهاد مع النص . لا سيما وأن حديث عبد الله بن مسعود المتقدم قد خرجه الشيخان وغيرهما من أعلام السنة .

ثم بين — سبحانه — مظاهر فضله على نبيه إبراهيم — فقال — تعالى :

---

(١) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٢٠٩

(٢) الانتصاف على الكشاف لابن المنير ج ٢ ص ٤٢ .

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

قال الإمام الرازى: إعلم أنه - تعالى - لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر حجة الله فى التوحيد ونصرها، وذب عنها، عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه.

فأولها : قوله « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم » والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهي قوله « نرفع درجات من نشاء » .

وثالثها ، أنه جعله عزيزا فى الدنيا وذلك لأنه-تعالى-جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته وأبقى هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك . . . » (١) .

والإشارة فى قوله — تعالى — « وتلك حجتنا » إلى جميع ما تكلم به إبراهيم فى مجادلة قومه فى شأن وحدانية الله وبطلان الشرك .

وأضاف - سبحانه - الحجة إليه مع ذكر اللفظ الدال على العظمة وهو «نا» تنويها بشأنها وتفخيما لأمرها . والمراد بالحجة جنسها لا فرد من أفرادها

أى : وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق وتزييف الباطل أعطيناها إبراهيم ليكون مستعلياً بها على قومه ، قاطعاً لألسنتهم عن المجادلة والمخاصمة .

وجملة «آتيناها» فى محل نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة .

وقوله «على قومه» متعلق «بحجتنا» إن جعل خبرا لتلك ، وبمحذوف إن جعل بدله . أى : آتيناه حجة ودليلا على قومه الكثيرين لتكون الغلبة عليهم .

وقوله « نرفع درجات من نشاء » أى نرفع من نشاء من عبادنا درجات عالية من العلم والحكمة .

والدرجات فى الأصل تطلق على مراقى السلم . والمراد بها هنا المراتب المعنوية فى الخير على سبيل التمثيل ، فقد شبهت حالة المفضل على غيره بحال

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٨٢

المرتقى فى سلم إذا ارتفع من درجة إلى درجة .

والجملة مستأنفة على سبيل التقرير لما قبلها ، وقيل هى حال من فاعل « آتينا » أى حال كوننا رافعين .

ومفعول المشيئة محذوف . أى : من نشاء رفعه على حسب ما تقتضيه حكمتنا . وقد دل قوله « من نشاء » على أن هذا التكريم لا يكون لكل أحد لأنه لو كان حاصلا لكل الناس لم يحصل الرفع ولا التفضيل .

وقوله - تعالى - « إن ربك حكيم عليم » تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى إن ربك الذى خلقك فسواك فعدلك « حكيم » فى كل ما يفعل من رفع هذا وخفض ذاك ، « عليم » كل العلم بحال خلقه وسياسة عباده .

قال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن كمال السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمانية ، والدليل على ذلك أن الله - تعالى - قال « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » ثم قال بعده « نرفع درجات من نشاء » وذلك يدل على أن الموجب لحصول هذه الرفعة هو إيتاء تلك الحجة وهذا يقتضى أن وقوف النفس على حقيقة تلك الحجة وإطلاعها على إشراقها اقتضى ارتفاع الروح من حضيض العالم الجسمانى إلى أعالى العالم الروحانى ، وذلك يدل على أنه لا رفعه ولا سعادة إلا فى الروحانيات(١) » .

وقوله : « ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا » أى : ووهبنا لإبراهيم فضلا منا وكرما وعوضاً عن قومه لما اعتزلهم ؛ إسحاق وهو ولده من زوجه سارة ، ويعقوب وهو ابن إسحاق لتقر عينه ببقاء عقبه إذ فى رؤية أبناء الأبناء سرور النفس ، وراحة للفؤاد .

وقوله « كلا هدينا » أى : كلا من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية الكبرى بلحوقهما بدرجة أبيهما فى النبوة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٨٣ .

ولفظ «كلا» مفعول لما بعده وقدم لإفادة اختصاص كل منهما بالهداية على سبيل الاستقلال والتنويه بشأنهما.

وقوله: «ونوحاً هدينا من قبل» أي: وهدينا نوحاً من قبل إبراهيم إلى مثل ما هدينا إليه إبراهيم وذريته من النبوة والحكمة.

وهذا لون آخر من تشريف إبراهيم حيث أنه من نسل نوح الذى وصفه الله بالهداية، ولا شك أن شرف الآباء يسرى على الأبناء.

وقال ابن كثير: «وكل منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبيا إلا من ذريته كما قال ـ تعالى ـ «ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب»(١).

ثم قال ـ تعالى ـ «ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين».

الضمير فى قوله ـ تعالى ـ «ومن ذريته» يرى ابن جرير وغيره أنه يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور.

ويرى جمهور المفسرين أنه يعود على إبراهيم لأن الكلام فى شأنه وفى شأن النعم التى منحها الله إياه.

وقد ذكر الله فى هذه الآيات أربعة عشر نبيا وهم:

١ ـ داود بن يسى من سبط يهوذا من بنى إسرائيل وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق م تقريبا وهو الذى قتل جالوت كما جاء فى القرآن الكريم «وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء» وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ ق م تقريبا.

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٠٤.

٢ – سليمان بن داود – عليهما السلام – ولد بأورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق م وتوفى سنة ٩٧٥ ق م وقد جاء ذكر داود وسليمان فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

٣ – أيوب قال ابن جرير : هو ابن موصى بن روم بن عيص بن إسحاق ، وروى الطبرانى أن مدة عمره كانت ثلاثا وتسعين سنة .

٤ – يوسف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته قبل ميلاد عيسى – عليه السلام – بألفى سنة تقريبا .

٥ – موسى وهو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب وكانت ولادته حوالى القرن الرابع عشر ق م .

٦ – هارون وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه ، وقيل مات قبيل موسى بزمن يسير .

٧ – زكريا وهو ابن أذن بن بركيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - وكان قريب العهد بعيسى حيث تولى كفالة أمه مريم كما جاء فى القرآن الكريم « وكفلها زكريا » .

٨ – يحيى وهو ابن زكريا .

٩ – عيسى وهو ابن مريم . قال ابن كثير . وفى ذكر عيسى فى ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم .

١٠ – الياس وهو بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى وهو المعروف فى كتب الإسرائيليين باسم « إيليا » وقد أرسله الله إلى بنى إسرائيل حين عبدوا الأوثان قال – تعالى – « وإن الياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ... » .

ويقال إنه كان موجوداً فى زمن الملك «آخاب» ملك بنى إسرائيل فى حوالى سنة ٩١٨ ق م.

١١ — إسماعيل وهو الإبن الأكبر لإبراهيم — عليهما السلام.

١٢ — اليسع وهو ابن شافاط وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ ق م ودفن بالسامرة.

١٣ — يونس وهو ابن متى أرسله الله إلى أهل نينوى من بلاد آشور فى حوالى القرن الثامن ق م.

١٤ — لوط وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم وكانت رسالته إلى أهل سدوم من شرق الأردن.

وقوله «وكلا فضلنا على العالمين» أى: وكل واحد من هؤلاء الأنبياء المذكورين لا بعضهم دون بعض فضلناه بالنبوة على العالمين من أهل عصره.

قال الجمل: اعلم أن الله — تعالى — ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الواو لا تقتضى الترتيب، ولكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب وهى أن الله — تعالى — خص كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولا نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعاً. ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظاً وافراً. ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب. ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر، ومن المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط. فإذا اعتبرنا

هذه اللطيفة كان هذا الترتيب حسناً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه(١)» .

ومن المعروف أن الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم على التفصيل خمسة وعشرون نبياً . وهم هؤلاء الثماني عشرة الذين ذكروا في هذه الآيات ، يضاف إليهم سبعة نظمهم الناظم في قوله :

حتم على كل ذى التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانيــة ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس، هود، شعيب، صالح، وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ثم ذكر - سبحانه - فضائل من يتصل بهؤلاء الأنبياء الكرام فقال :

«ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم» أى : ومن آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن هنا للتبعيض .

والجملة معطوفة على «كلا» أى : كلا من هؤلاء الأنبياء فضلنا، وفضلنا بعض آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وهديناه .

وجملة «واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم» معطوفة على «فضلنا» أى : فضلنا هؤلاء الأنبياء واخترناهم وهديناهم إلى الطريق الواضح . قال الراغب : «والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال-تعالى- فاجتباه ربه، واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض الهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء ...»(٢) .

وقوله : «ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده» أى: ذلك الهدى إلى صراط مستقيم الذى اهتدى إليه أولئك الأخيار هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك.

وفى قوله «من يشاء من عباده» من الإبهام ما يبعث النفوس على تطلب هدى الله — تعالى — والتعرض لنفحاته .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩ .
(٢) مفردات القرآن جـ ٨٧ الراغب الأصفهانى .

وقوله « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » أى ، ولو فرض لن أشرك بالله أولئك المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة فكيف بغيرهم .

قال ابن كثير : فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته ، كقوله ـ تعالى ـ « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، فهو كقوله ، « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » وكقوله: « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين »(١) .

وقوله « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » اسم الإشارة فيه يعود إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشرة والمعطوفين عليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة .

وقصر بعضهم عودته على الأنبياء فحسب وإليه ذهب ابن جرير والرازى، أى : أولئك المصطفون الأخيار هم الذين آتيناهم الكتاب أى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية .

والمراد بإيتائه : التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام، وذلك أعم من أن يكون بالإنزال إبتداء أو بالإيراث بقاء، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين .

والحكم أى : الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام . أو الإصابة فى القول والعمل . أو القضاء بين الناس بالحق .

و « النبوة » أى : الرسالة .

وقوله « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين» أى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٥٥ .

فإن يكفر بهذه الثلاث التى اجتمعت فيك يامحمد هؤلاء المشركون من أهل مكة ، فلن يضرك كفرهم لأنا قد وفقنا للإيمان بها قوما كراما ليسوا بها بكافرين فى وقت من الأوقات وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن إعراض بعض قومه عن دعوته .

والمراد بالقوم الذين وكلوا بالقيام بحق هذه الرسالة ووفقوا للإيمان بها أصحاب النبى — ﷺ — من المهاجرين والأنصار مطلقاً ، لأنهم هم الذين دافعوا عن دعوة الإسلام وبذلوا فى سبيل إعلائها نفوسهم وأموالهم ويدخل معهم كل من سار على نهجهم فى كل زمان ومكان .

وقيل المراد بهم أهل المدينة من الأنصار . وقيل المراد بهم الأنبياء المذكورون وأتباعهم ، وقيل غير ذلك .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح لأن أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — هم المقابلون لكفار قريش الذين كفروا بها .

وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشىء ومراعاته ، إيذان بفخامة وعلو قدرها .

قال الإمام الرازى : « دلت هذه الآية على أن الله — تعالى — سينصر نبيه ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعليا على كل من عاداه ، قاهرا لكل من نازعه ، وقد وقع هذا الذى أخبر الله عنه فى هذا الموضع، فكان جاريا مجرى الاخبار عن الغيب فيكون معجزاً »(١) .

ثم قال — تعالى — « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » أى : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك — يامحمد — هم الذين هديناهم إلى الحق وإلى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٨٦ .

الطريق المستقيم فبهداهم ، أى : فبطريقتهم فى الإيمان بالله وفى تمسكهم بمكارم الإخلاق كن مقتديا ومتأسيا .

والمقصود إنما هو التأسى بهم فى أصول الدين ، أما الفروع القابلة للنسخ فإنهم يختلفون فيها ويجوز عدم الاقتداء بهم بالنسبة لها قال - تعالى - « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا .

وتكرير اسم الإشارة لتأكيد تمييز المشار اليه ، ولما يقتضيه التكرير من الاهتمام بالخبر . وفى قوله «فبهداهم اقتده» تعريض بالمشركين إذ أن النبي - صلى الله علية وسلم - ماجاء إلا على سنة الرسل كلهم وأنه ما كان بدعا منهم ، أماهم فقد اختلقوا لأنفسهم عبادات ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ختم الله - تعالى - هذا السياق بقوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا » أى : قل أيها الرسول الكريم لمن بعثت اليهم لا أطلب منكم على ما أدعوكم اليه من خير وما أبلغكم إياه من قرآن أجرا قليلا أو كثيرا .

«إن هو إلا ذكرى للعالمين» أى : ماهذا القرآن إلا تذكيرا وموعظة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان .

قال بعضهم : وفى الآية دليل على أنه — صلى الله عليه وسلم — كان مبعوثاً إلى الجن والإنس وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

وبعد أن بين - سبحانه - مادار بين إبراهيم وقومه من مجالات تتعلق بإثبات وحدانية الله ، وإبطال الشرك ، وحكى جانبا من النعم التى أنعم بها على خليله وعلى كل من سار على نهجه ، وأخبر بأن هذا القرآن ماهو إلا تذكير للعالمين وأن المذكر به - لايريد منهم أجرا على تبليغه ... بعد كل ذلك أخذ القرآن فى الرد على منكرى نزول الكتب السماوية وفى بيان عاقبتهم الوخيمة بسبب هذا الجحود فقال — تعالى — :

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ
بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ
كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ
فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ
سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم
مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) كلمة (قدروا) مأخوذة من القدر — بفتح فسكون — ، وأصل القدر معرفة مقدار الشىء بالسبر والحزر . يقال : قدر الشىء يقدره إذا سبره وحزره ليعرف مقداره ، ثم استعمل فى معرفة الشىء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه .

والمعنى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم ، بل أخلوا بحقوقه إخلالا عظيما ، وضلوا ضلالا كبيرا ، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ما أنزل الله على بشر شيئاً من الأشياء ، قاصدين بهذا القول الطعن فى نبوة النبى — صلى الله عليه وسلم — وفى أن القرآن من عند الله .

ولفظ (حق) منصوب على المصدرية ، وهو فى الأصل صفة للمصدر ، أى : قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه.

ثم أمر الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يلزمهم بما يخرس ألسنتهم ، وأن يرد على سلبهم العام بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم فقال -تعالى- : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس) أى : قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئاً من الأشياء : قل لهم من الذى أنزل التوراة وهو الكتاب الذى جاء به موسى (نوراً وهدى للناس) أى : ضياء من ظلمة الجهالة وهداية تعصم من الأباطيل والضلالة .

وكلمة (نوراً) حال من الضمير فى به أو من الكتاب .

ثم بين — سبحانه — ما فعله الجاحدون بكتبه من تحريف وتغيير فقال : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) .

القراطيس : جمع قرطاس وهو مايكتب فيه من ورق ونحوه .

أى : تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورا وهداية للناس أوراقا مكتوبة مفرقة لتتمكنوا من إظهار ما تريدون إظهاره منها ، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم نفوسكم السقيمة وشهواتكم الأثيمة.

فالمراد من هذه الجملة الكريمة ذم المحرفين لكتب الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع ، الذى قصدوا من ورائه الطعن فى نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - والتوصل إلى ما يبغونه من مطامع وأهواء .

وقوله (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أى : وعلمتم على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من المعارف التى لا يرتاب عاقل فى أنها تنزيل ربانى .

وقوله (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين : الله - تعالى - هو الذى أنزل الكتاب على موسى ، ثم بعد هذا القول الفصل ذرهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يلعبون ، وفى غيهم يعمهون حتى تأتيهم من الله اليقين .

وفى أمره - صلى الله عليه وسلم - بأن يجيب عنهم ، إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيه على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

وكان العطف بثم فى قوله (ثم ذرهم ..) للدلالة على الترتيب الرتبى أى: أنهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى ، وإنما كان الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم .

هذا ، وللمفسرين لهذة الآية قولان .

الأول : أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن الذين قالوا (ماأنزل الله على بشر من شىء) مشركو مكة ، وإنما ألزمهم الله بإنزال التوراة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزلها على موسى .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال : عنى بذلك (وماقدروا الله حق قدره) مشركو قريش . وذلك أن ذلك فى سياق الخبر عنهم . فأن يكون ذلك أيضاً خبرا عنهم أشبه من أن يكون

خبرا عن اليهود ولما يجر لهم ذكر . . وليس ذلك مما تدين به اليهود ، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى . .) (١) .

وقد تابع ابن كثير رأى ابن جرير وقال : وهذا الرأى هو الأصح ، لأن اليهود لاينكرون إنزال الكتب من السماء وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبى — صلى الله عليه وسلم — لأنه من البشر كما قال — تعالى — (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وكذا قالوا هنا (ما أنزل الله على بشر من شىء) (٢) .

الثانى : أن هذه الآية مدنية النزول ، وكون سورة الأنعام مكية لايمنع من وجود بعض آيات منها مدنية كما نص عليه كثير من العلماء .

ومما يؤيد كون هذه الآية مدنية ماورد من آثار فى أسباب نزولها ، ومن هذه الآثار ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتابا) فنزل قوله - تعالى - وماقدروا الله حق قدره .. الخ) وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير - مرسلا - قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له النبى : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين - وكان حبرا سمينا - فغضب وقال : هل أنزل الله على بشر من شىء) فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدرة . .) الآية (٣) .

والذى نراه أن الآية الكريمة تصلح للرد على الفريقين فريق المشركين وفريق اليهود إلا أن سياقها يجعلنا نرجح أن الخطاب فيها موجه بالأصالة إلى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٧٨

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٥٦

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى هامش الجلالين صـ ٢٢٢

اليهود وإلى غيرهم بالتبع ، لأنهم هم الذين جعلوا التوراة قراطيس أى أوراقا مفرقة ليظهروا منها ما يناسب أهواءهم وليخفوا منها مافيه شهادة بصدق النبى — ﷺ — ولأن هناك آثارا متعددة تثبت أنها نزلت فى شأنهم .

وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كونها مكية ، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطابا لغير اليهود .

وبعد أن أبطل - سبحانه - بالدليل قول من قال « ما أنزل الله على بشر من شيء » أتبعه ببيان أن هذا القرآن من عند الله وأنه مصدق للكتب السماوية السابقة ومهيمن عليها فقال — تعالى — .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه . . .

والمعنى : وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من صفاته أنه مبارك أى : كثير الفوائد لاشتماله على منافع الدين والدنيا .

والمبارك اسم مفعول من باركه وبارك فيه ، إذا جعل له البركة ، ومعناها كثرة الخير ونماؤه .

وقدم هنا وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله «وهذا ذكر مبارك أنزلناه» لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال ، إذ جاء عقيب إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شيء بخلافه هناك .

ووقعت الصفة الأولى جملة فعلية لأن الإنزال يتجدد وقتا فوقتا، والثانية اسمية لأن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار وهو مقصود هنا أى : أن بركته ثابتة مستقرة .

قال الإمام الرازى : العلوم إما نظرية وإما عملية ، أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى فى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده فى هذا الكتاب ، وأما العلوم العملية فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلب ، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب .

ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فيه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة »(١) .

وقوله « مصدق الذى بين يديه » أى أن هذا القرآن موافق ومؤيد للكتب التى قبله فى إثبات التوحيد ونفى الشرك ، وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ .

وقوله : « ولتنذر أم القرى ومن حولها » أى : ولتنذر بهذا الكتاب أم القرى أى مكة ومن حولها من أطراف الأرض شرقا وغربا لعموم بعثته ـ ﷺ ـ قال ـ تعالى ـ « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » وقال ـ تعالى ـ « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، وسميت مكة بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها كما يتبع الفرع الأصل ، وفى ذكرها بهذا الاسم المنبىء عما ذكر إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة :

ووجه الاقتصار على مكة ومن حولها فى هذه الآية أنهم الذين جرى الكلام والجدال معهم فى قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك « وكذب به قومك وهو الحق » .

قال الآلوسى : ويمكن أن يقال خصهم بالذكر لأنهم الأحق بإنذاره ـ ﷺ فهو كقوله ـ تعالى ـ : وأنذر عشيرتك الأقربين ، ولذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه »(٢) .

وقال صاحب المنار « وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب فخصه بمن قرب منها عرفا ، واستدلوا به على أن بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة بقومه العرب . والاستدلال باطل وإن سلم

(١) تفسير الرازى ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٢١٢ .

التخصيص المذكور ، فإن إرساله إلى قومه ينافي إرساله إلى غيرهم، وقد ثبت عموم بعثته - صلى الله عليه وسلم - من آيات أخرى كقوله - تعالى - « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »(١) .

وقوله « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » .

أي : والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذي أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة، وحرص على العمل الصالح الذي ينفعه .

ثم ختمت الآية بهذا الثناء الجميل عليهم فقالت « وهم على صلاتهم يحافظون » أي يؤدونها في أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها في خشوع واطمئنان، وخصت الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطراً بعد الإيمان .

قال الإمام الرازي : « ويكفيها شرفا أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا عليها كما في قوله - تعالى - « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم ، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة ، ففي الحديث الشريف « من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر » فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام »(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - مزايا هذا القرآن أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين يفترون الكذب على الله - تعالى - ، وصور أحوالهم عند النزع الأخير وعندما يقفون أمام ربهم للحساب بصورة ترتجف لها الأفئدة فقال - تعالى - :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء . . .

---

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٦٢٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ٤ ص ٩٣ .

والمعنى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق الكذب على الله فجعل له شركاء من خلقه، وأنكر ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من هدايات، وحلل وحرم بهواه ما لم يأذن به الله.

والاستفهام إنكاري فهو في معنى النفي. و «من» اسم موصول والمراد به الجنس. أي: كل من افترى على الله كذبا وليس المراد فردا معينا.

«أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء» أي: قال بأن الله أوحى إلى بالرسالة أو النبوة مع أنه كاذب في دعواه، فإن الله ما أوحى إليه شيئا، وهذا يصدق على ما ادعاه مسيلمة الكذاب والأسود العنسي من أنهما نبيان يوحى إليهما. ويصدق - أيضاً - على كل مدع للوحي والنبوة في كل زمان ومكان.

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على صلة «من» من عطف الخاص على العام، لأن هذا القول هو نوع من أنواع افتراء الكذب.

«ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله» أي: ولا أحد أظلم - أيضاً - ممن قال بأني قادر على أن أنزل قرآنا مثل الذي أنزله الله كالذين حكى القرآن عنهم قوله: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين».

وبذلك ترى أن الآية الكريمة قد توعدت بأشد ألوان الوعيد كل مفتر على الله الكذب، وكل مدع أنه يوحى إليه شيء وكل من زعم أنه في قدرته أن يأتي بقرآن مثل هذا القرآن كما حدث من النضر بن الحارث وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

ثم بين - سبحانه - مصير كل ظالم أثيم فقال: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت» أي: ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة أولئك الظالمين وهم في غمرات الموت أي: في شدائده وكرباته وسكراته لرأيت شيئا عظيما هائلا ترتعد منه الأبدان، فجواب الشرط محذوف.

والغمرات : جمع غمرة وهى الشدة . وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ، يقال غمره الماء إذا علاه وستره ثم استعمل فى الشدائد والمكاره .

وتقييد الرؤية بهذا الوقت لإفادة أنه ليس المراد مجرد الرؤية ، بل المراد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر .

وقوله « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » أى والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإماتة والعذاب قائلين لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم .

والأمر هنا للتعجيز أى : أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم إلى ذلك سبيلا .

قال الآلوسى : وذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لفعل الملائكة فى قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ولا أبرح مكانى حتى انتزعه منك . وفى الكشاف : انه كناية عن العنف فى السياق والإلحاح والتشديد فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك . واستظهر ابن المنير أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية وإذا أمكن البقاء على الحقيقه فلا معدل عنها(١) » .

ولعل مما يؤيد قول ابن المنير فى تعليقه على ما قال صاحب الكشاف ما جاء فى آية أخرى وهى قوله ـ تعالى ـ « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم »(٢) .

وقوله : « اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق »

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ٢٢٤ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٥٠ .

وكنتم عن آياته تستكبرون ، هذا القول من تتمة ما تقوله الملائكة لأولئك الظالمين .

أى : تقول لهم أخرجوا أنفسكم اليوم تلقون عذاب الذل والهوان لا بظلم من الرحمن ، وإنما بسبب أنكم كنتم فى دنياكم تفترون على الله الكذب ، وبسبب أنكم كنتم معرضين عن آياته ، مستكبرين عنها ولا تتأملون فيها ، ولا تعتبرون بها .

والمراد باليوم مطلق الزمان لا اليوم المتعارف عليه ، وهو إما حين الموت أو مايشمله وما بعده .

والهون معناه : الهوان والذل وفسره صاحب الكشاف ، بالهوان الشديد وقال : « وإضافة العذاب إليه كقولك ، رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه » (١) .

ثم صور — سبحانه — حالهم عند ما يعرضون للحساب فقال : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » .

أى : ولقد جئتمونا للحساب والجزاء متعزلين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل ماجمعتموه فى الدنيا من متاع ، أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم عند الله .

وفرادى قيل هو جمع فرد ، وفريد وقيل : هو اسم جمع لأن فرداً يجمع على فرادى وقول من قال أنه جمع : أراد أنه جمع له فى المعنى .

وهذه الجملة الكريمة مستأنفة جاءت لبيان ماستقوله الله لهؤلاء الظالمين يوم القيامة ، بعد بيان ما تقوله ملائكة العذاب عند موتهم .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٧

وقوله : «كما خلقناكم أول مرة» تشبيه للمجيء أريد منه معنى الاحياء بعد الموت الذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأى العين .

أى : جئتمونا منعزلين عن كل ما كنتم تعتزون به فى الحياة الدنيا ، مجيئا مثل مجيئكم يوم خلقناكم أول مرة حفاة عراة . فالكاف فى محل نصب صفة لمصدر محذوف .

روى الشيخان عن ابن عباس قال : قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموعظة فقال : «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا . كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» (١) .

ورويا — أيضاً — عن عائشة قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «تحشرون حفاه عراة غرلا . قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك (٢) .

وروى الطبرى بسنده عن عائشة أنها قالت قرأت قول الله — تعالى — «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة» فقالت : يا رسول الله واسوأتاه !! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض .

قوله : «وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم» أى : تركتم ما أعطيناكم وملكناكم فى الدنيا من أموال وأولاد وغيرهما وراء ظهوركم ولم تحملوا منه معكم نقيرا عند ما جئتمونا للحساب .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب قوله — تعالى — «واتخذوا الله إبراهيم خليلا» وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق . باب كيف الحشر .

الخول : ما أعطاه الله لعباده من النعم : يقال : خوله الشيء تخويلا ، ملكه إياه ومسكنه منه . ومنه التخول بمعنى التعهد .

والجملة الكريمة تتضمن توبيخهم ، لأنهم لم يقدموا منه شيئاً في دنياهم ليكون نافعاً لهم في أخراهم ، بل جمعوه وتركوه لغيرهم دون أن ينتفعوا به في معادهم .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» (١)

وقوله : «وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء» تقريع وتوبيخ لهم على شركهم .

أي : ما نرى وما نبصر معكم من زعمتم أنهم سيشفعون لكم عند الله من الأصنام والأوثان التي توهمتم أنهم شركاء لله تعالى في ربوبيتكم واستحقاقه عبادتكم.

وقوله «لقد تقطع بينكم» أي : لقد تقطع الاتصال الذي كان بينكم في الدنيا واضمحل . ففاعل «تقطع» ضمير يعود على الاتصال المدلول عليه بلفظ «شركاء» و «بينكم» منصوب على الظرفية .

وقرىء بالرفع أي : لقد تقطع شملكم فإن البين مصدر يستعمل في الوصل وفي الفراق بالاشتراك ؛ والأصل لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به أي : تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات .

«وضل عنكم ما كنتم تزعمون» أي : وغاب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء ، ورجاء الأنداد والأصنام . كما قال - تعالى - «إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ؛ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار» (٢) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ .

وهكذا يسوق القرآن مشهد هؤلاء الظالمين بتلك الصورة التى تهز النفوس، وتحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .

وبعد أن ساق — سبحانه — ألواناً من الدلائل على وحدانيته ، وعلى صدق نبيه (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغه عن ربه ، شرع — سبحانه — فى سرد مظاهر قدرته ، وكمال علمه وحكمته عن طريق التأمل فى هذا الكون العجيب ، وفى بدائع مخلوقاته فقال — تعالى — :

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

قوله : « إن الله فالق الحب والنـــوى » .

فالق : أى شاق ، والفلق هو الشق وقيل ، فالق بمعنى خالق وأنكر ابن جرير الطبرى ذلك وقال: لا يعرف فى كلام العرب فلق الشىء بمعنى خلق .

والحب . ما ليس له نوى كالحنطة والشعير .

والنوى : جمع نواة وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر وغيره .

والمعنى : إن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى ، ويشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية ، وفى ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحد وعلى أنه هو المستحق للعبادة لا غيره .

هذا ، وقد أفاض الإمام الرازى وهو يتحدث عن هذه الآية فى بيان بيان قدرة الله فقال ما ملخصه :

« إذا عرفت هذا فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله - تعالى - فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء ، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ثم إن هاهنا عجائب .

فإحداها - أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضى الهوى فى عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلما تولدت منها الشجرتان مع أن الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى - علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين . وثانيها أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ

المسلة القوية فيـــه ولا يغوص السكين الحاد القوى فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة وبحيث لو دلكها الإنسان بإصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة ، والغوص فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة لابد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

ثم قال — رحمه الله — بعد كلام طويل : فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية كما قال : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة . . . » (١) .

وقوله « يخرج الحى من الميت » أى : يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة .

والجملة الكريمة مستأنفة مبينة لما قبلها ولذلك ترك العطف ، وقيل خبر ثان ولم يعطف لاستقلاله فى الدلالة على عظمة الله — تعالى — .

وقوله : « ومخرج الميت من الحى » أى : مخرج الميت كالحب والنوى من النبات والبيضة والنطفة من الحيوان .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٣ ص ٩٧ .

قال صاحب المنار : فإن قيل إن علماء المواليد يزعمون أن فى كل أصول الأحياء حياة فكل ماينبت من ذلك ذو حياة كامنة إذا عقم بالصناعة لا ينبت قلنا : إن هذا اصطلاح لهم يسمون القوة أو الخاصية التى يكون بها الحب قابلا للإنبات حياة ، ولكن هذا لا يصح فى اللغة إلا بضرب من التجوز وإنما حقيقة الحياة فى اللغة ما يكون به الجسم متغذياً نامياً بالفعل ، وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب ، ولها مراتب أخرى كالإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وهذا أعلى مراتب الحياة فى المخلوق» (١).

ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس أن معنى الجملتين : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ومثله إخراج البار من الفاجر والصالح من الطالح والعالم من الجاهل وعكسه وذلك بحمله الحياة والموت على المعنوى منها كما فى قوله ـ تعالى ـ «أو من كان ميتاً فأحييناه» .

ويبدو لنا أن حمل الحياة والموت هنا على المعنى المعنوى لا يناسبه سياق الآيات التى معنا ، لأنها تتحدث عن آثار قدرة الله المحسوسة ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويتأمل كل ذى عقل فى مظاهر قدرة الله فى كونه يهتدى إلى طريق الحق والصواب .

وقوله «ومخرج الميت من الحى» معطوف على ماقبله وهو قوله «يخرج الحى من الميت» لأنه إخبار بضد مضمونه وهو وضع آخر عجيب دال على كمال القدرة.

وجىء بجملة «يخرج الحى من الميت» فعلية لإرادة تصوير إخراج الحى من الميت واستحضاره فى ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى .

ويرى صاحب الكشاف أن قوله : «ومخرج الميت من الحى» معطوف على «فالق» لا على «يخرج» ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى .

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٦٣١ .

قال - رحمه الله : فإن قلت : كيف قال « ومخرج الميت من الحى » بلفظ اسم الفاعل بعد قوله : « يخرج الحى من الميت » ؟ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل ، ويخرج الحى من الميت: موقعه موقع الجملة المبينة لقوله « فالق الحب والنوى » لأن فالق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحى من الميت ، لأن النامى فى حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله - تعالى - « ويحي الأرض بعد موتها »(١) .

« ذلكم الله فأنى تؤفكون » الأفك — بفتح الهمزة — مصدر أفكه يأفكه من باب ضرب إذا صرفه عن مكان أو عن عمل ، ويقال أفكت الأرض أفكا : أى صرف عنها المطر .

والإشارة بذلكم لزيادة التمييز وللتعريض بغباوة المخاطبين والمشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنه هو المستحق للعبادة .

والاستفهام فى قوله « فأنى » للتعجيب والإنكار . وبنى فعل تؤفكون للمجهول لعدم تعين صارفهم عن توحيد الله فهو مجموع أشياء : وسوسة الشيطان ، وتضليل قادتهم وكبرائهم لهم ، وهوى أنفسهم .

والمعنى : ذلكم المتصف بما ذكر من مقتضى الحكمة البالغة والقدرة النافذة هو الله خالق كل شىء فكيف تصرفون عن عبادة من يخلق إلى عبادة من لا يخلق وتشركون معه من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ؟

قال الإمام الرازى : والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لابد أن يكون بتقدير المقدر الحكيم والمدبر العليم »(٢) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ص ٤٨ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨ .

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من مظاهر قدرته وحكمته فقال: «فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسبانا » .

الإصباح : مصدر سمى به الصبح ، أى : شاق ظلمة الصبح - وهى الغبش فى آخر الليل الذى يلى الفجر المستطيل الكاذب - عن بياض النهار فيضىء الوجود ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده ، ويجىء النهار بضيائه،

وجملة فالق الإصباح ، خبر لمبتدأ محذوف أى : هو فالق ، أو خبر آخر لأن « وجعل الليل سكنا » أى وجعل الليل محلا لسكون الخلق فيه ، وراحة لهم بعد معاشهم بالنهار وسعيهم للحصول على رزقهم .

قال صاحب الكشاف: السكن : ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحا إليه ، من زوج أو حبيب . ومنه قيل للنار سكن لأنه يستأنس بها ، ألا تراهم سموها المؤنسة ، والليل يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه ويجوز أن يراد وجعل الليل مسكونا فيه من قوله : لتسكنوا فيه(١) .

« والشمس والقمر حسبانا » الحسبان فى الأصل مصدر حسب - بفتح السين- كالغفران والشكران تقول حسبت المال حسبانا : أى أحصيته عددا . والمعنى : وجعل الشمس والقمر يجريان فى الفلك بحساب مقدر معلوم لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهى إلى أقصى منازلهما بحيث تتم الشمس دورتها فى سنة ويتم القمر دورته فى شهر ، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها ، قال - تعالى - « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »(٢) .

وقوله « ذلك تقدير العزيز العليم » أى : ذلك الجعل والتسيير البديع الشأن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٩ .

(٢) سورة يونس الآية ٥ .

تقدير العزيز ، أي : الغالب القاهر الذى لا يتعاصاه شىء من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص ، العليم بكل شىء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ماملخصه .

« إعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته فالنوع المتقدم - أى قوله « إن الله فالق . . . إلخ - كان مأخوذا من دلالة أحوال النبات والحيوان ، والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية ، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية . . . » .

وبعد أن ساق - رحمه الله - الأدلة على ذلك قال : والعزيز إشارة إلى كمال قدرته ، والعلم إشارة إلى كمال علمه ، ومعناه : أن تقدير الأفلاك بصفاتها المخصوصة ، وهيآتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة ، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار والله أعلم »(١) .

ثم ساق — سبحانه — نوعا ثالثا من الدلائل على كمال قدرته ورحمته وحكمته فقال - تعالى - « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » أى : وهو - سبحانه - وحده الذى أنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتهتدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لا ترون شمسا ولا قمرا .

---

(١) تفسير الفخر الراوى ج ٤ ص ٩٩ .

وجملة «لتهتدوا بها» بدل اشتمال من ضمير «لكم» بإعادة العامل، فكأنه قيل: جعل النجوم لاهتدائكم.

«قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» أى: قد وضحنا وبينا الآيات الدالة على قدرته - تعالى - ورحمته بعباده، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها فيعملون بموجب علمهم، ويزدادون إيمانا على إيمانهم.

فالجملة الكريمة مستأنفة للتسجيل والتبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا.

والتعريف فى الآيات للاستغراق فيشمل آية خلق النجوم وغيرها.

ثم ساق - سبحانه - لونا رابعا من دلائل كمال قدرته ورحمته. فقال - تعالى -: «وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع».

أى: وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم - عليه السلام - قال - تعالى - «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء».

وفى هذه الجملة الكريمة تذكير بنعمة أخرى من نعم الله على خلقه، لأن رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتراحم والتعاطف، وفيها - أيضاً - دليل على عظيم قدرته - عز وجل -.

والفاء فى قوله - تعالى - «فمستقر ومستودع» للتفريع عن أنشأكم.

أى: أنشأكم من نفس واحدة فلكم موضع الاستقرار فى الأرحام أو فوق الأرض وموضع استيداع فى الأصلاب أو فى القبور.

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس، وقد زكاه الإمام الرازى فقال: «ومما يدل على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى فى صلب الأب زمانا طويلا فالمستقر أقرب إلى الثبات من المستودع»(١).

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٠٤.

وقيل المستقر حالة الإنسان بعد الموت لأنه إن كان سعيدا فقد استقرت بلك السعادة ، وكذلك إن كان شقيا ، والمستودع حاله قبل الموت لأن الكافر قد ينقلب مؤمنا .

وقيل : المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها ، والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق .

والذى نراه أن الرأى الأول هو الصحيح لأنه رأى جمهور المفسرين ، ولأن شواهد القرآن تؤيده كما فى قوله - تعالى - « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، وكما فى قوله - تعالى - « ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى » .

وقرىء « فمستقر » - بكسر القاف - أى : فمنكم مستقر فى الأرحام ومنكم مستودع .

وقوله « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » أى : قد فصلنا الآيات الدالة على قدرتنا ووضحناها لقوم يفقهون مايتلى عليهم ويتدبرونه فينتفعون بذلك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل « يعلمون » مع ذكر النجوم و « يفقهون » مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا . فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنته وتدقيق نظره مطابقا له(١) .

وقد علق صاحب الانتصاف على كلام الزمخشرى بما ملخصه : « جواب الزمخشرى صناعى ، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١ .

فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم واتساقا فى البلاغة ، ويحتمل وجهاً آخر فى تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآية الأولى خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها ، فإذا تمهد ذلك فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله أبشع من جهله فالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا وهم الذين لا يتبصرون فى أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا .. وإذا قيل : «فلان لا يفقه شيئاً» كان أذم فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً «وكأن معنى قولك لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم ، وأما قولك «لا يعلم شيئاً» فغايته نفى حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم . . .» (١) .

ثم ساق — سبحانه — حجة خامسة تدل دلالة واضحة على كمال قدرته وعلمه ورحمته وإحسانه إلى خلقه فقال — تعالى — :

«وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء» .

أى : وهو — سبحانه — الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب ذلك كل صنف من أصناف النبات والثمار المختلفة فى الكم والكيف والطعوم والألوان ، قال - تعالى - «وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

(١) حاشية الانتصاف على تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥ لابن المنير .

وسمى السحاب سماء لأن العرب تسمى كل ما علا سماء ، ونزول الماء من السحاب قد جاء صريحاً فى مثل قوله - تعالى - « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » .

و«من» فى قوله «من السماء» ابتدائية ، لأن ماء المطر يتكون فى طبقات الجو العليا الباردة عند تصاعد البخار الأرضى إليها فيصير البخار كثيفا وهو السحاب ثم يتحول إلى ماء ، والباء فى « به » للسببية . حيث جعل الله - تعالى - الماء سبباً فى خروج النبات ، والفاء فى قوله «فأخرجنا به» للتفريع و « أخرجنا » عطف على «أنزل» والالتفات إلى التكلم إظهار لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله .

ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل ما أجمل من الإخراج فقال : «فأخرجنا منه خضراً» أي : فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له نباتا غضا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، وخضر بمعنى أخضر اسم فاعل . يقال : خضر الزرع — من باب فرح — وأخضر ، فهو خضر وأخضر .

وقوله « نخرج منه حباً متراكباً » .

أى : نخرج من هذا النبات الخضر «حباً متراكباً» أى : متراكبا بعضه فوق بعض كما فى الحنطة والشعير وسائر الحبوب ، يقال : ركبه - كسمعه - ركوباً ومراكباً . أى : علاه .

وجملة « نخرج منه » صفة لقوله « خضراً » . وعبر عنها بصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة لأن إخراج الحب المتراكب من هذا الخضر الغض يدعو إلى التأمل والإعجاب بمظاهر قدرة الله .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى فقال : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » .

الطلع : أول ما يبدو ويخرج من تمر النخل كالكيزان . وقشره يسمى الكفرى ؛ وما فى داخله يسمى الإغريق لبياضه .

والقنوان . جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ ، وهو ومثناه سواء لا يفرق بينهما إلا فى الإعراب .

أى : ونخرج بقدرتنا من طلع النخل قنوان دانية القطوف ، سهلة التناول أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها .

قال صاحب الكشاف : و « قنوان » رفع بالابتداء ، و « من النخل » خبره و « من طلعها » بدل منه . كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان دانية . وذكر القريبة وترك ذكر البعيدة ، لأن النعمة فيها أظهر وأدل واكتفى بذكر القريبة على ذكر البعيدة كقوله : « سرابيل تقيكم الحر »(١) .

وقوله : (وجنات من أعناب) معطوف على (نبات كل شىء) أى : فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شىء وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب . وجعله : بعضهم عطفاً على (خضراً) . وقيل هو معطوف على (حباً) .

وقوله : (والزيتون والرمان) منصوب على الاختصاص أى : وأخص من نبات كل شىء الزيتون والرمان ، وقيل معطوف على (نبات كل شىء) .

قال الآلوسى : وقوله : (مشتبها وغير متشابه) إما حال من الزيتون لسبقه اكتفى به عن حال ما عطف عليه وهو الرمان والتقدير : والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك ، وإما حال من الرمان لقربه ويقدر مثله فى الأول .

وأياما كان فى الكلام مضاف مقدر وهو بعض . أى بعض ذلك مشتبهاً وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥١ .

الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها كما قال — تعالى — « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » (١) .

ثم أمر الله عباده أن يتأملوا فى بديع صنعه فقال : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » أى : انظروا نظر تأمل واعتبار إلى ثمار كل واحد مما ذكرنا حال ابتدائه حين يكون ضئيلا ضعيفاً لايكاد ينتفع به ، وحال ينعه أى : نضجه كيف يصير كبيراً أو جامعاً لألوان من المنافع والملاذ .

يقال : أينعت الثمرة إذا نضجت .

وقوله « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » أى : إن فى ذلكم الذى ذكرناه من أنواع النبات والثمار ، وذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة وجود القادر الحكيم لقوم يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه أو هو القادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم

قال الشيخ القاسمى : قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث فاحتج عليهم بتعريف ماخلق ونقله من حال إلى حال وهـــو مايعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها . وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله — تعالى — فبين أنه - سبحانه - كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة غير متشابهة فى اللذة جزاء عليها » (٢) .

هذا وقد أفاض الإمام الرازى - رحمه الله - عنده تفسيره لهذه الآية فى بيان مظاهر قدرة الله وكمال رحمته وحكمته فقال ما ملخصه :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ٢٤٠

(٢) تفسير القاسمى جـ ٦ ص ٢٤١٩

« اعلم أنه - تعالى - ذكرها هنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدم على الفاكهة ، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب... وإنما ذكر العنب عقيب النخيل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . . . وأما الزيتون فهو - أيضاً - كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو وينفصل - أيضاً - عنه دهن كثير عظيم النفع . . . وأما الرمان فحاله عجيب جداً . . . واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر - سبحانه - هذه الأقسام الأربعة التى هى أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى .

ثم قال : وقد أمر - سبحانه - بالنظر فى حال ابتداء الثمر ونضجه لأن هذا هو موضوع الاستدلال ، والحجة التى هى تمام المقصود من هذه الآية وذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد فى أول حدوثها عن صفات مخصوصة وعند تمامها لا تبقى على حالاتها الأولى بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة ، وربما كانت فى أول الأمر باردة بحسب الطبيعة فتصير فى آخر أمرها حارة بحسب الطبيعة - أيضاً - فحصول هذه المتبدلات والمتغيرات لابد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك ، لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسباباً لحدوث الحوادث المختلفة . ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسناده إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة الحكيمة » (١) .

---

(١) راجع الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٠٧ طبع المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ

وبعد أن ذكر - سبحانه - تلك الدلائل الدالة على عظيم قدرته، وباهر حكمته ووافر نعمته. واستحقاقه الألوهية، أتبعها بتوبيخ المشركين والرد عليهم بما يرشدهم إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال - تعالى - :

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله «وجعلوا لله شركاء الجن» أي: وجعل هؤلاء المشركون لله - سبحانه - شركاء في الألوهية والربوبية من الجن.

وفي المراد بالجن هنا أقوال: أحدها، أنهم الملائكة حيث عبدوهم وقالوا إنهم بنات الله، وتسميتهم جنا مجازاً لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين كالجن.

والثاني: أن المراد بالجن هنا الشياطين. ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم في أمور الشرك والمعاصي كما يطاع الله - تعالى -

والثالث: أن المراد بالجن إبليس فقد عبده قوم وسموه ربا ومنهم من سماه إله الشر والظلمة وخص البارى بألوهية الخير والنور. وقد نقل هذا الرأى عن ابن عباس وقد قال الرازى عن هذا الرأى أنه أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية

أما ابن كثير فقد رجح الرأى الثاني وقال: فإن قيل كيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة

الجن وأمرهم لهم بذلك كقوله : «إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا» وكقوله «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم» ، وتقول الملائكة يوم القيامة : «سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» (١) .

وقال - سبحانه - «وجعلوا لله شركاء الجن» ولم يقل : وجعلوا الجن شركاء لله . لإفادة أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء . ولو قال وجعلوا الجن شركاء لله لأوهم أن موضع الإنكار أن يكون الجن شركاء لله لكونهم جنا . وليس الأمر كذلك ، بل المنكر أن يكون لله شريك من أي جنس كان .

وجملة : «وخلقهم» حال من فاعل «جعلوا» مؤكدة لما في جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان .

أي : وجعلوا لله شركاء الجن والحال أنهم قد علموا أن الله وحده هو الذي خلقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق ، وعليه فالضمير في خلقهم يعود على المشركين الذين جعلوا لله شركاء .

وقيل الضمير للشركاء أي : والحال أنهم قد علموا أن الله هو الذي خلق الجن فكيف يجعلونه مخلوقه شريكا له ؟

وقوله «وخرقوا له بنين وبنات بغير علم» أي : واختلقوا وافتروا له بجهلهم وانطماس بصيرتهم بنين وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية . أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون ما يقولون بمجرد الرأي والهوى وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه - تعالى - إلا ما قام الدليل على صحته .

قال الراغب : «وأصل الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تدبر

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٠

ولا تفكر، قال - تعالى - « أخرقتها لتغرق أهلها » ، وهو ضد الخلق لأن الخلق هو فعل الشيء بتقدير ورفق . . . » (١) .

ثم ختمت الآية الكريمة بتنزيه الله - تعالى - عما نسبوه إليه فقال - تعالى - : « سبحانه وتعالى عما يصفون » أى : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه به هؤلاء الضالون من الأنداد والأولاد والنظراء والشركاء .

ثم ساق - سبحانه - الأدلة المبطلة لما تفوه به المشركون من مزاعم فقال - تعالى - : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » .

أى : هو مبدعهما ومنشئهما وخالقهما على غير مثال سبق ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنه لا نظير لها فيما سلف .

وقوله : « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » أى : من أين وكيف يكون له ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها ، ويستحيل ضرورة وجود الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد ، وأيضاً الولد لا يحصل إلا بين متجانسين ولا مجانس له - سبحانه - .

وجملة « أنى يكون له ولد » مستأنفة لتقرير تنزهه عن ذلك . وجملة « ولم تكن له صاحبة » حال مؤكدة لاستحالة ما نسبوه إليه من الولد .

وقوله « وخلق كل شيء » جملة أخرى مستأنفة لتحقيق ما ذكر من الاستحالة ، أو حال ثانية مقررة لها .

أى : كيف يكون له ولد والحال أنه خالق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولداً له - تعالى - فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٤٦

قال صاحب الكشاف : « وفى هذه الآية الكريمة إبطال لأن يكون لله ولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن توصف بالولادة . لأن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والداً . والثانى : أن الولادة لا تكون إلا لمن له صاحبة والله - تعالى - لا صاحبة له فلم تصح الولادة . والثالث : أنه ما من شىء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شىء والولد إنما يطلبه المحتاج (١) .

وجملة « وهو بكل شىء عليم » مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها من الدلائل القاطعة ببطلان أن يكون له ولد .

أى : أنه - سبحانه - عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد فلا بد أن يتصف بصفاته ومنها عموم العلم ، وهو منفى عن غيره بالإجماع .

وبعد أن أبطل - سبحانه - الشرك ونعى على معتنقيه سوء تفكيرهم ، دعا المكلفين إلى إخلاص العبودية لله وحده فقال - تعالى - :

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه » .

أى ذلكم الموصوف بما سمعتم من جلائل الصفات هو الله ربكم لا من زعمتم من الشركاء ، فأخلصوا له العبادة فهو - سبحانه - الخالق لكل شىء وما عداه فهو مخلوق يجب أن يعبد خالقه .

وقوله « وهو على كل شىء وكيل » أى وهو مع تلك الصفات الجليلة رقيب على عباده حفيظ عليهم ، يدبر أمرهم ، ويتولى جميع شئونهم .

وقوله : « لا تدركه الأبصار » جملة مستأنفة إما مؤكدة لقوله « وهو على كل شىء وكيل » ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فيجب أن يخاف ويحذر . وأما مؤكدة أعظم تأكيد لما تقرر قبل من تنزهه وتعاليه عما وصفه به المشركون ، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعهودة وهى أبصار أهل الدنيا لجلاله وكبريائه وعظمته . فكيف يكون له ولد ؟

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٢

والإدراك : اللحاق والوصول إلى الشيء والإحاطة به . والأبصار جمع بصر يطلق ـ كما قال الراغب ـ على الجارحة الناظرة وعلى القوة التي فيها .

والمعنى : لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه — سبحانه — أبصار الخلائق ، أو لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة بكنهه وحقيقته فإن ذلك محال والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التي هي مجرد المعاينة ، فنفيه لا يقتضي نفي الرؤية ، لأن نفي الأخص لا يقتضي نفي الأعم فأنت ترى الشمس والقمر ولكنك لا تدرك كنهما وحقيقتهما .

هذا ، وهناك خلاف مشهور بين أهل السنة والمعتزلة في مسألة رؤية الله — تعالى — في الآخرة .

أما أهل السنة فيجيزون ذلك ويستشهدون بالكتاب والسنة ، فمن الكتاب قوله ـ تعالى ـ «وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة» ، ومن السنة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» .

قال الإمام ابن كثير : تواترت الأخبار عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات»(١)

أما المعتزلة فيمنعون رؤية المؤمنين لله ـ تعالى ـ في الآخرة ، واستدلوا فيما استدلوا بهذه الآية ، وقالوا : إن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين أدركته ببصري ورأيته إلا في اللفظ .

والذي نراه أن رأي أهل السنة أقوى لأن ظواهر النصوص تؤيدهم ولا مجال هنا لبسط حجج كل فريق ، فقد تكفلت بذلك كتب علم الكلام(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦١

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٤٤٦ وما بعدها .

وقوله « وهو يدرك الأبصار » أى : وهو يدرك القوة التى تدرك بها المبصرات . ويحيط بها علما ، إذ هو خالق القوى والحواس .

وقوله (وهو اللطيف الخبير) أى : هو الذى يعامل عباده باللطف والرأفة وهو العليم بدقائق الأمور وجلياتها .

ثم أخذ القرآن فى تثبيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى تسليته . وفى مدح ماجاء به من هدايات فقال - تعالى - :

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

قوله « قد جاءكم بصائر من ربكم » البصائر : جمع بصيرة ، وهى للقلب بمنزلة البصر للعين ، فهى النور الذى يبصر به القلب ، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين .

والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة . أى : قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالقكم هذا القرآن بآياته وحججه وهداياته لكى تميزوا بين الحق والباطل ، وتتبعوا الصراط المستقيم .

وإطلاق البصائر على هذه الآيات من إطلاق اسم المسبب على السبب.

وقوله . فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، أى : فمن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وآمن به فلنفسه أبصر وإياها نفع ، ولسعادتها ماقدم من ألوان الخير ، ومن عمى عن الحق وجهله بإعراضه عن هذه البصائر فعلى نفسه وحدها جنى وإياها ضر بالعمى. وهذا كقوله ـ تعالى ـ : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وقوله : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها).

واختتمت الآية بقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى : وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم أعمالكم ، وأحفظكم من الضلال ، وإنما أنا على البلاغ والله وحده هو الذى يحصى عليكم أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون .

وقوله : (وكذلك نصرف الآيات) أى : وكما فصلنا الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلا بديعا محكما نفصل الآيات ونبينها وننوعها فى كل موطن لتقوم على الجاحدين الحجة ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم.

(وليقولوا درست) يقال درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلله للحفظ . وأصله من درس الحنطة يدرسها درسا ودراسا إذا داسها ، فكأن التالى يدوس الكلام فيخفف على لسانه .

والمعنى : وليقول المشركون فى الرد عليك : إنك يا محمد قد قرأت الكتب على أهل الكتاب وتعلمت منهم ، وحفظت عن طريق الدراسة أخبار من مضى، ثم

جئتنا بعد كل ذلك تزعم أن ما جئت به من عند الله ، وما هو من عند الله .

وقد حكى القرآن فى مواضع كثيرة التهم الباطلة التى وجهها المشركون إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ت ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :

« وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » .

قال ابن عباس : (وليقولوا) يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) يعنى : تعلمت من يسار وخير ـ وكانا عبدين من سبى الروم ـ ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله .

وقال الفراء : معناه ، تعلمت من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل مكة بالعلم والمعرفة .

وقرىء (دارست) ـ بالألف وفتح التاء ـ أى : دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية كأهل الكتاب ، من المدارسة بين الإثنين ، أى : قرأت عليهم وقرءوا عليك .

قال تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

وقرىء ـ أيضاً ـ (درست) ـ بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ـ أى : وليقولوا مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، وقد حكى القرآن أنهم قالوا أساطير الأولين قال ـ تعالى ـ (حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

وهذه القراءات الثلاث متواترة وهناك قراءات أخرى شاذة لا مجال لذكرها هنا .

وقوله . (ولنبينه لقوم يعلمون) أى : ولنبين ونوضح هذا القرآن لقوم

يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه ، فهم المنتفعون به دون سواهم .

فالضمير فى (ولنبينه) يعود إلى القرآن لكونه معلوما وإن لم يجر له ذكر وقيل يعود إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين اللامين فى (وليقولوا) و (لنبينه) ؟ قلت : الفرق بينهما أن الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك لأن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبه به فسيق مساقه(١) .

ثم أمر الله تعالى ـ رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أن يستمر فى دعوته دون أن يعول على تعنت المشركين فقال ـ تعالى ـ (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله هو وأعرض عن المشركين) .

أى عليك يا محمد أن تداوم على تبليغ رسالتك ، متبعا فى ذلك ما أوحاه إليك ربك الذى لا إله إلا هو من آيات وهدايات ، معرضا عن المشركين الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

وجملة « لا إله إلا هو » معترضة لتأكيد إيجاب الاتباع ، أو حال مؤكدة لقوله « من ربك » بمعنى : منفرداً فى الألوهية .

ثم هون عليه أمر إعراضهم فقال ـ تعالى ـ « ولو شاء الله ما أشركوا » أى : ولو شاء الله عدم إشراكهم لما أشركوا ، ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ ذلك لأنه جرت سنته برعاية الاستعدادات .

قال الآلوسى : وهذا دليل أهل السنة على أنه تعالى ـ لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه ، ولكن بمعنى أنه ــ تعالى ــ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥٥ .

لا يريده منه لسوء اختياره الناشىء من سوء استعداده »(١) .

وقوله « وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » أى : وما جعلناك عليهم حفيظا يحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها وما أنت عليهم بوكيل تدبر عليهم أمورهم وتتصرف فيها، وإنما أنت وظيفتك التبليغ قال - تعالى - « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقال - تعالى - « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

ثم أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، فنهاهم عن سب آلهة المشركين حتى لا يقابلهم المشركون بالمثل فقال — تعالى — :

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله . . .

السب : الشتم الوضيع وذكر مساوىء الغير لمجرد التحقير والإهانة .

وعدوا: مصدر بمعنى العدوان والظلم والتجاوز من الحق إلى الباطل وهو مفعول مطلق « لتسبوا » من معناه ، لأن السب عدوان ، وقيل هو حال من ضمير « يسبوا » مؤكدة لمضمون الجملة وكذلك قوله « بغير علم » .

والمعنى : ولا تسبوا أيها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة فيترتب على ذلك أن يسب المشركون معبودكم الحق جهلا منهم وضلالا .

قال الآلوسى : ومعنى سبهم لله — تعالى - إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له — صلى الله عليه وسلم — ولمن يأمره وقد فسر « بغير علم » بذلك أى : فيسبوا الله - تعالى - بغير علم أنهم يسبونه وإلا فالقوم كانوا يقرون بالله — تعالى — وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عنده - سبحانه - فكيف يسبونه ؟ ويحتمل أن يراد سبهم له — عز وجل — صراحة ولا إشكال بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك ، ألا

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٢٥٠ .

ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظة على التكلم بالكفر ! ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام رأى بعض الرافضة يسب الشيخين - أبا بكر وعمر - فغاظه ذلك جداً فسب عليا - كرم الله وجهه - فسئل عن ذلك فقال : ماأردت إلا إغاظتهم ولم أر شيئاً يغيظهم مثل ذلك فاستتيب عن هذا الجهل العظيم »(١).

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها مارواه معمر عن قتادة قال . . كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم فنزلت »(٢) .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : سب الآلهة الباطلة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟ قلت رب طاعة علم أنها تؤدى إلى مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة . كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ووجب النهى عن ذلك كما يجب النهى عن المنكر »(٣) .

وقال الشيخ القاسمى : قال ابن الفرس فى الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن لم يجز أن يسبوا آلهتهم ولا دينهم ، وهذا أصل فى سد الذرائع » .

وقال السيوطى : «وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى وكذا كل مفعول مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه » .

وقال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين : أحدهما أنها جماد لا ذنب

(١) تفسير الآلوسى جـ ٧ ص ٤٥١
(٢) « ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٤
(٣) « الكشاف جـ ١ ص ٥٦

لها . والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسب الله - تعالى - . والذى يجب علينا إنما هو بيان بغضها وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع، وأنها لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسب . ولهذا قال أمير المؤمنين على - يوم صفين - « لا تسبوهم ولكن اذكروا قبيح أفعالهم » (١) .

وقال بعض العلماء : ووجه النهى عن سب أصنامهم هو أن السب لا تترتب عليه مصلحة دينية ، لأن المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله - تعالى . فذلك الذى يتميز به المحق من المبطل ، فأما السب فإنه مقدور للمحق وللمبطل فيظهر بمظهر التساوى بينهما ، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه ما لا يستطيعه المحق ، فيلوح للناس أنه تغلب على المحق . على أن سب آلهتهم لما كان يحمى غيظهم ويزيد تصلبهم صار منافياً لمراد الله من الدعوة فقد قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) «وجادلهم بالتى هى أحسن» . وأصبح هذا السب متمحضاً للمفسدة وليس مشوباً بمصلحة ، وليس هذا مثل تغيير المنكر إذا خيف إفضاؤه إلى مفسدة ، لأن تغيير المنكر مصلحة بالذات وإفضاؤه إلى المفسدة بالعرض . وذلك مجال تتردد فيه أنظار العلماء المجتهدين بحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد قوة وضعفاً وتحققاً واحتمالا ، وكذلك القول فى تعارض المصالح والمفاسد كلها (٢) .

وهذه الآية الكريمة ليست منسوخة بآية السيف - كما قيل - وإنما هى محكمة ولذا قال القرطبى : قال العلماء : حكمها باق فى هذه الأمة على كل حال فمتى كان الكافر فى منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبى (صلى الله عليه وسلم) أو الله - تعالى - فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا كنائسهم ،

(١) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٤٦٣

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ٧ ص ٤٣٠ للشيخ محمد بن عاشور .

ولا يتعرض إلى ما يؤدى إلى ذلك ، لأنه بمنزلة البعث على المعصية » (١) .

وقوله «كذلك زينا لكل أمة عملهم» .

التزيين تفعيل من الزين وهو الحسن .

والمعنى : مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على الدفاع عن عقائدهم الباطلة جهلا منهم وعدوانا ، زينا لكل أمة من الأمم عملهم ، من الخير والشر والإيمان والكفر ، فقد مضت سنتنا فى أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعودوه ، وأن يتعلقوا بما ألفوه .

وقيل : المراد بكل أمة أمم الكفر لأن الكلام فيهم . والمراد بعملهم . شرورهم ومفاسدهم . والمشبه به تزيين سب الله — تعالى — لهم .

أى : كما زينا لهؤلاء المشركين سوء أعمالهم زينا لكل أمة من الأمم الماضية على الضلال عملهم السىء .

قال الآلوسى : «وقد استدل بالآية على أنه — تعالى — هو الذى زين للكافر كفره كما زين للمؤمن إيمانه . وأنكر ذلك المعتزلة فتأولوا الآية بما لا يخفى ضعفه » .

وقال صاحب المنار : فظهر بهذا التزيين أثر لأعمال إختيارية لا جبر فيها ولا إكراه وليس المراد به أن الله خلق فى قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر ، وفى قلوب بعضها الآخر تزيينا للإيمان والخير خلقا إبتدائياً من غير أن يكون لهم عمل إختيارى نشأ عنه ذلك ، إذ لو كان الأمر كما ذكر لكان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائب الخلقية التى تعد الدعوة إليها والترغيب فيها وما يقابلهما من النهى والترهيب عنها من العبث الذى يتنزه الله

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٦٠

عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله . . وقد غفلت المعتزلة عن هذا التحقيق فأول بعضهم الآية بأنها خاصة بالمؤمنين الذين زين الله فى قلوبهم الإيمان وبعضهم بغير ذلك . . . » (١) .

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : « ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » أى : ثم إلى ربهم أمورهم ورجوعهم ومصيرهم بعد البعث ، فيخبرهم من غير تسويف أو تأخير بما كانوا يعملونه فى الدنيا ، ويجازيهم على ذلك بما يستحقونه. وفى هذه الجملة الكريمة تهديد وتوبيخ لأولئك المشركين الذين تجاسروا على مقام الله ، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

ثم حكى القرآن بعض المقترحات المتعنتة التى كان يقترحها المشركون على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : وأقسموا بالله جهد أيمانهم

الجهد : الوسع والطاقة من جهد نفسه يجهدها فى الأمر إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها فيه . وهو مصدر فى موضع الحال .

أى : وأقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين فى إيمانهم ، مؤكدين إياها بأقصى ألوان التأكيد ، معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها عليك يا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

وقد لقن الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — الرد المفحم لهم فقال : « قل إنما الآيات عند الله » .

---

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ٦٦٩

أى : قل لهم يا محمد إن هذه الآيات التى اقترحتموها تعنتا وعنادا مردها إلى الله ، فهو وحده القادر عليها والمتصرف فيها حسب مشيئته وحكمته ، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها ، أما أنا فليس ذلك إلى .

أخرج ابن جرير — بسنده — عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم نفر من قريش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . فقالوا له ، يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتاعشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا بآية من هذه الآيات حتى نصدقك ، فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أى شىء تحبون أن آتيكم به » ؟ قالوا ، تجعل لنا الصفا ذهبا ، فقال لهم « فإن فعلت تصدقونى » ؟ قالوا نعم . والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون فقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعو فجاءه جبريل فقال ، إن شئت أصبح الصفا ذهبا على أن يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال — صلى الله عليه وسلم — بل أتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله — تعالى — قوله . « وأقسموا بالله جهد أيمانهم . . . إلى قوله « ولكن أكثرهم يجهلون » (١) .

وقوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » .

أى : وما يدريكم أيها المؤمنون الراغبون فى إنزال هذه الآيات طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين أنها إذا جاءت لا يؤمنون أى : إذا جاءت هذه الآيات فأنا أعلم أنهم لايؤمنون وأنتم لاتعلمون ذلك ولذا توقعتم إيمانهم ورغبتم فى نزول الآيات .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٤

فالخطاب هنا للمؤمنين ، والاستفهام فى معنى النفى ، وهو إخبار عنهم بعدم العلم وليس للانكار عليهم .

أى : إنكم أيها المؤمنون ليس عندكم شيء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى الذى لايعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إن جاءتهم الآيات التى يقترحونها على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تعنتا وجهلا .

قال صاحب الكشاف : « ومايشعركم » ومايدريكم ، أنها أى الآية التى تقترحونها « إذا جاءت لا يؤمنون » يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون فى إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها ، فقال — عز وجل — وما يدريكم أنهم لا يؤمنون وقيل أنها ، بمعنى « لعل » من قول العرب : أئت السوق أنك تشترى حماراً.

وقال امرؤ القيس .

عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكى الديار كما بكى ابن خذام

أى : لعلنا نبكى الديار .

وقرىء بكسر «إنها» على أن الكلام قد تم قبله بمعنى : ومايشعركم مايكون منهم ؟ ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال : إنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة »(١) .

وقوله « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » معطوف على « لا يؤمنون » ، وداخل معه فى حكم « وما يشعركم » مقيد بما قيد به .

أى : وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، كشأنهم فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من آيات وهدايات على لسان — رسول الله صلى الله عليه وسلم — قبل أن يقترحوا عليه تلك المقترحات الباطلة .

إنكم أيها المؤمنون لا تدرون ذلك ولا تشعرون به لأن علمه عند الله وحده.

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٧ .

قال الآلوسى : وهذا التقليب ليس مع توجه الأفئدة والأبصار إلى الحق واستعدادهما له ، بل لكمال نبوهما عنه وإعراضهما بالكلية. ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارا بأصالتهم فى الكفر وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه - تعالى - مشاعرهم بطريق الإجبار »(١) .

وقوله « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » معطوف على « لا يؤمنون » .

والعمه : التردد فى الأمر مع الحيرة فيه . يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها إذا تردد وتحير .

أى : ونتركهم فى تجاوزهم الحد فى العصيان يترددون متحيرين ، لا يعرفون لهم طريقا ، ولا يهتدون إلى سبيل .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها كاذبون فى أيمانهم الفاجرة ، فقال - تعالى - :

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٢٥٥ .

والمعنى : ولو أننا يا محمد لم نقتصر على إيتاء ما اقترحه هؤلاء المشركون من آيات كونية ، بل أضفنا إلى ذلك أننا نزلنا عليهم الملائكة يشهدون بصدقك وأحيينا لهم الموتى فشهدوا بحقيقة الإيمان ، وزدنا على ذلك فجمعنا لهم جميع الخلائق مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم بأنك على الحق ، لو أننا فعلنا كل ذلك ما استقام لهم الإيمان لسوء استعدادهم وفساد فطرهم ، وانطماس بصيرتهم ، فإن قوما يمرون على تلك الآيات الكونية التي زخر بها هذا الكون والتي استعرضتها هذه السورة فلا تتفتح لها بصائرهم ، ولا تتحرك لها مشاعرهم ، ليسوا على استعداد لأن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم ، والذي ينقصهم إنما هو القلب الحي الذي يتلقى ويتأثر ويستجيب وليس الآيات التي يقترحونها فإن أمامهم الكثير منها ، واقتراحاتهم إنما هي نوع من العبث السخيف ، والتعنت المرذول الذي لا يستحق أن يهتم به .

و « قبلا » ـ بضم القاف والباء ـ حال من « كل شيء » وفيه أوجه الأول أنه جمع قبيل بمعنى كفيل مثل قليب وقلب ، أي : وحشرنا عليهم كل شيء من المخلوقات ليكونوا كفلاء بصدقك .

والثاني : أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره فيكون معناه المواجهة والمعاينة ومنه آتيك قبلا لا دبرا أي آتيك من قبل وجهك والمعنى . وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة وعيانا ليشهدوا بأنك على الحق .

والثالث : أن يكون قبلا جمع قبيل لكن بمعنى جماعة جماعة أو صنفاً صنفا والمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء فوجا فوجا ونوعا نوعا من سائر المخلوقات ليشهدوا بصدقك .

وجملة « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » جواب لو .

أي : لو فعلنا لهم كل ذلك ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال بسبب غلوهم في التمرد والعصيان ، إلا في حال مشيئة الله إيمانهم فيؤمنوا ، لأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على كل شيء .

وقوله « ولكن أكثرهم يجهلون » .

أي . ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا فهم لذلك يحلفون الأيمان المغلظة بأنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها. أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

وقيل الضمير يعود على المؤمنين فيكون المعنى . ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمان أولئك المشركين عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئه الله — تعالى — لإيمانهم ، فيتمنون مجيء الآيات طمعاً في إيمانهم .

قال الشيخ القاسمي : في قوله « إلا أن يشاء الله » حجة واضحة على المعتزلة لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله - تعالى - حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة وحملة شريعتها على أنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . والمعتزلة يقولون « إلا أن يشاء الله مشيئة قسر وإكراه »(١) .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه عن تعنت المشركين وتماديهم في الباطل ببيان أن كل نبي كان له أعداء يسيئون إليه ويقفون عقبة في طريق دعوته فقال:

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن . . .

والمعنى . ومثل ماجعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك - أيضاً - أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، قال - تعالى - « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم(٢) » .

وقال — تعالى — « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً(٣) » .

---

(١) تفسير القاسمي جـ ٧ ص ٢٤٧١ (٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .
(١) سورة الفرقان الآية ٣١ .

والمراد بشياطين الإنس والجن ، المردة من النوعين . والشيطان : كل عات متمرد من الإنس والجن .

وجملة « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً الخ » مستأنفة لتسلية النبى — صلى الله عليه وسلم — عما يشاهده من عداوة قريش له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر مؤكد لما بعده .

وجعل ينصب مفعولين أو لهما «عدواً» وثانيهما «لكل نبى»و«الشياطين» بدل من المفعول الأول ، وبعضهم أعرب « شياطين » مفعولا أولا و«عدوا» مفعولا ثانيا ، « ولكل نبى » حالا من « عدوا » .

وقوله : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » .

الوحى : الإعلام بالأشياء من طريق خفى دقيق سريع . زخرف القول: باطله الذى زين وموه بالكذب . وأصل الزخرف . الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ولكل شىء حسن مموه زخرف .

والغرور : الخداع والأخذ على غرة وغفلة .

والمعنى : يلقى بعضهم إلى بعض بطرق خفية دقيقة القول المزين المموه الذى حسن ظاهره وقبح باطنه لكى يخدعوا به الضعفاء ويصرفونهم عن الحق إلى الباطل .

والجملة مستأنفة لبيان إحكام عداوتهم ، أو حال من الشياطين وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أتباعه أن يستعيذوا بالله من شياطين الإنس والجن ، فعن أبى ذر قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس

قد أطال فيه الجلوس فقال : يا أبا ذر هل صليت؟ قلت: لا يارسول الله. قال : قم فاركع ركعتين قال : ثم جئت فجلست إليه فقال : يا أبا ذر ، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس ؟ قال : قلت لا يارسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال نعم : هم شر من شياطين الجن » .

وقد ساق الإمام ابن كثير عدة روايات عن أبى ذر فى هذا المعنى، ثم قال فى نهايتها: «فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته»(١).

وقوله: «ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون».

أى: ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه من معاداة الأنبياء ومن الإيحاء بالقول الباطل لتم له ذلك، لأنه - سبحانه - هو صاحب المشيئة النافذة، والإرادة التامة ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجبرهم على خلاف ما زينته لهم أهواؤهم باختيارهم، لكى يميز الله الخبيث من الطيب. فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر وغيره من ألوان الشرور، فسوف يعلمون سوء عاقبتهم.

وقوله: ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة... معطوف على «غرورا»، فيكون علة أخرى للإيحاء، والضمير فى «إليه» يعود إلى زخرف القول.

وأصل الصغو: الميل. يقال: صغا يصغو صغوا ويصغى صغوا، وصغى يصغى صغا أى: مال، وأصغى إليه مال إليه يسمعه، وأصغى الإناء: أماله. ويقال: صغت الشمس والنجوم صغوا: مالت إلى الغروب.

والمعنى: يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول ليغروا به الضعفاء، ولتميل إلى هذا الزخرف الباطل من القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقته لأهوائهم وشهواتهم.

وخص عدم إيمانهم بالآخرة بالذكر - مع أنهم لا يؤمنون بأمور أخرى يجب الإيمان بها - لأن من لم يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يمشى دائما وراء شهواته وأهوائه ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله.

ثم بين - سبحانه - تدرجهم السيء فى هذا العمل الآثيم فقال: «وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون».

أى: وليرضوا هذا الفعل الخبيث لأنفسهم بعد أن مالت إليه قلوبهم،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٦

وليقترفوا ما هم مقترفون أى : وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الأعمال السيئة فإن الله — تعالى — سيجازيهم عليها بما يستحقونه .

وأصل القرف والاقتراف . قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح . واستعير الاقتراف للاكتساب مطلقا ولكنه فى الإساءة أكثر . فيقال : قرفته بكذا إذا عبته واتهمته .

قال أبو حيان : وترتيب هذه المفاعيل فى غاية الفصاحة ، لأنه أولا يكون الخداع ، فيكون الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، فكل واحد مسبب عما قبله (١) .

ثم أمر الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يصارح المشركين بأن الله وحده هو الحكم الحق ، وإن كتابه هو الآية الكبرى الدالة على صدقه فيما يبلغه عنه فقال — تعالى — :

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

---

(١) تفسير أبى حيان جـ ٤ ص ٤٠٨

روى أن مشركى مكة قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - اجعل بيننا حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزل قوله - تعالى - «أفغير الله أبتغى حكما». الآية» (١).

وقوله: «أفغير الله أبتغى حكما» كلام مستأنف على إرادة القول، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام.

والحكم - بفتحتين - هو من يتحاكم إليه الناس ويرضون بحكمه، وقالوا: إنه أبلغ من الحاكم، وأدل على الرسوخ، كما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، أأميل إلى زخارف الشياطين، فأطلب معبودا سوى الله - تعالى - ليحكم بينى وبينكم، ويفصل المحق منها من المبطل.

وأسند (صلى الله عليه وسلم) الابتغاء لنفسه لا إلى المشركين، لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم: اجعل بيننا وبينك حكما.

و«غير» مفعول «لأبتغى» و«حكما» إما أن يكون حالا لغير أو تمييزا له. وجملة «وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا» حالية مؤكدة للإنكار أى: أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم، والحال أنه - سبحانه - هو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا، أى مبينا فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، وغير ذلك من الأحكام التى أنتم فى حاجة إليها فى دينكم ودنياكم، وأسند الإنزال إليهم لاستمالتهم نحو المنزل واستدعائهم إلى قبول حكمه، لأن من نزل الشىء من أجله، من الواجب عليه أن يتقبل حكمه.

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على أن القرآن حق فقال: «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق».

(١) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ٨

أى : والذين آتيناهم الكتاب أى التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق . لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك ، ولأن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك مصدق لكتبهم ومهيمن عليها .

فهذه الجملة الكريمة تقرير لكون القرآن منزلا من عند الله ، لأن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته وأنه منزل من عند الله .

وقوله : « فلا تكونن من الممترين » أى : فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق ، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت لليقين ، كى لا يحول فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين .

قال ابن كثير : وهذا كقوله - تعالى - « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » قال : وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا أشك ولا أسأل »(١) .

وقيل : الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فلا ينبغى أن يشك فى ذلك أحد .

وقيل : الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - والمقصود أمته ، لأنه — صلى الله عليه وسلم — حاشاه من الشك .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٧

ثم بين — سبحانه — أن هذا الكتاب كامل من حيث ذاته بعد أن بين كماله من حيث إضافته إليه — تعالى — بكونه منزلا منه بالحق فقال — تعالى — : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) وقرىء (كلمات ربك) .

والمراد بها — كما قال قتادة وغيره — القرآن .

أى : كمل كلامه — تعالى — وهو القرآن ، وبلغ الغاية فى صدق أخباره ومواعيده ، وفى عدل أحكامه وقضاياه .

وصدقا وعدلا مصدران منصوبان على الحال من (ربك) أو من (كلمة) وقيل هما منصوبان على التمييز .

وجملة (لا مبدل لكلماته) مستأنفة لبيان فضل هذه الكلمات على غيرها أثر بيان فضلها فى ذاتها .

أى : لامغير لها بخلف فى الأخبار ، أو نقض فى الأحكام ، أوتحريف أوتبديل كما حدث فى التوراة والإنجيل ، وهذا ضمان من الله — تعالى — لكتابه بالحفظ والصيانة ، قال — تعالى — (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

ثم ختمت الآية بقوله (وهو السميع العليم) أى : هو — سبحانه — السميع لكل ما من شأنه أن يسمع ، العليم بكل ما يسرون وما يعلنون .

وبعد أن أقام — سبحانه — الأدلة على وحدانيته وصدق نبيه — صلى الله عليه وسلم — أتبع ذلك بنهيه — صلى الله عليه وسلم — عن الالتفات إلى جهالات أعدائه فقال — تعالى — : وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله .

أى : وإن تطع أكثر من فى الأرض من الناس الذين استحبوا العمى على الهدى يضلوك عن الطريق المستقيم ، وعن الدين القويم الذى شرعه الله لعباده ، لأن هؤلاء المجادلين مايتبعون فى جدالهم وعقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى تزينه لهم أهواؤهم ، وماهم إلا يخرصون أى : يكذبون .

وأصل الخرص : القول بالظن . يقال : خرصت النخل خرصاً - من باب قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين . واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى : كذب .

قال صاحب المنار : (وهذا الحكم القطعى بضلال أكثر أهل الأرض ظاهر بما بينه به من اتباع الظن والخرص ولاسيما فى ذلك العصر - تؤيده تواريخ الأمم كلها ، فقد اتفقت على أن أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالا بعيداً ، وكذلك أمم الوثنية التى كانت أبعد عهداً عن هداية رسلهم وهذا من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم - وهو أمى لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا شيئاً يسيراً من شئون المجاورين لبلاد العرب خاصة(١)» .

وقوله - سبحانه - (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) تقرير للآية السابقة ، وتأكيد لما يفيده مضمونها ، أى : إن ربك الذى لاتخفى عليه خافية هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن طريق الحق وهو أعلم منك ومن سائر الخلق - أيضاً - بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم ، فعليك - أيها العاقل - أن تكون من فريق المهتدين لتسعد كما سعدوا واحذر أن تركن إلى فريق الضالين ، فتشقى كما شقوا .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد قررت أن الله وحده هو الحكم العدل ، وأن كتابه هو المهيمن على الكتب السابقة ، وأن أهل الكتاب يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وأنه - سبحانه - قد تكفل بحفظ كتابه من التغيير والتبديل ، وأن الطبيعة الغالبة فى البشر هى اتباع الظنون والأهواء ، لأن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين فى أحكامهم . والله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .

(١) تفسير المنار جـ ٧ ص ١٦ .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وكمال قدرته. وسعة علمه ورد على الشبهات التى أثارها المشركون حول الدعوة الإسلامية بما يخرس ألسنتهم. وأثبت - سبحانه - أنه هو الحكم الحق، وأن كتابه هو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن فى أحكامهم .. بعد كل ذلك انتقل القرآن إلى الكلام فى مسألة كثر فيها الجدل بين المسلمين والمشركين، وهى مسألة الذبائح ما ذكر عليه إسم الله منها ومالم يذكر فقال - تعالى - :

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : أتى ناس إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- فقالوا يارسول الله إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله - فأنزل الله - فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . . إلى قوله « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون »(١) .

وذكر الواحدى أن المشركين قالوا : يامحمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال - ﷺ - الله قتلها . قالوا . فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر أو الكلاب حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله - تعالى - قوله : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » الآية(٢) .

والخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين الذين ضايقهم جدال المشركين لهم فى شأن الذبائح .

والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه اسم غيره كالأوثان أو ما ذبح على النصب، أو ماذكر اسم مع اسمه - تعالى - أو ما مات حتف أنفه ، فلا تضرنكم مخالفتكم للمشركين فى ذلك فإنهم ما يتبعون فى عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوهامها التى لا ترتكز على شىء من الحق .

والفاء فى قوله : « فكلوا .. » يرى الزمخشرى أنها جواب لشرط مقدر والتقدير : إن كنتم محقين فى الإيمان فكلوا ، ويرى غيره أنها معطوفة على محذوف والتقدير «كونوا على الهدى فكلوا» .

وقوله : « إن كنتم بآياته مؤمنين » أى . إن كنتم بآياته التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن مؤمنين ، فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه واجتناب ما حرمه ،

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأضاحى - باب ذبائح أهل الكتاب - حديث رقم ٢٨١ طبعة فؤاد عبد الباقى .

(٢) تفسير الألوسى ج ٨ ص ١٢ .

ثم أنكر — سبحانه — عليهم ترددهم فى أكل ما أحله الله من طعام لأنهم لم يتعودوه قبل ذلك فقال : « وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » .

أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك ! فالاستفهام لإنكار أن يكون هناك شىء يدعوهم إلى اجتناب الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها سواء أكانت تلك الذبائح من البحائر أو السوائب أو غيرها مما حرمه المشركون على أنفسهم بدون علم .

وقوله « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » جملة حالية مؤكدة للإنكار السابق أى والحال أن الله ـ تعالى ـ قد فصل لكم على لسان رسولكم ـ ﷺ ـ ما حرمه عليكم من المطعومات ، وبين لكم ذلك فى كتابه كما فى قوله ـ تعالى ـ « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

إذاً فمن الواجب عليكم أيها المسلمون أن تأكلوا وأنتم مطمئنون من جميع المطاعم التى أحلها الله لكم وذكر اسمه عليها ولو خالفتم فى ذلك المشركين وأن تتجنبوا أكل ما حرمه الله عليكم ولو كان ذلك مما يستبيحه المشركون .

وقوله « إلا ما اضطررتم إليه » استثناء مما حرم الله عليهم أكله .

أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع ففى هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم . هذا هو حكم الله الذى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه ، وألا تلقوا بالا إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون الباطلة .

ثم نعى على المشركين جهالاتهم فقال : « وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم » .

قرأ الجمهور « ليضلون » بضم الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيراً من الكفار ليضلون غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام بسبب أهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة ، دون أن يكون عندهم أى علم مقتبس من وحى الله أومستنبط من عقل سليم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «ليضلون» بفتح الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيرا من الكفار لينحرفون عن الحق ويقعون فى الضلال بسبب اتباعهم لأهوائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقراءة الجمهور أبلغ فى الذم لأنها تتضمن قبح فعلهم حيث ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .

وقوله : « بغير علم » متعلق بمحذوف وقع حالا أى : يضلون مصاحبين للجهل .

وقوله « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » أى : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام .

فى الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

قال الإمام الرازى : وقد دلت هذا الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام (١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ١٢٧

ثم أمر الله عباده أن يتركوا ما ظهر من الآثام وما استتر فقال :

« وذروا ظاهر الإثم وباطنه » أى اتركوا جميع المعاصى ما كان منها سرا وما كان منها علانية ، أو ما كان منها بالجوارح وما كان منها بالقلوب لأن الله — تعالى — لا يخفى عليه شىء .

ثم بين - سبحانه - عاقبة المرتكبين للآثام فقال : « إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » أى : إن الذين يعملون المعاصى ويرتكبون القبائح الظاهرة والباطنة لن ينجو من المحاسبة والمؤاخذة بل سيجزون بما يستحقونه من عقوبات بسبب اجتراحهم للسيئات .

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، نهاهم صراحة عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه اشدة العناية بهذا الأمر فقال -تعالى-:

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » أى : لا تأكلوا أيها المسلمون من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره ، أو ذكر اسم مع اسمه — تعالى — ، أو غير ذلك مما سبق بيانه من المحرمات .

وقوله « وإنه لفسق » جملة حالية والضمير يعود على الأكل الذى لم يذكر اسم عليه ، أى : وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذى لم يذكر اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله — تعالى — وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح ، وفى ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

ثم كشف للمسلمين عن المصدر الذى يمد المشركين بمادة الجدل حول هذه المسألة فقال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

أى : وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من

المشركين ليجادلوكم فى تحليل الميتة وفى غير ذلك من الشبهات الباطلة «وإن أطعتموهم» فى استحلال ما حرمه الله عليكم «إنكم لمشركون».

قال ابن كثير: أى: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كقوله - تعالى - «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» الآية، وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال: يارسول الله ما عبدوهم فقال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»(١).

هذا، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلما، وقد اختلف الفقهاء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال.

فمنهم من قال لا تحل الذبيحة التى يترك ذكر اسم الله عليها سواء كان الترك عمدا أو سهوا، وإلى هذا الرأى ذهب ابن عمر ونافع وعامر الشعبى ومحمد ابن سيرين، وداود الظاهرى وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل.

واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية التى وصفت ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه بأنه فسق، كما احتجوا بقوله - تعالى - «فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه»، وبالأحاديث التى وردت فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديث عدى بن حاتم وفيه «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧١.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب «الذبائح والصيد» حديث رقم ١٤١ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى.

وحديث رافع بن خديج وفيه «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه(١)».

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن التسمية ليست شرطا بل هى مستحبة، وتركها عن عمد أو نسيان لا يضر، وقد حكى هذا المذهب عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وهو مذهب الشافعى وأصحابه وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل.

وحجتهم أن هذه الآية «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ...» واردة فيما ذبح لغير الله بأن يذكر على الذبيحة اسم الصنم كما كان يفعل المشركون عند ذبائحهم.

واحتجوا أيضاً بما رواه الدار قطنى عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله(٢)».

أما الرأى الثالث فيرى أصحابه أن ترك التسمية نسيانا لا يضر أما عمدا فلا تحل الذبيحة، وإلى هذا المذهب ذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وهو المشهور من مذهب أحمد بن حنبل وعليه أبو حنيفة وأصحابه.

واحتجوا لمذهبهم بأحاديث منها ما رواه عبد الله بن عمرو عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه(٣)».

ولعل هذا المذهب أقرب المذاهب إلى الصواب، لأن المتعمد هو الذى يؤاخذ على عمله أما الناسى فليس مؤاخذا.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب «الذبائح والصيد».

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٩.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠.

وقد تولت بعض كتب التفسير بسط الأقوال في هذه المسألة فليرجع إليها من شاء(١) .

ثم ضرب الله مثلا لحال المؤمن والكافر فقال :

« أومن كان ميتاً فأحييناه . . .

الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على جملة محذوفة للعلم بها من الكلام السابق .

والتقدير : أأنتم أيها المؤمنون مثل أولئك المشركين الذين يجادلونكم بغير علم وهل يعقل أن من كان ميتاً فأعطيناه الحياة وجعلنا له نوراً عظيما يمشى به فيما بين الناس آمنا كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها .

فالآية الكريمة تمثيل بليغ للمؤمن والكافر لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين بعد أن نهاهم صراحة عن طاعتهم قبل ذلك فى قوله «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

فمثل المؤمن المهتدى إلى الحق كمن كان ميتا هالكا فأحياه الله وأعطاه نوراً يستضىء به فى مصالحه ، ويهتدى به إلى طرقه . ومثل الكافر الضال كمن هو منغمس فى الظلمات لا خلاص له منها فهو على الدوام متحير لا يهتدى فكيف يستويان ؟ .

والمراد بالنور : القرآن أو الإسلام، والمراد بالظلمات : الكفر والجهالة وعمى البصيرة . فهو كقوله ـ تعالى ـ : « وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات» .

وقوله : « كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » أى : مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية ـ وهو تزيين نور الهدى للمؤمنين وظلمات الشرك للضالين قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبى ـ ﷺ ـ وذبح القرابين لغير الله ـ تعالى ـ وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال وغير ذلك من المنكرات .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٨ وما بعدها وتفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٤ وما بعدها .

وجمهور المفسرين يرون أن المثل في الآية عام لكل مؤمن وكل كافر وقيل إن المراد بمن أحياه الله وهداه عمر بن الخطاب ، والمراد بمن بقى فى الظلمات ليس بخارج منها عمرو بن هشام ، فقد أخرج ابن أبى الشيخ أن الآية نزلت فيهما ، وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل ، وقيل فى حمزة وأبى جهل .

والذى نراه أن الآية عامة فى كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان كافراً ، وفى كل من بقى على ضلاله مؤثراً الكفر على الإيمان ويدخل فى ذلك هؤلاء المذكورون دخولا أوليا .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - ببيان أن المترفين فى كل زمان ومكان هم أعداء الإصلاح ، وأن ما لقيه - ﷺ - من أكابر مكة ليس بدعا بل هو شيء رآه الأنبياء قبله على على أيدى أمثال هؤلاء المترفين فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

أكابر : جمع أكبر ، وهم الرؤساء والعظماء فى الأمم . والمجرمون : جمع مجرم ، من أجرم إذا اكتسب أمرا قبيحا ، ومنه الجرم والجريمة للذنب والإثم .

والمعنى : وكما جعلنا فى قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك جعلنا فى كل قرية من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم ليمكروا فيها ، ويتجبروا على الناس ، ثم كانت العاقبة للرسل ، فلا تبتئس يا محمد مما يصيبك من زعماء مكة فتلك طبيعة الحياة فى كل عصر ، أن يكون زعماء الأمم وكبراؤها أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين .

قال الجمل : وقوله : « أكابر » مفعول أول لجعل ، وأكابر مضاف ومجرميها مضاف إليه ، و « فى كل قرية » المفعول الثانى لجعل ، ووجب تقديمه ليصح عود الضمير عليه ، فهو على حد قوله :

كذا إذا عاد عليه مضمر   مما به عنه مبينا يخبر

هذا أحسن الأعاريب (١) وهناك أوجه أخرى للأعراب لا تخلو من مقال .

وخص الأكابر بالمكر ، لأنهم هم الحاملون لغيرهم على الضلال ، وهم الذين يتبعهم الضعفاء فى كفرهم وفجورهم .

قال ابن كثير : والمراد بالمكر هنا دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله - تعالى - إخباراً عن قوم نوح « ومكروا مكرا كبارا » ، وكقوله : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل

(١) حاشية الجمل ج ٢ ص ٨٦

مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . الآية ، (١)»
وقوله – سبحانه – « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

أي وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل والمصلحين فى كل وقت إلا بأنفسهم ، حيث يعود ضرره عليهم وحدهم فى الدنيا والآخرة ولكنهم لانطماس بصيرتهم ، لا يشعرون بأن مكرهم سيعود عليهم ضرره ، بل يتوهمون أنهم سينجون فى مكرهم بغيرهم من الأنبياء والمصلحين .

فالجملة الكريمة بيان لسنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، وفى ذلك تسلية للنبى (صلى الله عليه وسلم) عما يصيبه منهم ، وبشارة له ، ولأصحابه بالنصر عليهم ، ووعيد لأولئك الماكرين بسوء المصير

وجملة « وما يشعرون » حال من ضمير يمكرون ، وهى تسجل عليهم بلاهتهم وجهالتهم حيث فقدوا الشعور بما من شأنه أن يعترف به كل عاقل .

ثم حكى القرآن لوناً من ألوان مكرهم فقال : « وإذا جاءتهم آية قالوا : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » .

أى : وإذا جاءت أولئك المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، حجة قاطعة تشهد بصدقك يا محمد فيما تبلغه عن ربك ، قالوا حسدا لك ، لن نؤمن لك يا محمد حتى نعطى من الوحى والرسالة مثلما أعطى رسل الله ، وأضافوا الإيتاء إلى رسل الله ، لأنهم لا يعترفون بما أوتيه (صلى الله عليه وسلم) من الوحى والرسالة .

روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبى (صلى الله عليه وسلم) لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنى أكبر منك سناً وأكثر مالا فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٣

وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد المطلب فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية ، (١) .

وقد رد الله ـ تعالى ـ على هؤلاء الحاسدين ردا حاسما فقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ، أى : الله ـ سبحانه ـ أعلم منهم ومن كل أحد بالموضع الصالح للرسالة فيضعها فيه فهو ـ سبحانه ـ يختار لها بحكمته وعلمه من يستحقها وينهض بها . ويهب نفسه لها ، ويفنى فى سبيلها ذاته .

قال الإمام الرازى : وقوله ـ تعالى ـ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » أى : ان للرسالة موضعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه ، فمن كان مخصوصاً موصوفا بتلك الصفات لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولا وإلا فلا، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله ـ تعالى ـ ثم قال : وفى هذه الجملة الكريمة تنبيه على دقيقة أخرى وهى أن أقل مالا بد منه فى حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر والغل والحسد ، وقوله « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » عين المكر والغدر والغل والحسد فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات » (٢) .

وهذه الجملة حجة لأهل الحق على أن الرسالة هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده ، ولا ينالها أحد بكسبه ولا بذكائه ولا بنسبه .

ولذا قال الإمام الآلوسى : وجملة « الله أعلم .. الخ » استئناف بيانى ، والمعنى : أن منصب الرسالة ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد ، وتعاضد الأسباب والعدد ، وإنما ينال بفضائل نفسانية ، ونفس قدسية أفاضها

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٨٦

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ١٤٢

الله - تعالى - بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده(١) . . . » .

هذا . وقد وردت أحاديث كثيرة تحدث النبى - صلى الله عليه وسلم - فيها عن اصطفاء الله له وفضله عليه ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن واثلة ابن الأسقع قال : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله - عز وجل - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم محمدا - صلى الله عليه وسلم - (٢) .

وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وداعة عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتا ، فجعلنى فى خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا(٣) » .

ثم بين - سبحانه - عاقبة أولئك الماكرين الحاسدين للنبى - صلى الله عليه وسلم - على ما آتاه الله من فضله فقال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » .

قال القرطبى ما ملخصه : الصغار : الضيم والذل والهوان . والمصدر الصغر بالتحريك - وأصله من الصغر دون الكبر فكأن الذل يصغر إلى المرء نفسه وقيل : أصله من الصغر وهو الرضا بالذل . والصاغر : الراضى بالذل . وأرض مصغرة : نبتها صغير لم يطفى . ويقال . صغر - بالكسر - يصغر صغراً وصغاراً فهو صاغر إذا ذل وهان(٤) » .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٢١ .
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل .
(٣) المسند للإمام أحمد جـ ١ ص ٢١٠ طبعة الحلبى .
(٤) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٨٠ .

والمعنى : سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم وتطاولهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت لهم عند الله في الدنيا والآخرة ، وبسبب مكرهم المستمر ، وعدائهم الدائم لرسل الله وأوليائه .

والجملة الكريمة استئناف آخر ناع على أولئك الماكرين ماسيلقونه من ألوان العقوبات بعد مانعى عليهم حرمانهم مما أنكروه من إيتائهم مثل ما أوتى رسل الله ، والسين للتأكيد .

والعندية فى قوله « عند الله » مجاز عن حشرهم يوم القيامة ، أو عن حكمه - سبحانه - وقضائه فيهم بذلك ، كقولهم : ثبت عند فلان القاضى كذا أى : فى حكمه ، ولذا قدم الصغار على العذاب لأنه يصيبهم فى الدنيا .

قال ابن كثير : ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان » والحكمة فى ذلك أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشوراً على صاحبه بما فعل(١) » .

ثم بين - سبحانه - حال المستعد لهداية الإسلام ، وحال المستعد للضلال فقال :

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤ .

أى : فمن يرد الله أن يهديه للإسلام ، ويوفقه له ، يوسع صدره لقبوله، ويسهله له بفضله وإحسانه .

وشرح الصدر : توسعته ، يقال : شرح الله صدره فانشرح ، أى : وسعه فاتسع ، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها . مصفاة عما يمنعه وينافيه .

روى عبد الرزاق أن النبى — ﷺ — سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره ؟ فقال : نور يقذف فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت(١) » .

وقوله : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » أى ومن يرد أن يضله لسوء اختياره ، وإيثاره الضلالة على الهداية يصير صدره ضيقا متزايد الضيق لا منفذ فيه للإسلام .

والحرج : مصدر حرج صدره حرجا فهو حرج ، أى : ضاق ضيقا شديداً . وصف به الضيق للمبالغة ، كأنه نفس الضيق ، وأصل الحرج مجتمع الشىء ويقال : للحديقة الملتفة الأشجار التى يصعب دخولها حرجة .

وقرىء حرجا — بكسر الراء — صفة لقوله « ضيقا » .

روى أن جماعة من الصحابة قرءوا أمام عمر — رضى الله عنه — « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا» بكسر الراء . فقال عمر : يافتى ما الحرجة فيكم ؟ قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التى لا تصل إليها راعية ولا وحشية . فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير (٢)» .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٢٢ .

وقوله «كأنما يصعد فى السماء» استئناف، أو حال من ضمير الوصف، أو وصف آخر لقلب الضال، والمراد المبالغة فى ضيق صدره حيث شبه بمن يزاول مالا يقدر عليه. فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة.

أى: كأنما إذا دعى إلى الإسلام قد كلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيعه بحال. ويصعد أى: يتصعد، بمعنى يتكلف الصعود فلا يقدر عليه.

وفيه إشارة إلى أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود.

وقوله: «كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون» أى: مثل جعل الصدر ضيقا حرجا بالإسلام، يجعل الله الرجس. أى: العذاب، أو الخذلان، أو اللعنة فى الدنيا على الذين لا يؤمنون بالإسلام.

ثم بين - سبحانه - أن طريق الإسلام هو الطريق الحق المستقيم فقال: «وهذا صراط ربك مستقيما» أى: وهذا البيان الذى جاء به القرآن، أو سبيل التوحيد، وإسلام الوجه إلى الله، هو طريق ربك الواضح المستقيم الذى ارتضاه لعباده، والذى لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال.

و«مستقيما» حال مؤكدة لصاحبها وعاملها محذوف وجوبا مثل: هذا أبوك عطوفا، وقيل حال مؤسسة والعامل فيها معنى الإشارة أو (ها) التى للتنبيه.

وقوله: «فصلنا الآيات لقوم يذكرون» أى: جعلناها بينة واضحة مفصلة لقوم يتذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

ثم بين — سبحانه — ما أعده للمتذكرين فقال:

لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

أى : أن هؤلاء المتذكرين المتقين لهم جنة عرضها السموات والأرض. فى جوار ربهم وكفالته، وهو — سبحانه — «وليهم» أى : متولى إيصال الخير إليهم، أو محبهم أو ناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة. وسميت الجنة بدار السلام، لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة من جميع المكاره.

قال الجمل : وقوله «عند ربهم» فى المراد بهذه العندية وجوه : أحدها أنها معدة عنده كما تكون الحقوق معدة مهيأة حاضرة كقوله «جزاؤهم عند ربهم». وثانيها : أن هذه العندية تشعر بأن هذا الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله بالشرف والرتبة لا بالمكان والجهة لتنزهه - تعالى - عنهما. وثالثها : هى كقوله - تعالى - فى صفة الملائكة «ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته». وقوله : أنا عند المنكسرة قلوبهم وأنا عند ظن عبدى بى(١)».

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٩٠.

ثم بين — سبحانه — جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة عند ما يقفون أمام ربهم للحساب فقال : « ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس .

ففى هذه الآيات عرض مؤثر زاخر بالحوار والاعتراف والمناقشة والحكم تحكيه السورة الكريمة وهى تصور مشاهد المجرمين يوم القيامة .

وقــوله : « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » .

المعشر : الجماعة الذين يعاشر بعضهم بعضا أوالذين يربطهم أمر مشترك بينهم والمراد بالجن شياطينهم ومردتهم .

والمعنى : واذكر يامحمد ـ أو أيها العاقل ـ يوم نحشر الضالين والمضلين جميعاً من الإنس والجن ، فنقول للمضلين من الجن : قد استكثرتم من الإنس ، أى : قد أكثرتم من إغوائكم الإنس وإضلالكم إياهم ، أو قد أكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم . وأهل طاعتكم ، ووسوستم لهم بالمعاصى حتى غررتموهم وأوردتموهم هذا المصير الأليم .

و « يوم منصوب على الظرفية والعامل فيه مقدر ، أى : اذكر يوم نحشرهم جميعاً . والضمير المنصوب فى « نحشرهم » لمن يحشر من الثقلين . وقيل للكفار الذين تتحدث عنهم هذه الآيات .

ووجه الخطاب إلى معشر الجن ، لأنهم هم الأصل فى إضلال أتباعهم من الإنس ، وهم السبب فى صدهم عن السبيل القويم .

والمقصود من هذا القول لهم توبيخهم وتقريعهم على ما كان يصدر منهم من إغواء الغافلين من الإنس .

وهنا يحكى القرآن رد الضالين من الإنس على هذا التوبيخ فيقول :
« وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » .

أى : وقال الذين أطاعوهم وانقادوا لهم من الإنس يا ربنا ، لقد استمتع بعضنا ببعض .

أى : انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على المفاسد وما يوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس ، حيث أطاعوهم واستجابوا لوسوستهم ، وخالفوا أمر ربهم .

وقال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس . أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة .

وقيل : استمتاع الإنس بالجن معناه أن الرجل فى الجاهلية كان إذا سافر فنزل بأرض قفراء خاف على نفسه من الجن فيقول . أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى جوارهم . وأما استمتاع الجن بالإنس فهو أنهم قالوا . سدنا الإنس حتى عاذوا بنا ، فيزدادون بذلك شرفا فى قومهم وعظما فى أنفسهم .

وقيل : استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة ، واستمتاع الجن بالإنس هو طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من المعاصى فصاروا كالرؤساء لهم .

والذى نراه . أن استمتاع الجن والإنس بالإنس بالجن يتناول كل ذلك ، حيث انتفع كل فريق من صاحبه باللذة العاجلة التى أوردته إلى سوء المصير .

وقولهم هذا ، هو تحسر منهم على حالهم ، إذ قالوه اعترافاً بما فعلوه من طاعة للشياطين واتباع الهوى ، وتكذيب أمر البعث .

وإنما قال الأتباع من الإنس هذا القول مع أن الخطاب موجه إلى المتبوعين من شياطين الجن ، للإيذان بأن شياطين الجن قد أفحموا . ولم يستطيعوا أن ينطقوا أو يجيبوا . ثم أتبعوا تحسرهم هذا بتحسر آخر وهو قولهم : « وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » .

أى : ها نحن يا ربنا قد استمتع بعضنا ببعض فى الدنيا عن طريق الشهوات المحرمة . واللذات الفانية القبيحة ، وها نحن قد وصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذى حددته لنا ، وهو يوم القيامة والجزاء . ونحن فى أقبح صورة وأسوأ عيش .

وهنا يأتيهم الرد الحاسم . والحكم النافذ من الله العلى الكبير . حيث يقول — سبحانه — « قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله » .

مثواكم : الثواء مع الإقامة مع الاستقرار . يقال : ثوى يثوى ثواء أى : استقر ، والثوية مأوى الغنم .

والمعنى : قال الله — تعالى — لهؤلاء الظالمين المسرفين على أنفسهم بارتكاب الموبقات : النار منزلكم ومحل إقامتكم الدائمة . فأنتم خالدون فيها فى كل وقت إلا فى وقت مشيئة الله بخلاف ذلك ، لأن الأمور كلها متروكة إليه ، وخاضعة لمشيئته .

والأرجح أن المراد بهذا الاستثناء وبنظائره فى آيات أخر ، المبالغة فى الخلود .

أى : أنه لاينتفى فى وقت ما إلا وقت مشيئته - تعالى - وهو سبحانه لا يشاء ذلك . فقد أخبر فى آيات متعددة من كتابه أن هؤلاء الكفار لايخرجون من النار أبدا .

وفى إيراد هذا المعنى بتلك الصورة ، بلاغ للناس بأن مرد الأمور كلها إلى مشيئة الله ، وأن خلود المشركين فى نار جهنم إنما هو بمحض مشيئته ،

ولو شاء غير ذلك ما خلدوا ، وفيه إلى جانب ذلك تنكيل آخر بهؤلاء الأشقياء لأنهم قد صاروا فى حيرة دائمة من أمرهم . تجعلهم مشتتين بين الطمع فى الخروج مما هم فيه ، واليأس منه .

وهذا التفسير للجملة الكريمة هو الذى نختاره ونرجحه ، وهناك وجوه أخرى فى تفسيرها منها ما ذهب إليه الزمخشرى حيث قال :

وقوله : « خالدين فيها إلا ماشاء الله » أى : يخلدون فى عذاب النار الأبد كله إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، أو أن يكون من قـــوله الموتور - أى المظلوم - الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب أن ينفس عن خناقه . أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئتُ ، علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنت والتشديد . فيكون قوله إلا إذا شئت من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع (١) .

ومنها : مانقل عن ابن عباس أنه - تعالى - استثنى قوما قد سبق فى علمه أنهم يدخلون فى الإسلام ، وهو مبنى على أن الاستثناء . ليس من الحكم وأن « ما » بمعنى « من » .

ومنها : أنهم تفتح لهم أبواب الجنة ويخرجون من النار فإذا توجهوا للدخول أغلقت فى وجوههم استهزاء بهم . فهم فيها إلا الوقت الذى يخرجون منها متجهين إلى الجنة حيث تقفل فى وجوههم ليكون ذلك أعظم فى حسرتهم .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٥

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا وقت مشيئة الله فناءها وزوال عذابها . وهى مسألة خلافية بين العلماء .

وهناك أقوال أخرى لا مجال لذكرها . والقول الذى نرجحه ونعتمده هو الذى سقناه أولا كما أشرنا إلى ذلك من قبل لأنه قول المحققين من العلماء ، ولأنه يتناسب مع ما يليق بذات الله من كمال قدرته . ونفاذ إرادته .

وجملة « إن ربك حكيم عليم » تسلية لبيان ما تقتضيه حكمته وإرادته . أى : إن ربك حكيم فى التعذيب والإثابة وفى كل أفعاله . عليم بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من جزاء .

ثم يعقب القرآن على هذا الاستمتاع المتبادل بين الضالين والمضلين من الجن والإنس فيقول : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

نولى : من الولاية بمعنى القرابة ، والنصرة ، والمحالفة وما إلى ذلك من أنواع الاتصال .

أى : ومثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نولى بعض الظالمين من الإنس بعضا آخر منهم بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات ، ويؤثرون فيهم بالإغواء . بسبب ما كانوا مستمرين على اكتسابه من الكفر والمعاصى .

قال الإمام الرازى : « لأن الجنسية علة الضم ، فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها فى الخبث . وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله فى النصرة والمعونة والتقوية .. ثم قال : والآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله - تعالى - يسلط عليهم ظالما مثلهم . فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم »(١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ١٥١ .

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم »(١) .

وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم . فقف وانظر فيه متعجبا .

فالآية الكريمة تصور لنا مشهدا واقعا فى حياة الأمم ، وهو أن الظالمين من الناس يوالى بعضهم بعضا ، ويناصر بعضهم بعضا ، بسبب ما بينهم من صلات فى المشارب والأهداف والطباع وأن الأمة التى لا تتمسك بمبدأ العدالة بل تسودها روح الظلم والاعتداء يكون حكامها عادة على شاكلتها لأن الحاكم الظالم لا يستطيع البقاء عادة فى مجتمع أفراده تسودهم العدالة والشجاعة فى الحق .

والآية فى الوقت ذاته تهدد الظالمين، وتتوعدهم بسوء المصير إذا لم يقلعوا عن ظلمهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويقيدوا أنفسهم بمبدأ العدالة ورعاية الحق ثم بعد هذا التعقيب بتلك الآية التى بينت طبيعة الأشرار يعود القرآن إلى سؤال الإنس والجن فيقول : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ؟

قال الإمام ابن جرير : وهذا خبر من الله ـ جل ثناؤه ـ عما هو قائل يوم القيامة ، لهؤلاء العادلين به من مشركى الإنس والجن، يخبر أنه ـ تعالى ـ يقول لهم : يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى يقول : يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهى إياكم على مواضع حججى ، وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى وتصديقى أنبيائى والعمل بأمرى والانتهاء

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٧ .

إلى حدودي . ويندرونكم لقاء يومكم هذا ، يقول: يحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وعقابي على معصيتكم إياي فتنتهوا عن معاصي ، وهذا من الله - تعالى - تقريع لهم وتوبيخ على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي ومعناه ، قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة ، ويتذرونكم وعيد الله ، فلم تقبلوا ولم تتذكروا »(١) .

وقوله « رسل منكم » استدل به من قال إن الله قد أرسل رسلا من الجن إلى أبناء جنسهم إلا أن جمهور العلماء يخالفون ذلك ويرون أن الرسل جميعا من الإنس ، وإنما قيل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله: « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرجان من أحدهما وهو الماء الملح دون العذب .

قال أبو السعود : والمعنى: ألم يأتكم رسل من جملتكم : لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصة ، وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم ، والايذان بتقاربهما ذاتا ، واتحادهما تكليفا وخطابا . كأنهما من جنس واحد ، ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر ، وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل ، وقد ثبت أن الجن استمعوا إلى النبي - ﷺ - وأنذروا بما سمعوه أقوامهم ، إذ حكى القرآن عنهم أنهم « ولوا إلى قومهم منذرين » وانهم قالوا لهم : « إنا سمعنا قرآنا عجبا(٢) » .

وقال صاحب المنار ، وجملة القول في الخلاف أنه ليس في المسألة نص قطعي ، والظواهر التي استدل بها الجمهور يحتمل أن تكون خاصة برسل الإنس ، لأن الكلام معهم ، وليست أقوى من ظاهر ما استدل به من قال إن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١٣٧ .

الرسل من الفريقين . والجن عالم غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص . وقد دل القرآن وكذا السنة على رسالة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — إليهم ، فنحن نؤمن بما ورد ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله — تعالى —(١) » .

ثم يحكى القرآن أنهم قد شهدوا على أنفسهم بالكفر فقال : قالوا شهدنا على أنفسنا ، أن الرسل قد بشرونا وأنذرونا ، ولم يقصروا فى تبليغنا وإرشادنا .

وقوله - سبحانه - « وغرتهم الحياة الدنيا »أى غرهم متاع الحياة الدنيا من الشهوات والمال والجاه وحب الرياسة ، فاستحبوا العمى على الهدى ، وباعوا آخرتهم بدنياهم . « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين »أى : شهدوا على أنفسهم عندما وقفوا بين يدى الله للحساب فى الآخرة أنهم كانوا كافرين فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما لهم مقرين فى هذه الآية — على أنفسهم بالكفر - جاحدين فى قوله « والله ربنا ما كنا مشركين » ؟ قلت . يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة فتارة يقرون واخرى يجحدون ، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب احوالهم ، فإن من عظم خوفه كثر الاضطراب فى كلامه . أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم . فإن قلت : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت : الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ، والثانية : ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة وكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر ،

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ١٠٧ .

والاستسلام لربهم ، واستيعاب ع ابه ، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم(١) » .

هذا ، وإنك لتقرأ هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التى تصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة فيخيل إليك أنك أمام مشهد حاضر أمام عينيك ترى فيه الظالمين وحسراتهم ، والضالين والمضلين وهم يتبادلون التهم وذلك من إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا .

ثم يحدثنا القرآن بعد ذلك عن عدالة الله فى أحكامه ، وعن سعة غناه ورحمته ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء مصير الكافرين فيقول :

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٦ .

قال الآلوسى : «ذلك» إشارة إلى إتيان الرسل ، أو السؤال المفهوم من «ألم يأتكم» ، أو ماقص من أمرهم أعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر وهو إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أى : الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره مقدر ، أو خبره قوله ـ سبحانه ـ «إن لم يكن ربك مهلك القرى» بحذف اللام على أن «أن» مصدرية ، أو مخففة من أن وضمير الشأن إسمها .

وإما منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر كخذ ذلك ، أو فعلنا ذلك.

وفى قوله «بظلم» متعلق بمهلك أى : بسبب ظلم . أو بمحذوف وقع حالا من القرى أى : ملتبسة بظلم ...»(١) .

والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لك يا محمد من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله ، سببه أن ربك لم يكن من شأنه ولا من سننه فى تربية خلقه أن يهلك القرى من أجل أى ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه ، وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين ، فربك لايظلم ، ولا يعذب أحداً وهو غافل لم ينذر قال ـ تعالى ـ «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وقال ـ تعالى ـ «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» .

فالآية الكريمة صريحة فى أن ـ سبحانه ـ قد أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الدرجات إنما هى على حسب الأعمال فقال ـ تعالى ـ «ولكل درجات مما عملوا» أى : ولكل من المكلفين جنا كانوا أو إنسا درجات أى منازل ومراتب «مما عملوا» أى : من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم إذ الجزاء من جنس العمل والعمل متروك للناس يتسابقون فيه ، والجزاء ينتظرهم عادلا لا ظلم فيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٨٨ .

« وما ربك بغافل عما يعملون » بل هو عالم بأعمالهم ومحصيها عليهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم صرح — سبحانه — بغناه عن كل عمل وعن كل عامل ، وبأنه هو صاحب الرحمة الواسعة ، والقدرة النافذة فقال : « وربك الغنى ذو الرحمة » .

أى : وربك يا محمد هو الغنى عن جميع خلقه من كل الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، وهو وحده صاحب الرحمة الواسعة العامة التى شملت جميع خلقه .

والجملة الكريمة تفيد الحصر . وقوله : وربك مبتدأ ، والغنى خبره ، وقوله « ذو الرحمة » خبر بعد خبر . وجوز أن يكون هو الخبر و« الغنى » صفة لربك .

وفى هذه الجملة تنبيه إلى أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل وغيره ، ليس لنفعه — سبحانه — ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله بعد ذلك « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » أى : أنه — سبحانه — إن يشأ إذهابكم أيها الناس بالإهلاك لفعل ذلك فهو قدير على كل شىء وعلى أن ينشىء بعد إذهابكم ما يشاء من الخلق الذين يعملون بطاعته ، ولا يكونون أمثالكم .

والكاف فى قوله : « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » فى موضع نصب والمعنى : إن الله — تعالى — قادر على أن يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافا مثل ما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . ونظيره قوله — تعالى — « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً » ، وقوله « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » .

ثم بين — سبحانه — أن أمر البعث والحساب كائن لا ريب فيه فقال : « إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

أى : «إن ما توعدون من أمر القيامة والحساب ، والعقاب والثواب لواقع لاشك فيه ، وما أنتم بمعجزين ، أى : بجاعليه عاجزا عنكم ، غير قادر على إدراككم . من أعجزه بمعنى جعله عاجزا . أو : بفائتين العذاب ، من أعجزه الأمر . إذ فاته . أى لا مهرب لكم من عذابنا بل هو مدرككم لا محالة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن ينفض يده من هؤلاء المشركين ، وان يتركهم لأنفسهم . وأن ينذرهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم فقال - تعالى - « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون . من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المصرين على كفرهم اعملوا على غاية تمكنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم . مصدر مكن - ككرم - مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن وأقواه ، أو المعنى اعملوا على جهتكم وأثبتوا على كفركم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم . مكان ومكانة كمقام ومقامة .

قال الزمخشرى : يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة مكانتك يافلان أى : أثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه .

والأمر للتهديد والوعيد ، وإظهار ما هو عليه (صلى الله عليه وسلم) فى غاية التصلب فى الدين ، ونهاية الوثوق بأمره ، وعدم المبالاة بأعدائه أصلا.

وقوله « إنى عامل فسوف تعلمون» أى : إنى عامل على مكانتى ، ثابت على الإسلام لا أتزحزح عن الدعوة إليه ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدنيا .

وقوله : « فسوف تعلمون » بجانب إفادته للإنذار ، فيه إنصاف فى المقال ، وحسن أدب فى الخطاب ، حيث لم يقل - مثلا - العاقبة لنا ، وإنما فوض الأمر إلى الله ، فهو كقوله - تعالى - « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه على الحق .

قال الجمل ـ وسوف لتأكيد مضمون الجملة ، وهذه الجملة . تعليل لما قبلها والعلم عرفان ، ومن استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وخبرها جملة تكون ، وهي مع خبرها في محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون . أي : فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق الله هذه الدار لها ، ويجوز أن تكون موصولة فيكون محلها النصب على أنها مفعول لتعلمون . أي : فسوف تعلمون الذي له عاقبة الدار »(١) .

ثم ختمت الآية بقوله — تعالى — « إنه لا يفلح الظالمون » أي : لن يظفروا بمطلوبهم بسبب ظلمهم ، وقيل المراد بالظلم هنا الكفر ، ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أي فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذي هو أعظم أفراده .

قال ابن كثير ، وقد أنجز الله موعوده لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمكن له في البلاد ، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب . ، وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته . قال ـ تعالى ـ « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(٢)

ثم تبدأ السورة بعد ذلك حديثاً مستفيضاً عن أوهام المشركين وجهالاتهم التي تتعلق بمآكلهم ، ومشاربهم ، ونذورهم ، وذبائحهم ، وعاداتهم البالية ، وتقاليدهم الموروثة ، فتناقشهم في كل ذلك مناقشة منطقية حكيمة ، وترد عليهم فيما أحلوه وحرموه بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وترشدهم إلى الطريق السليم الذي من الواجب عليهم أن يسلكوه . . استمع إلى سورة الأنعام وهي تحكي كل ذلك في بضع عشرة آية بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول:

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٩٣

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٩

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا
لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ
أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم
بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ
وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا
كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

لقد حكت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التى كانت متفشية فى المجتمع الجاهلى ، أما الرذيلة الأولى فلخصها أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا لله ونصيباً لأوثانهم ، فيشركونها فى أموالهم ،

فما كان لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما كان للأوثان أنفقوه عليها وعلى سدنتها فإذا رأوا ما جعلوه لله أزكى بدلوه بما للأوثان، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها.

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً».

«ذرأ» بمعنى خلق. يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً أي: خلقهم وأوجدهم وقيل. الذرأ الخلق على وجه الاختراع.

أي: وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه الله — تعالى — من الزروع والأنعام نصيباً لله يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم، وجعلوا لأصنامهم نصيباً آخر يقدمونه لسدنتها، وإنما لم يذكر النصب الذى جعلوه لأصنامهم اكتفاء بدلالة ما بعده وهو قوله: «فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا».

أي: فقالوا فى القسم الأول: هذا لله نتقرب به إليه، وقالوا فى الثانى: وهذا لشركائنا نتوسل به إليها.

وقوله — تعالى — فى القسم الأول «هذا لله بزعمهم» أي: بتقولهم ووضعهم الذى لا علم لهم به ولا هدى.

قال الجمل: ومن المعلوم أن الزعم هو الكذب، وإنما نسبوا الكذب فى هذه المقالة مع أن كل شيء لله، لأن هذا الجعل لم يأمرهم به الله وإنما هو مجرد اختراع منهم (١).

وقال أبو السعود: وإنما قيد الأول بالزعم للتنبيه على أنه فى الحقيقة جعل لله — تعالى — غير مستتبع لشيء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله — لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، فإن ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى، ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لا يعملون بمقتضاه

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٩٣

الذى هو اختصاصه — تعالى — به (١) .

ثم فصل - سبحانه - ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسمة فقال : « فما كان لشركائهم فلا يصل الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » .

أى : فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذى يتقرب به إلى شركائهم ، فإنهم يحرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى الله منه شيء ، وما كان منها من القسم الذى يتقرب به إلى الله عن طريق إكرام الضيف والصدقة ، فإنهم يجورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لسدنة الأصنام وخدامها.

فهم يجعلون قسم الأصنام لسدنتها وأتباعها وحدهم ، بينما القسم الذى جعلوه لله بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه فى غير موضعه ، ويقولون : إن الله غنى وإن آلهتنا محتاجة .

وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله : « ساء ما يحكمون » أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقا عاجزا عن كل شيء ، على خالق قادر على كل شيء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا فى القسمة.

هذه هى الرذيلة الأولى من رذائلهم ، أما الرذيلة الثانية فهى أن كثيرا منهم كانوا يقتلون أولادهم ، ويئدون بناتهم لأسباب لا تمت إلى العقل السليم بصلة وقد حكى القرآن ذلك فى قوله .

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » .

أى : ومثل ذلك التزيين فى قسمة الزروع والأنعام بين الله والأوثان ، زين للمشركين شركاؤهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار أو الفقر فأطاعوهم فيما أمروهم به من المعاصى والآثام .

والتزيين : التحسين ، فمعنى تزيينهم لهم أنهم حسنوا لهم هذه الأفعال القبيحة ، وحضوهم على فعلها .

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٩٣

سموا شركاء لأنهم اطاعوهم فيما امروهم به من قتل الأولاد، فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم ، أو سموا شركاء لأنهم كانوا يشاركون الكفار فى أموالهم التى منها الحرث والأنعام .

و « شركاؤهم » فاعل « زين » وأخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدم واهتماما به ، لأنه موضع التعجب .

وقوله : « ليردوهم » أى ليهلكوهم ؛ من الردى وهو الهلاك . يقال ردى — كرضى — أى : هلك .

وقوله : « وليلبسوا عليهم دينهم » معطوف على ليردوهم ، أى : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل - عليه السلام - حتى زالوا عنه إلى الشرك .

ويلبسوا مأخوذ من اللبس بمعنى الخلط بين الأشياء التى يشبه بعضها بعضاً وأصله الستر بالثوب ، ومنه اللباس ، ويستعمل فى المعانى فيقال : لبس الحق بالباطل يلبسه ستره به . ولبست عليه الأمر . خلطته عليه وجعلته مشتبها حتى لا يعرف جهته ، فأنت ترى أن شركاءهم قد حسنوا لهم القبيح من أجل أمرين: إهلاكهم وإدخال الشبهة عليهم فى دينهم عن طريق التخليط والتلبيس.

ثم سلى الله — تعالى — نبيه صلى الله عليه وسلم — وهدد أعداءه فقال : « ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

أى . ولو شاء الله الا يفعل الشركاء ذلك التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات بسبب ما يفعلونه ، بل دعهم وما يفترونه من الكذب ، فإنهم لسوء استعدادهم آثروا الضلالة على الهداية .

والفاء فى قوله « فذرهم » فصيحة . أى: إذا كان ما قصصناه عليك بمشيئة الله ، فدعهم وافتراءهم ولا تبال بهم ، فإن فيما يشاؤه الله حكما بالغة .

ثم حكى القرآن رذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة ، وهى أن أوهام الجاهلية وضلالاتها ساقتهم إلى عزل قسم من أموالهم لتكون حكرا على آلهتهم بحيث

لا ينتفع بها أحد سوى سدنتها ، ثم عمدوا إلى قسم من الأنعام فحرموا ركوبها وعمدوا إلى قسم آخر فحرموا أن يذكر اسم الله عليها عند ذبحها أو ركوبها إلى آخر تلك الأوهام المفتراة .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ... » .

حجر : بمعنى المحجور أي : الممنوع من التصرف فيه ، ومنه قيل للعقل حجر لكون الإنسان فى منع منه مما تدعوه إليه نفسه من آثام .

أى : ومن بين أوهام المشركين وضلالاتهم أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع محجورة علينا أى : محرمة ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء يعنون : خدم الأوثان والرجال دون النساء أى : لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقط .

وقوله : « بزعمهم » متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قالوا . أى : قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

وقوله : « وقالوا هذه الإشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ، والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله : أنعام وحرث وقوله « حجر » صفة لأنعام وحرث ، وقوله « لا يطعمها » صفة ثانية لأنعام وحرث .

هذا هو النوع الأول الذى ذكرته الآية من أنواع ضلالاتهم ، أما النوع الثانى فهو قوله - تعالى - « وأنعام حرمت ظهورها » أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها ، يعنون بها البحائر والسوائب والوصائل والحوامى (١) التى كانوا

(١) البحيرة : الناقة التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم والسائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت فى الحرب أو نذرها للأصنام.

والوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى كانوا يتركونها للأصنام والحام : اسم الفحل إذا لقح ولد ولده قالوا حمى ظهره فلا يركب ويترك حتى يموت

يزعمون أنها تعتق وتقضى لأجل الآلهة . فقوله «وأنعام» خبر لمبتدأ محذوف والجملة معطوفة على قوله (هذه أنعام) وأما النوع الثالث من أنواع اختراعاتهم الذى ذكرته الآية فهو قوله : (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) .

أى : وقالوا أيضاً هذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها عند الذبح ، وإنما يذكر عليها أسماء الأصنام لأنها ذبحت من أجلها .

وقد عقب ـ سبحانه ـ على تلك الأقسام الثلاثة الباطلة بقوله : (افتراء عليه) أى فعلوا ما فعلوا من هذه الأباطيل وقالوا ما قالوا من تلك المزاعم من أجل الافتراء على الله وعلى دينه ، فإنه ـ سبحانه ـ لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم .

ثم ختمت الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال : ـ سبحانه ـ (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى : سيجزيهم الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح

ثم يحكى القرآن الرذيلة الرابعة من رذائلهم وملخصها : أنهم زعموا أن الأجنة التى فى بطون هذه الأنعام المحرمة ، ما ولد منها حياً فهو حلال للرجال ومحرم على النساء ، وما ولد ميتاً اشترك فى أكله الرجال والنساء .

استمع إلى القرآن وهو يفضح زعمهم هذا فيقول : (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) ومرادهم بما فى بطون هذه الأنعام أجنة البحائر والسوائب .

أى : ومن فنون كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون هذه الأنعام المحرمة إذا نزل منها حياً فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتاً فأكله حلال للرجال والنساء على السواء .

وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المراد بما فى بطونها اللبن ، فقد كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

قال بعضهم : «ومن مباحث اللفظ فى الآية أن قوله «خالصة» فيه وجوه: أحدها أن التاء قيد للمبالغة فى الوصف كراوية وداهية فلا يقال إنه غير مطابق للمبتدأ على القول بأنه خبر. وثانيا : أن المبتدأ وهو «مافى بطون هذه الأنعام» مذكر اللفظ مؤنث المعنى، لأن المراد به الأجنة فيجوز تذكير خبره باعتبار اللفظ وتأنيثه باعتبار المعنى. وثالثها : أنه مصدر فتكون العبارة مثل قولهم : عطاؤك عافية، والمطر رحمة والرخصة نعمة. ورابعها: أنه مصدر مؤكد أو حال من المستكن فى الظرف وخبر المبتدأ «لذكورنا» (١).

وقوله : «سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم» تهديد لهم أى : سيجزيهم بما هم أهله من العذاب المهين جزاء وصفهم أو بسبب وصفهم الكذب على الله فى أمر التحليل والتحريم على سبيل التحكم والتهجم بالباطل على شرعه. إنه — سبحانه — حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه، عليم بأعمال عباده من خير أو شر وسيجازيهم عليها.

قال الآلوسى : ونصب «وصفهم» - على ماذهب إليه الزجاج - لوقوعه موقع مصدر «يجزيهم» فالكلام على تقدير مضاف. أى : جزاء وصفهم. وقيل . التقدير . سيجزيهم العقاب بوصفهم أى : بسببه فلما سقطت الباء نصب وصفهم.

ثم قال . وهذا كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه، فإنهم يقولون، كلامه يصف الكذب إذا كذب، وعينه تصف السحر، أى ساحرة. وقده يصف الرشاقة، بمعنى رشيق. مبالغة، حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له» (٢).

وإلى هنا تكون الآيات الأربعة التى بدأت بقوله - تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً.. الخ» قد قصت علينا أربع رذائل من أفعال المشركين وأقوالهم.

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ١٢٩

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٢٦

وإن العاقل ليعجب وهو يستعرض هذه الضلالات - التى حكتها الآيات . يعجب لما تحملوه فى سبيل ضلالاتهم من أعباء مادية وخسائر وتضحيات ، يعجب للعقيدة الفاسدة وكيف تكلف أصحابها الكثير ومع ذلك فهم مصرون على اعتناقها ، وعلى التقيد بأغلالها ، وأوهامها ، وتبعاتها

لكأن القرآن وهو يحكى تلك الرذائل وما تحمله أصحابها فى سبيلها يقول لأتباعه — من بين ما يقول - إذا كان أصحاب العقائد الفاسدة قد ضحوا حتى بفلذات أكبادهم إرضاء لشركائهم .. فأولى بكم ثم أولى أن تضحوا فى سبيل عقيدتكم الصحيحة ، وملتكم الحنيفة السمحاء بالأنفس والأموال .

هذا وقد عقب القرآن الكريم بعد إيراده لتلك الرذائل بقوله .

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله » .

قال الإمام ابن كثير : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا على أنفسهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما فى الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم » (١) .

والتعبير بخسر بدون ذكر مفعول معين يقع عليه الفعل للإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أى تحديد ، فهى خسارة دينية وخسارة دنيوية — كما قال ابن كثير .

وقرأ ابن عامر « قتلوا » بالتشديد . أى : فعلوا ذلك كثيراً ، إذ التضعيف يفيد التكثير .

و « سفها » منصوب على أنه علة لقتلوا أى : لخفة عقولهم وجهلهم قتلوا أولادهم . أو منصوب على أنه حال من الفاعل فى قتلوا وهو ضمير الجماعة .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨١

والسفه : خفة فى النفس لنقصان العقل فى أمور الدنيا أو الدين .

وقوله « وحرموا ما رزقهم الله » أى من البحائر والسوائب ونحوها ، وهو معطوف على « قتلوا » .

ثم بين — سبحانه — نتيجة ذلك القتل والتحريم فقال : « قد ضلوا وما كانوا مهتدين » أى : قد ضلوا عن الصراط المستقيم بأقوالهم وأفعالهم القبيحة وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب .

قال الشهاب ، وفى قوله « وما كانوا مهتدين » بعد قوله « قد ضلوا مبالغة فى نفى الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال بعد أن لم يكن . فلذا أردف بهذه الحال لبيان عراقتهم فى الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض » (١) .

روى البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) (٢) .

ثم بين — سبحانه — أنه هو الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة ، وأن من الواجب عليهم أن يستعملوا نعم الله فيما خلقت له فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٦ ص ٢٥٢٤

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨١

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ
وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ
كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ
إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ
إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله - تعالى - « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معرشات » .
أنشأ : أى أوجد وخلق . والجنات : البساتين والكروم الملتفة الأشجار .
ومعروشات : أصل العرش فى اللغة شىء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه
عروش ، يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً من بابى — ضرب ونصر — ،
وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف . فالمادة تدل على الرفع ومنها عرش
الملك . قال ابن عباس : المعروشات . ما انبسط على الأرض وانبسط من

الزروع مما يحتاج إلى أن يتخذله عريش يحمل عليه، كالكرم والبطيخ والقرع ونحو ذلك. وغير المعروشات ماقام على ساق واستغنى باستوائه وقوة ساقه عن التعريش كالنخل والشجر.

وقيل المعروشات وغير المعروشات كلاهما فى الكرم خاصة، لأن منه ما يعرش ومنه مالا يعرش بل يبقى على وجه الأرض منبسطا.

وقيل المعروشات ماغرسه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم أوغيره، وغير المعروشات هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم وشجر.

أى: وهو سبحانه الذى أوجد لكم هذه البساتين المختلفة التى منها المرفوعات عن الأرض، ومنها غير المرفوعات عنها، فخصوه وحده بالعبادة والخضوع.

وقوله: «والنخل والزرع مختلفا أكله» عطف على جنات، أى: أنشأ جنات، وأنشأ النخل والزرع، والمراد بالزرع جميع الحبوب التى يقتات بها.

وإنما أفردهما مع أنهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة على سائر ما ينبت فى الجنات.

و «مختلفا أكله» أى، ثمره وحبه فى اللون والطعم والحجم والرائحة.

والضمير فى أكله راجع إلى كل واحد منهما. أى: النخل والزرع والمراد بالأكل المأكول أى، مختلف المأكول فى كل منهما فى الهيئة والطعم.

قال الجمل: وجملة. «مختلفا أكله» حال مقدرة، لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفا أو متفقا، فهو مثل قولهم: مررت برجل معه صقر صائداً له غدا».

وقوله: «والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه» أى: وأنشأ الزيتون والرمان متشابها فى المنظر وغير متشابه فى الطعم أو متشابها بعض أفرادهما فى اللون أو الطعم أو الهيئة «وغير متشابه فى بعضها.

قال القرطبى: وفيه أدلة ثلاثة، أحدها: ما تقدم من قيام الدليل على أن

المتغيرات لا بد لها من مغير ، الثانى : على المنة منه — سبحانه — علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم ، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ، لأنه لا يجب عليه شيء .

الثالث : على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من صفته : الجرم الوافر ، واللون الزاهر ، والجنى الجديد ، والطعم اللذيذ ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأسسها ، هل هى فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان أو ترتب هذا الترتيب العجيب . كلا ، لا يتم ذلك فى المعقول إلا لحى قادر عالم مريد ، وسبحان من له فى كل شيء آية ونهاية .

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب ، وأشركوا معه وحللوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء ، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم»(١) .

ثم ذكر — سبحانه — المقصود من خلق هذه الأشياء فقال : «كلوا من ثمره إذا أثمر» أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التى انشأناها لكم ، شاكرين الله على ذلك . والأمر للإباحة . وفائدة التقييد بقوله «إذا أثمر» إباحة الأكل قبل النضوج والإدراك .

وقيل فائدته : الترخيص للمالك فى الأكل من قبل أداء حق الله تعالى لأنه لما أوجب الحق فيه ربما يتبادر إلى الأذهان أنه يحرم على المالك تناول شيء منه لمكان شركة المساكين له فيه ، فأباح الله له هذا الأكل .

ثم أمرهم - سبحانه - بأداء حقوق الفقراء والمحتاجين مما رزقهم فقال :

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٩٩ .

« وآتوا حقه يوم حصاده » أى ، كلوا من ثمر ما أنشأنا لكم ، وأدوا حق الله فيه للفقراء والمحتاجين يوم حصاده .

ويرى بعض العلماء أن المراد بهذا الحق الصدقة بوجه عام على المستحقين لها ، بأن يوزع صاحب الزرع منه عند حصاده على المساكين والبائسين ما يسد حاجتهم بدون إسراف أو تقتير .

وأصحاب هذا الرأى فسروا هذا الحق بالصدقة الواجبة من غير تحديد للمقدار وليس بالزكاة المفروضة لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة .

وهم يرون أن هذا الحق لم ينسخ بالزكاة المفروضة ، بل على صاحب الزرع أن يطعم منه المحتاجين عند حصاده .

ويرى بعض آخر من العلماء أن المراد بهذا الحق ما فصلته السنة النبوية من الزكاة المفروضة وهذه الآية مدنية وإن كانت السورة مكية .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأنه لا دليل على أن هذه الآية مدنية ولأن فرضية الزكاة لا تمنع إعطاء الصدقات ، وفى الأمر بإيتاء هذا الحق يوم الحصاد ، مبالغة فى العزم على المبادرة إليه .

والمعنى : اعزموا على إيتاء هذا الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

وقيل . إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على أصحاب الزروع حتى لا يحسب عليهم ما أكل قبله .

ثم ختمت الآية بالنهى عن الإسراف فقالت ، « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . أى لا تسرفوا فى أكلكم قبل الحصاد ولا فى صدقاتكم ولا فى أى شأن من شئونكم ، لأنه — سبحانه — لا يحب المسرفين .

وقال ابن جريج ، نزلت فى ثابت بن قيس ، قطع نخلا له فقال . لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت هذه الآية .

وقال عطاء ، نهوا عن السرف فى كل شيء .

وقال إياس بن معاوية . ماجاوزت به أمر الله فهو سرف .

ثم بين — سبحانه — حال الأنعام ، وأبطل ما تقولوه عليه فى شأنها بالتحريم والتحليل فقال . « ومن الأنعام حمولة وفرشا » .

الحمولة ، هى الأنعام الكبار الصالحة للحمل . والفرش هى صغارها الدانية من الأرض ، مثل الفرش المفروش عليها .

وقيل الحمولة كل ما حمل عليه من إبل وبقر وبغل وحمار . والفرش ما اتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش .

أى : وأنشأ لكم — سبحانه — من الأنعام حمولة وهى ماتحملون عليه أثقالكم ، كما أنشأ لكم منها فرشا وهى صغارها التى تفرش للذبائح من الضأن والمعز والإبل والبقر .

والجملة معطوفة على جنات ، والجهة الجامعة بينهما إباحة الانتفاع بهما .

وقوله « كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

أى : كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار والزروع والأنعام وغيرها ، وانتفعوا منها بسائر أنواع الانتفاع المشروعة ، ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه فى التحريم والتحليل كما اتبعها أهل الجاهلية ، إذ حرموا مارزقهم الله افتراء عليه ، إن الشيطان عداوته ، ظاهرة واضحة لكم ، فهو يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويطهر قلوبكم ، فالجملة الكريمة « إنه لكم . . . » تعليل للنهى عن اتباع خطوات الشيطان .

ثم بين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من جهالات ، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة منطقية حكيمة فقال :

« ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . . . »

وقوله — سبحانه — « ثمانية أزواج » بدل من «حمولة وفرشا » بناء على كونهما قسمين لجميع الأنعام على الراجح ، وقيل أن لفظ ثمانية منصوب بفعل مضمر أى : وأنشأ لكم ثمانية أزواج ، أو هو مفعول به لفعل «كلوا» وقوله « ولا تتبعوا . . الخ » معترض بينهما .

والزوج يطلق على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الإثنين فهو مشترك والمراد هنا الاطلاق الأول

والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله لكم ، لتنتفعوا بها أكلا وركوبا وحملا وحلبا وغير ذلك .

ثم فصل الله - تعالى - هذه الأزواج الثمانية فقال : «من الضأن اثنين » أى . من الضأن زوجين اثنين هما الكبش والنعجة ، « ومن المعز اثنين » أى . ومن المعز زوجين اثنين هما التيس والعنز .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يبكتهم على جهلهم فقال «قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين » .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزامهم الحجة . أحرم الله الذكرين وحدهما من الضأن والمعز أم الأنثيين وحدهما ، أم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء أكانت تلك الأجنة ذكوراً أم إناثا ؟

وقوله : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين» أى : أخبرونى بأمر معلوم من جهته — تعالى — جاءت به الأنبياء ، يدل على أنه — سبحانه — قد حرم شيئاً مما حرمتموه إن كنتم صادقين فى دعوى التحريم .

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض .

وقوله — تعالى — « ومن الإبل اثنين » عطف على قوله « من الضأن اثنين » أى : وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة « ومن البقر اثنين » هما الثور وأنثاه البقرة .

«قل، إفحاما فى أمر هذين النوعين أيضاً «آلذكرين حرم» الله - تعالى- منهما ، «أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين، من ذينك النوعين ؟

قال الآلوسى : والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء : إنكار ان الله - تعالى - حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث ومافى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم ، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة . وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين ذلك كله إلى الله — سبحانه — .

ثم قال : وإنما لم يل المنكر - وهو التحريم - الهمزة ، والجارى فى الاستعمال أن ما ينكر وليها لأن ما فى النظم الكريم أبلغ .

وبيانه - على ماقاله السكاكى - أن إثبات التحريم يستلزم إثبات محله لامحالة ، فإذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم على وجه برهانى .كأنه وضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد تم طالبه ببيان محله كى يتبين كذبه ، ويفتضح عند الحاجة .

وإنما لم يورد — سبحانه — الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة ، بأن يقال : قل آلذكور حرم أم الإناث أما اشتملت عليه أرحام الإناث ، لما فى التكرير من المبالغة أيضا فى الإلزام والتبكيت »(١) .

وقوله — تعالى — (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) تكرير للإفحام والتبكيت .

أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم ؟ لا ، ما كنتم حاضرين فمن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة ؟

فالجملة الكريمة تبكتهم غاية التبكيت على جهالاتهم وافترائهم الكذب على الله ، والاستفهام فى قوله — تعالى - (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٤١

ليضل الناس بغير علم) للنفي والإنكار .

أي : لا أحد أشد ظلماً من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم إليه — سبحانه — تحريم ما لم يحرمه لكي يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقوله ، (بغير علم) متعلق بمحذوف حال من فاعل افترى ، أي : افترى عليه — تعالى — جاهلا بصدور التحريم .

وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفترى عالم بعدم الصدور ، إيذاناً بخروجه في الظلم عن الحدود والنهايات ، لأنه إذا كان المفترى بغير علم يعد ظالماً فكيف بمن يفترى الكذب وهو عالم بذلك .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) أي لا يهديهم إلى طريق الحق بسبب ظلمهم ، وإيثارهم طريق الغي على طريق الرشد .

هذا ، والمتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يراهما قد ردتا على المشركين بأسلوب له - مع سهولته وتأثيره - الطابع المنطقي الذي يزيد المؤمنين إيماناً بصحة هذا الدين ، وصدق هذا القرآن ، ويقطع على المعارضين والملحدين كل حجة وطريق .

وتقرير ذلك - كما قال بعض العلماء - أن تطبق قاعدة (السبر والتقسيم) فيقال ، إن الله - تعالى - خلق من كل صنف من المذكورات نوعين : ذكراً وأنثى ، وأنتم أيها المشركون حرمتم بعض هذه الأنعام ، فلا يخلو الأمر في هذا التحريم من :

١ — أن يكون تحريماً معللا بعلة .

٢ — أو أن يكون تحريماً تعبدياً ملقى من الله — تعالى — .

ولا جائز أن يكون تحريماً معللا ، لأن العلة إن كانت هي (الذكورة) فأنتم أبحتم بعض الذكور وحرمتم بعضا ، فلم تجعلوا الأمر في الذكورة مطرداً وإن كانت العلة هي (الأنوثة)فكذلك الأمر : حيث حرمتم بعض الإناث أو حللتم بعضا ، فلم تطرد العلة ، ومثل هذا يقال إذا جعلت العلة هي اشتمال

الرحم من الأنثى على النوعين ، لأنها حينئذ تقتضى أن يكون الكل حراما فلماذا أحلوا بعضه .

وهذا كله يؤخذ من قوله ـ تعالى ـ « قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين » .

فبطل إذن أن يكون التحريم معللا .

ولا جائز أن يكون التحريم تعبديا لا يدرى له علة ، أى:مأخوذ عن الله ، لأن الأخذ عن الله إما بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به ، وقد أنكر هذا عليهم بقوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » وإما أن يكون برسول أبلغهم ذلك ، وهم لم يأتهم رسول بذلك ، وفى هذا يقول ـ جل شأنه متحديا لهم « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » .

وإذن فما قالوه من التحريم إنما هو افتراء وضلال «(١) .

ثم أمر الله ــ تعالى ــ رسوله ــ ﷺ ــ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم ، وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء محض ـ بعد كل ذلك أمره بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال :

---

(١) سورة الانعام والأهداف الأولى للاسلام ص ٨٣ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى .

قُلْ لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

أى : «قل» يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما «لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه».

أى : لا أجد فيما أوحاه الله إلى من القرآن طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى رداً على قولهم «محرم على أزواجنا».

والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم.

و «محرما» صفة لموصوف محذوف، أى : شيئاً محرما، أو طعاما محرما، وهو المفعول الأول لأجد، أما المفعول الثانى فهو «فيما أوحى إلى» قدم للاهتمام به.

وقوله «يطعمه» فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعا للمجاز كما فى قوله «ولا طائر يطير بجناحيه».

ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال: «إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا ، أهل لغير الله به .

أى : لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئاً محرما من المطاعم إلا أن يكون هذا الشىء أو ذلك الطعام « ميتة » أى : بهيمة ماتت حتف أنفها .

« أو دما مسفوحا » أى : دما مصبوبا سائلا كالدم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه ، لا الدم الجامد كالكبد والطحال ، والسفح ، الصب والسيلان .

« أو لحم خنزير فإنه » أى اللحم لأنه المحدث عنه ، أو الخنزير لأنه الأقرب أو جميع ماذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير .

« رجس » أى : قذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان « أو فسقا أهل لغير الله به » أى : خروجا عن الدين ، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاغوت أو نحو ذلك .

والإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا ، ومنه إهلال الصبى ، والإهلال بالحج ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ماقربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالا .

وإنما سمى « ما أهل به لغير الله » فسقا ، لتوغله فى باب الفسق ، والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله - تعالى - « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » .

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال : « فمن اضطر » :

أى : فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء مما ذكر ، بأن ألجىء بإكراه أو جوع مهلك - مع فقد الحلال - إلى أكل شىء من هذه المحرمات التى كانوا فى الجاهلية يستحلونها ، فلا إثم عليه فى أكلها .

واضطر : مأخوذ من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء ، يقال : اضطره إليه ، أي أحوجه والجأه فاضطر .

ثم قيد - سبحانه - حالة الاضطرار بقوله : غير باغ ولا عاد » :
أي : فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغ فى أكله ، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره . أو غير طالب له للذته ، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر .

أو حالة كونه - أيضاً - غير عاد فيما يأكل ، أى : غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال .

وباغ : مأخوذ من البغاء وهو الطلب تقول : بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى : طلبته .

وعاد : اسم فاعل بمعنى متعد ، تقول: فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد ، ومنه قوله - تعالى - « بل أنتم قوم عادون » .

وقوله « فإن ربك غفور رحيم » أى : فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين ، ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم ، وإنما هو رءوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر .

والجملة الكريمة جواب الشرط باعتبار لازم المعنى وهو عدم المؤاخذة . وقيل جواب الشرط محذوف : أى فمن اضطر ، فلا مؤاخذة عليه وهذه الجملة تعليل له .

هذا ، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها .

قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر - تعالى - رسوله أنه لا يجد فيه أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وأن الذى حرمه هو الميتة وماذكر معها وماعدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله — تعالى — ! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا . كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير » (١) .

وقال القرطبي : والآية مكية ، ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، وقد اختلف العلماء فى حكم هـذه الآية وتأويلها على أقوال : الأول ، ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء فى الكتاب مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه . على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر » (٢) .

والخلاصة : أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين ، وذلك أن الكفار . كما قال الإمام الشافعى - لما حرموا ما أحل الله واحلوا ماحرمه الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال - سبحانه - لا حلال إلا ماحرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة . فتقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة .

فهو — تعالى — لم يقصد حل ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١١٦

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك - رضى الله عنه - في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية ، (١) .

وفي حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطها العلماء فارجع إليها إذا شئت (٢).

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى - « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر » .

فقوله - تعالى - « وعلى الذين هادوا حرمنا » بيان لما حرمه الله - تعالى - على بني إسرائيل جزاء ظلمهم ، وفي هذا البيان رد على اليهود ، وتكذيب لهم ، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئاً ، وإنما هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فجاءت هذه الآية الكريمة لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التي كانت حلالا لهم — بسبب فسقهم وطغيانهم .

والمراد بقوله تعالى « كل ذي ظفر » ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير ، كالإبل والنعام والأوز والبط ، كما روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة .

قال الإمام الرازي : قوله - تعالى - : وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر « يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين :

الأول : أن قوله — تعالى — وعلى الذين هادوا حرمنا كذا وكذا يفيد الحصر في اللغة . لتقدم المعمول على عامله .

الثاني : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة في حق الكل لم يبق لقوله « وعلى الذين هادوا حرمنا فائدة . . . » (٣) .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٨٤ للسيوطي

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٧ ص ١١٥ وما بعدها وتفسير المنار ج ٨ ص ٢٤٩ وما بعدها

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٦

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حرم عليهم من ذوى الظفر فقال ـ تعالى ـ :
(ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم) .

والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها يكون لحمه سميناً والعرب تسمى سنام البعير، وبياض البطن شحماً، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان .

والحوايا : ـ كما قال ابن جرير ـ جمع حاوياء وحاوية، وحوية وهى ماتحوى من البطن فاجتمع واستدار، وفسرت بالمباعر، والمرابض التى هى مجتمع الأمعاء فى البطن (١) .

والمعنى : كما حرمنا على اليهود كل ذى ظفر، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة، إلا ما استثنيناه من هذه الشحوم وهو ما حملت ظهورهما أو ما حملت حواياهما، أو اختلط من هذه الشحوم بعظمهما . فقد أحللناه لهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم فقال تعالى : (ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) أى . هذا الذى حرمناه على الذين هادوا من الأنعام والطير ومن البقر والغنم، وهذا التضييق الذى حكمنا به عليهم، إنما ألزمناهم به، بسبب بغيهم وظلمهم، وتعديهم حدود الله تعالى قال قتادة : إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديداً عليهم) .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود، من الأنباء التى لم يكن النبى (صلى الله عليه وسلم) وقومه يعلمون عنها شيئاً لأميتهم، وكان تكذيب اليهود له بأن الله

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٧٥

لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم ، لما كان الأمر كذلك ، أكد الله هذا النبأ بقوله : « وإنا لصادقون » . أى : وإنا لصادقون – يا محمد – فيما أخبرناك به ، ومن بينه ماأعلمناك عنه مما حرمناه على اليهود من الطيبات وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه ، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه .

ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم ، فإنهم تحايلوا على شرع الله ، وأخذوا يذيبونها ويستعملونها فى شئونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها ، ولقد لعنهم النبى (صلى الله عليه وسلم) بسبب هذا التحايل فى أحاديث متعددة .

من ذلك ماروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قاعداً خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء وقال : « لعن الله اليهود – ثلاثا – إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه » (١) .
وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول عام الفتح (إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود ، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : (لا . هو حرام) ثم قال رسول الله (ﷺ) عند ذلك (قاتل الله اليهود) ، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها . أى : أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها (٢) .

ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان ، فقال – تعالى – : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » أى : فإن كذبك – يا محمد – هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين ، فيما أخبرناك عنه من أنا

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٥
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٨٥

حرمنا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم ، فقل لهم . إن الله — تعالى — ذو رحمة واسعة حقاً ورحمته وسعت كل شيء ، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة ، ولا من عصاه بالنقمة ، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه ، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستمرين على اقتراف المنكرات ، وارتكاب السيئات .

فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران ، حتى يعودوا إلى طريق الحق . إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى ، ويعتبر بالموعظة .

ثم حكى القرآن بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التى تمسك بها المشركون فى شركهم وجهالاتهم ورد عليها بما يبطلها ويخرس ألسنة قائليها أو المتذرعين بها فقال :

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة : قديمة لأن كثيرا من مجادلى الرسل موهوا بها ، وحديثة لأنها دائما تراود كثيرا من

المتمسكين بالأوهام فى سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة

إنهم يقولون عند ما يرتكبون القبائح والمنكرات : هذا أمر الله ، وهذا قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها ، إلى غير ذلك من اللغو الباطل ، والكلام العابث الذى يريدون من ورائه التحلل من أوامر الله ونواهيه .

ولنتدبر سوياً أيها القارىء الكريم - هذه الآيات ، وهى تحكى تلك الشبهات الباطلة ، ثم تقذفها بالحق الواضح ، والبرهان القاطع ، فإذا هى زاهقة

يقول - سبحانه - « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » .

أى : سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به آباؤنا من قبلنا ، لنفدت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا .

ولو شاء كذلك ألا نحرم شيئاً مما حرمناه من الحرث والأنعام وغيرها لتمت مشيئته ولما حرمنا شيئاً مما حرمنا .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم ما نحرم من الحرث والأنعام وقد رضى لنا ذلك فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله دخولنا فيه ؟

قال الآلوسى ما ملخصه : « وهم لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح ، لأنهم لم يعتقدوا قبح أفعالهم وهى أفعى لهم . . . وإنما مرادهم من هذا القول الاحتجاج على أن ما ارتكبوه - من الشرك والتحريم - حق ومشروع ومرضى عند الله ، بناء على أن المشيئة والإرادة تساوق الأمر وتستلزم الرضا ، فيكون حاصل كلامهم .

إن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت به مشيئة الله وإرادته ،

وكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنده . فينتج أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم مشروع ومرضى عند الله »(١) .

وقد حكى القرآن فى كثير من آياته ما يشبه قولهم هذا ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم . . . »(٢) .

وقوله ـ تعالى ـ « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون »(٣) . وقد رد القرآن على قولهم بما يبطله فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » .

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إبطال الشرك ، قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم ، واستمروا فى تكذيبهم لهم حتى أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا .

ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين لرسلهم، أنهم عندما قال لهم الرسل عليهم السلام ـ اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله ، وزعموا أنه ما دام كذلك فهو مرضى عنده ـ سبحانه ـ فكان الرد عليهم بأنه لو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده ـ سبحانه ـ : لما أذاق أسلافهم المكذبين الذين قالوا لرسلهم مثل قولهم : عذابه ونقمته . ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال الآلوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الرد أن كلام المشركين يتضمن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٥٠

(٢) سورة النحل الآية ٣٥ .

(٣) سورة الزخرف الآية ١٩ .

تكذيب الرسل وقد دلت المعجزة على صدقهم ، ولا يخفى أن المقدمة الأولى وهى أن كل شيء بمشيئة الله: لا تكذيب فيها ، بل هى متضمنة لتصديق ماتطابق فيه العقل والشرع من كون كل شيء بمشيئة الله ، وامتناع أن يجرى فى ملكه خلاف ما يشاء . فمنشأ التكذيب هو المقدمة الثانية ، وهى أن كل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنه ، لأن الرسل عليهم السلام : يدعونهم إلى التوحيد ويقولون لهم : إن الله لا يرضى لعباده الكفر دينا ولا يأمر بالفحشاء ، فيكون قولهم : إن ما نرتكبه مشروع ومرضى عنده سبحانه: تكذيب لقول الرسل . وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية تعين أنها ليست بصادقة ، وحينئذ يصدق نقيضها وهى أنه ليس كل ما تعلقت به المشيئة والإرادة بمشروع ومرضى عنده : سبحانه : بناء على أن الإرادة لا تساوق الأمر(١) .

ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر الله : تعالى : رسوله أن يطالبهم بدليل على مزاعمهم فقال : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » .

أى : قل لهم يامحمد على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم « لو شاء الله ما أشركنا ... » ؟ إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، ونعرضه على ما جئتكم به من آيات بينة ودلائل ساطعة . فإن العاقل هو الذى لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل على مشيئة الله التى لا ندرى عنها شيئاً .

و « من » فى قوله « من علم » زائدة ، وعلم مبتدأ ، وعندكم خبر مقدم. وقوله : « فتخرجوه » منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية الواقعة بعد الاستفهام الإنكارى .

ثم بين حقيقة حالهم فقال: «إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون»

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٥٠ .

أى : أنتم لستم على شىء ما من العلم ، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا ، وما أنتم إلا تخرصون أى تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

وأصل الخرص : القول بالظن . يقال : خرصت النخل خرصا - من باب قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين ، واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى كذب .

وبعد أن نفى - سبحانه - عنهم أدنى ما يقال له علم وحصر ما هم عليه من دين فى أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لا يغنى من الحق شيئاً ، ووصمهم بالكذب فيما يدعون ، بعد كل ذلك أثبت لذاته - سبحانه - فى مقابلة ذلك الحجة العليا التى لا تعلوها حجة فقال :

قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ، .

الحجة : كما قال الراغب فى مفرداته : الدلالة المبينة للمحجة . أى : المقصد المستقيم .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين بنوا قواعد دينهم على الظن والكذب بعد أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دليل على مزاعمهم ، قل لهم : فلله وحده الحجة البالغة .. أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة ، والتى وصلت إلى أعلى درجات الكمال فى قطع عذر المحجوج وإزالة الشكوك عمن تدبرها وتأملها .

وقوله . . فلو شاء لهداكم أجمعين ، أى : لو شاء - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل ، لأنه لا يعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة آخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .

ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله.

نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه، فالطائع تحت المشيئة والعاصى تحت المشيئة، ولكن المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون، وليس العلم صفة تأثير وجبر.

ولقد شاء الله — تعالى — أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم وسن لهم شريعة لتكون مقياساً ثابتا لما يأخذون وما يدعون، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها.

وإذن فمشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها مختارا - وهو قادر على اختيار غيرها وعلى تغييرها وتبديلها - متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال، وهو مؤاخذ إن ضل ومأجور إذا اهتدى. غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينه يبصر النور، ومن يغمضها لا يراه، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى. ومن يحجب قلبه عنها يضل، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإذن فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا على معنى أنه أجبرهم عليه فهم لا يستطيعون عنه فكاكا، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم والتفكير الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها، وهذه السنة هى أنه لا جبر على طاعة ولا قسر على معصية.

وتقرير ذلك يؤخذ من قوله - تعالى - « قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » أى: فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته وقدرته لهداكم، ولكنه لم يشأ إجباركم على الضلالة، فهى مشيئة المنح

والتيسير وليست مشيئة الإلجاء والتسخير قال - تعالى - « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يطالب المشركين بإحضار من يشهدهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه من الحرث والأنعام وغيرها فقال :

« قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » .

هلم : لفظ يقصد به الدعوة إلى الشيء ، وهى اسم فعل بمعنى أقبل إذا كان لازما ، وبمعنى أحضر وائت إذا كان متعديا كما هنا ، ويستوى فيه الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث فى لغة الحجازيين .

أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه ، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين ، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ، ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصر مذهبهم .

ثم قال - سبحانه - « فإن شهدوا فلا تشهد معهم » أى : فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما آتاك الله من حجج وبينات .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ثم أمره بأن لا يشهد معهم ؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شىء لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود

لهم فى أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به . وقوله « فلا تشهد معهم » يعنى فلا تسلم لهم ماشهدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد معهم مثل شهادتهم وكان واحدا منهم (١) .

ثم قال - سبحانه - «ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا» أى : ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا التى أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم - إن وقعت - فإنما هى صادرة عن هوى وضلال.

ولم يقل - سبحانه - ولا تتبع أهواءهم بل قال : ولا تتبع أهواء الذين كذبوا ، فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة إمعانا فى التمسك بتقاليده الباطلة ، إنما هو صاحب هوى وظن لا صاحب علم وحجة .

وقوله « والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة .

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء ، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا للثقة بهم ، وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت فى بضع عشرة آية جانبا من رذائل المشركين وسخف تقاليدهم وعبث أهوائهم وفساد معاذيرهم وبطلان شبهاتهم وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويبطل حجتهم ، فيما أحلوه وحرموه فى شأن النذور والذبائح والمطاعم والمشارب وغير ذلك مما حكته الآيات الكريمة .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى أفق أرحب وأوسع ، وإلى ميدان أفسح وأشمل فتناديهم بأسلوب مؤثر بليغ ليستمعوا إلى ماحرم الله عليهم فيجتنبوه وإلى ما كلفهم به فيعملوه ، تناديهم ليتدبروا فى الأصول الكلية التى تقوم عليها العقيدة السليمة ، ويسعد بها المجتمع ، ويحيا فى ظلها الأفراد والجماعات

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٧٨

فى أمان واطمئنان . تناديهم ليسمعوا البيان الصحيح الحق فيما أحل الله وحرم من الأفعال والأقوال ليسمعوه ممن له وحده الحق فى أن يقوله، وفى أن يتلقى عنه تناديهم فتقول :

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

إن المتأمل فى هذه الآيات يراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه علاقة ينال بها السعادة والثواب، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة وسدت فى وجهه أبواب الشر التى تؤدى إلى انتهاك حرمات الأنفس

والأموال والأعراض ، وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة إسم «الوصايا العشر» نظرا لتذييل آياتها الثلاث بقوله - تعالى - «ذلكم وصاكم به»

روى الترمذى — بسنده — عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد النبى عليها خاتمة فليقرأ هذه الآيات «قل تعالوا أتل .. إلى قوله : لعلكم تتقون .

وروى الحاكم وصححه ، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله (ﷺ) : أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا قوله - تعالى - : «قل تعالوا أتل . . حتى فرغ منها ثم قال : من وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ، إن شاء الله أخذه ، وإن شاء عفا عنه» (١).

وروى البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال . لما أمر الله نبيه (ﷺ) أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه ، فوقف رسول الله (ﷺ) على منازل القوم ومضاربهم . فسلم عليهم وردوا السلام ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى ابن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم لساناً وأفصحهم بياناً . فالتفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال له :

إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال النبى (ﷺ) ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وان تؤونى وتنصرونى وتمنعونى حتى اؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً ياأخا قريش ؟ فتلا رسول (ﷺ) «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . . . إلى آخر الآيات الثلاث» .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٧

فقال له مفروق : وإلا تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه . فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية » .

فقال له مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانىء بن قبيصة : قـــد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، ويعجبنى ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول — إن آمنوا — بأرض فارس وأنهار كسرى . فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ثم نهض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

هذا جانب من فضائل هـذه الآيات الثلاث ، وذلك هو تأثيرها فى نفوس العرب ، والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لها فنقول :

لقد بدئت الآيات بقوله — تعالى — « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهـؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم ، تعالوا إلى وأقبلوا نحوى لأبين لكم ما حرمه ربكم عليكم ، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به ، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم ، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعتمونى سعدتم فى دينكم ودنياكم .

وفى تصدير هذه الوصايا بكلمة « قل » إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ، ليس الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا ، وفيه ـ أيضا ـ دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام وقد سبق أن بينا أن سورة الأنعام زاخرة بهذا الأسلوب التلقينى الذى يبدأ بكلمة « قل » .

والأصل فى كلمة « تعال » أن يقولها من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم اتسع فيها حتى عمت ، وهى تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعتهم من انحطاط هم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه ، وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفوا من حوله لتتحد وجهتهم ، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل .

وفى قوله « أتل » إيماء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين ، ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لا يحتاجون فى الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم ما يريدهم أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمتثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق .

— وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية فى اللطف وفى التكريم وفى حسن الموعظة وتوجيه الخطاب .

— وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من تحريم فى الحرث والنسل ما أنزل الله به من سلطان ، ولأن بيان أصول المحرمات يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل .

وفى نسبة التحريم إلى الرب الذى هو منبع الخير والإحسان . حض لهم على التدبر والاستجابة . لأن الذى حرم عليهم ذلك هو مربيهم ، فليس معقولا أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم .

— وقوله « أتل » جواب الأمر ، أى : إن تأتونى أتل . و « ما » فى قوله « ما حرّم » موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف أى : أقرأ الذى حرمه ربكم عليكم ، وهى فى محل نصب مفعول به ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، أى أتل

تحريم ربكم ، ونفس التحريم لا يتلى وإنما هو مصدر واقع موقع المفعول به ، أى : أتل محرم ربكم الذى حرمه هو . و « عليكم » متعلق بحرم أو باتل .

قال بعض العلماء : وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا - وهى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم - فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة . لا مفر من قبولها والبناء عليها ، فالله - تعالى - يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب « ما حرم ربكم » ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضباً للرب الذى قرره . مستحقاً لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء (١) » . ولننظر بعد ذلك فى الوصايا .

الوصية الأولى : « أن لا تشركوا به شيئاً » أى : أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى . بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شىء .

وصدر - سبحانه - هذه الوصايا بالنهى عن الشرك ، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفساداً للفطرة ، ولأنه هو الجريمة التى لا تقبل المغفرة من الله ، بينما غيره قد يغفره - سبحانه - قال - تعالى - : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على وحدانية الله - عز وجل - .

هذا ، وقد ذكر الشيخ الجمل فى إعراب هذه الجملة الكريمة ألا تشركوا به شيئاً عدة آراء منها :

---

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ٩١ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى - رحمه الله - .

١ — أنّ «أنْ» تفسيرية، لأنه تقدمها ما هو بمعنى القول لا حروفه، و«لا» ناهية و«لا تشركوا» مجزوم بها.

٢ — أن تكون «أن» ناصبة للفعل بعدها، وهي وما في حيزها في محل نصب بدلا من «ما حرم» و«لا» زائدة لئلا يفسد المعنى كزيادتها في قوله: «ألا تسجد»، و«لئلا يعلم».

٣ — تكون «أن» ناصبة وما في حيزها منصوب على الإغراء بعليكم ويكون الكلام قد تم عند قوله «ربكم» ثم ابتدأ فقال: عليكم ألا تشركوا أي الزموا نفي الشرك.

٤ — أنها وما في حيزها في محل نصب أو جر على حذف لام العلة، والتقدير تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئاً.

٥ — أن تكون هي وما بعدها في محل نصب بإضمار فعل تقديره: أوصيكم ألا تشركوا.

ونكتفي بهذا القدر من وجوه الإعراب التي توسع فيها النحاة توسعاً كبيراً، بسبب ورود بعض هذه الوصايا بصيغة النهي، وبعضها بصيغة الأمر مع تقدم فعل التحريم على جميعها (١).

أما الوصية الثانية في قوله — تعالى — «وبالوالدين إحسانا»، أي: أحسنوا بهما إحسانا كاملا لا إساءة معه.

وقد قرن — سبحانه — هذه الوصية بالوصية الأولى التي هي توحيده وعدم الإشراك به، في هذه الآية وفي غيرها، للإشعار بعظم هذه الوصية وللتنبيه إلى معنى واحد يجمعهما مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن يشكر: فالوالدان سبب في حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما، والله — تعالى — هو الخالق المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة.

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص١٠٧ وتفسير الآلوسي ج٨ ص٥٧.

– قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة ، سموا بالإنسان عن أن تظن به الاساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ، ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها إنما يتحقق بفعل الواجب ، وهو الإحسان لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة . لهذا وذاك قال - سبحانه - وبالوالدين إحسانا » .

– والإحسان يتعدى بحرفى الباء وإلى ، فقال : أحسن به ، وأحسن إليه ، وبينهما فرق واضح ، فالباء تدل على الإلصاق ، وإلى تدل على الغاية والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول « الباء » دون انفصال ولا مسافة بينهما ، أما الغاية فتفيد وصول الفعل إلى مدخول « إلى » ولو كان منه على بعد أو كان وبينهما واسطة ، ولا شك أن الإلصاق فى هذا المقام أبلغ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين ، ومن هنا لم يعد الإحسان بالباء فى القرآن إلا حيث أريد ذلك التأكيد ، وقد جاءت جميع الآيات القرآنية التى توحى بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب »(١) .

ثم جاءت الوصية الثالثة وهى قوله – تعالى – « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

الإملاق : الفقر ، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر .

أى : لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم .

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » .

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم . فمن الظلم المبين

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر ، مع أن الله ـ تعالى ـ هو الرازق لكم ولهم .

والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم التشاؤم ، وتتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوفا من جريمة متوهمة ، وذلك هو الضلال المبين .

ـ وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله ـ تعالى ـ « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » وليس إحداهما تكراراً للأخرى ، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .

ـ فهنا يقول ـ سبحانه ـ « من إملاق » أى : لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال : « نحن نرزقكم وإياهم » فجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذى يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلا .

ـ وفى سورة الإسراء يقول : « خشية إملاق » أى : خوفا من فقر ليس حاصلا ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال : « نحن نرزقهم وإياكم » فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

وجملة « نحن نرزقكم وإياهم » تعليلية لإبطال ما اتخذوه سبباً لمباشرة جريمتهم ، وضمان منه ـ سبحانه ـ لأرزاقهم أى : نحن نرزق الفريقين لا أنتم وحدكم ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن الأولاد

قطعة من أبيهم ، والشأن حتى فى الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

أما الوصية الرابعة فتقول : «ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن» الفواحش . جمع فاحشة وهى كما قال الراغب فى مفرداته - ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال: فحش فلان ، أى صار فاحشاً مرتكباً للقبائح ، والمتفحش هو الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل ، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور .

: وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها ظاهراً وما كان منها خافياً .

وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة - كما يقول علماء الأصول - فكأنه قال . إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك «فواحش» يجب أن تجتنب ، و«محاسن» يجب أن تلتمس هو المجتمع الفاضل الطهور .

أما المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الإباحية التى لا تفرق بين ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، فلا بد أن يكون مصيره إلى التدهور والتعاسة والمهانة .

وجملة «ما ظهر منها وما بطن» بدل اشتمال من الفواحش .

وتعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

ثم جاءت الآية فى ختامها بالوصية الخامسة فقالت : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله بالحق » .

أى : لا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعاً كردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم .

قال ابن كثير : وهذا مما نص - تبارك وتعالى - على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (١) .

وقوله « إلا بالحق » فى محل نصب على الحال من فاعل « تقتلوا » أى : لاتقتلوها ملتبسين بالحق ، ويجوز أن يكون وصفاً لمصدر محذوف أى : قتلا ملتبساً بالحق ، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى : لاتقتلوها فى حال من الاحوال إلا حال ملابستكم بالحق .

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء الله فلا يحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على الناس جميعاً : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

ثم ختمت الآية بقوله -تعالى- « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به ، وطلبه منكم . لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٩٠

فاسم الإشارة « ذلكم » مشار به إلى الوصايا الخمس السابقة ، وهو مبتدأ وجملة وصاكم به خبر .

ولفظ وصاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أو صياء له - تعالى - ما يحمل النفوس على الطاعة والاستجابة .

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، ولم يكن ثبوتها إلا تجاريا مع الفطرة ، فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا ، وشكر النعمة يقتضى الإحسان إلى الوالدين طبعا ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ، والنفوس معصومة فليس لأحد أن يهدمها الا بحق ، ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول « لعلكم تعقلون » .

والوصية السادسة تأتى فى مطلع الآية الثانية فتقول : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

أى : لا تقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى ، ولا تتعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل ، كتربيته وتعليمه ، وحفظ ماله واستثماره .

وإذن ، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - محظور ، ومنهى عنه .

قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء ، وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن « القربان » ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانه تصل بها إلى اقتراف المحرم ، وكان من ذلك فى

الوصايا السابقة النهى عن الفواحش ، ومن هذا الباب « ولا تقربا هذه الشجرة » « ولا تقربوا الزنا » ولا تقربوهن حتى يطهرن » إلخ ،

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه . ومن ذلك فى الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو فى حكم الكاره »(١) .

وقوله : « حتى يبلغ أشده » ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضى إباحة أكل الولى له بعد بلوغ الصبى ، بل هو غاية لما يفهم من النهى كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغا رشيداً فحينئذ سلموا إليه ماله .

والخطاب للأولياء والأوصياء . أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه .

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته ؛ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . ولا واحد له .

الوصية السابعة : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها » .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

أى : أتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون .

فالجملة الكريمة أمر من الله — تعالى — لعباده بإقامة العدل فى التعامل : بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

والكيل والوزن : مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن ، كالعيش بمعنى ما يعاش به . وبالقسط حال من فاعل أوفوا أى : أوفوهما مقسطين أى : متلبسين بالقسط . ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى : أوفوا الكيل والميزان بالقسط أى : تامين .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

والمجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها أحدا يغبن عن جهل أو غفلة ، وهى أيضاً المجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه . أو يعطى أقل مما يجب عليه .

وقوله « لا نكلف نفسا إلا وسعها » أى : لا نكلف نفسا إلا ما يسعها ولا يعسر عليها . والجملة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل ، للترخيص فيما خرج عن الطاقة ، ولبيان قاعدة من قواعد الإسلام الرافعة للحرج وذلك لأن التبادل التجارى لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة أو التعادل ، فلا بد من تقبل اليسير من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك .

والوصية الثامنة تقول : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

أى : وإذا قلتم قولا فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه صاحب قرابة منكم .

إذ العدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول ، والعدل فى الحكم، والعدل فى كل فعل .

وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى الأقوال والأفعال وفى كل شىء ، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال . فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه فى شأنها ، ويراوده معنى العدل وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل، فإذا لم يكن صادقا فى هذا القول فقد جافى العدل وقال زوراً وكذبا .

أما قوله « ولو كان ذا قربى » فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم .

فالقرآن يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ، بأن يكلفه بتحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

أما الوصية التاسعة والأخيرة فى هذه الآية فهى قوله — تعالى — « وبعهد الله أوفوا » أى : كونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

إذ الوفاء أصل من الأصول التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس .

وقوله : « وبعهد الله أوفوا » يفيد الحصر لتقديم المعمول ، وفى هذا إشعار بأن هناك عهوداً غير جديرة بأن تنسب إلى الله ، وهى العهود القائمة على الظلم أو الباطل ، أو الفساد ، فمثل هذه العهود غير جديرة بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها .

ثم ختمت الآية بقوله — تعالى — « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »

أى : ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى وصاكم الله به فى كتابه رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا مانهيتم عنه أو رجاء أن يذكر بعضكم بعضا فإن التناصح واجب بين المسلمين .

أما الوصية العاشرة فهى قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من هذه الآيات : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

قرأ الجمهور بفتح همزة « أن » وتشديد النون . ومحلها مع ما فى حيزها الجر بحذف لام العلة . أى : ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه ، فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .

ويحتمل أن يكون محلها مع ما فى حيزها النصب على « ماحرم » أى : وأتلوا عليكم أن هذا صراطى مستقيما .

وقرأ حمزة والكسائى « إن » بكسر الهمزة على الاستئناف .

وقوله « ولا تتبعوا السبل » يعنى الأديان الباطلة ، والبدع والضلالات الفاسدة « فتفرق بكم عن سبيله » أى . فتفرقكم عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لكم .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : خط لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطأ ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه ثم قرأ « وأن هذا صراطى مستقيما » . .

وقد أفرد - سبحانه - الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ماخالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » أى :

ذلكم المذكور من اتباع سبيله ـ تعالى ـ وترك اتباع السبل وصاكم الله به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر والضلالة، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين .

قال أبو حيان : ولما كانت الخمسة المذكورة فى الآية الأولى من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعلقها وتفهمها ختمت الآية بقوله « لعلكم تعقلون » ، ولما كانت الأربعة المذكورة فى الآية الثانية خافية غامضة ولا بد فيها من الاجتهاد والتفكر حتى يقف الإنسان فيها على موضع الاعتدال ختمت بقوله: « لعلكم تذكرون » ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر ـ سبحانه ـ باتباعه ونهى عن اتباع السبل المختلفة ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية »(١) .

وبعد : فهذه هى الوصايا العشر التى جاءت بها هذه الآيات الكريمة ، والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله ـ تعالى ـ وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء ، وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح .

فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا ؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا فى دنياهم ولسعدوا فى أخراهم ، فهل تراهم فاعلون ؟

اللهم خذ بيدنا إلى مايرضيك وجنبنا مالا يرضيك ،

ولما كان هذا الصراط قديماً ، والديانات قبله كانت فى اتجاهه ، أشار ـ سبحانه ـ إلى موسى وكتابه ، وبين منزلة هذا القرآن ، وأمر الناس باتباعه فقال :

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٤ ص ٢٥٤ .

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال الآلوسى: قوله «ثم آتينا موسى الكتاب.. الخ» كلام مستأنف مسوق من جهته ـ تعالى ـ تقريرا للوصية وتحقيقا لها، وتمهيداً لما تعقبه من ذكر إنزل القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله، ذلكم وصاكم به، بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريراً لمضمونه، فعلنا ذلك «ثم آتينا...» وقيل عطف على «ذلكم وصاكم به». وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة، كأنه قيل: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» ثم أتل عليهم ما آتاه الله موسى»(١).

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٥٩.

وكلمة ثم لاتفيد الترتيب الزمنى هنا ، وإنما تفيد عطف معنى على معنى ، فكأنه - سبحانه - يقول : لقد بينت لكم فى هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً .

وقوله : « تماماً على الذى أحسن » قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله ضمير الذى ، أى : آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان . فالذى لجنس المحسنين .

وتدل عليه قراءة عبد الله « تماماً على الذين أحسنوا » وقراءة الحسن « على المحسنين » .

ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى : آتينا موسى الكتاب تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى - عليه السلام - و « تماماً » مفعول لأجله أى : آتيناه لأجل تمام نعمتنا ، أو حال من الكتاب ، أى : حال كونه أى الكتاب تاماً . أو مصدر لقوله « آتينا » من معناه . لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً . فهو « كنباتاً » فى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » أى إنباتاً .

وقرأ يحيى بن يعمر « على الذى أحسن » بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و « الذى » وصف للدين أى : تماماً على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه .

قال ابن جرير : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح ، لخلافها ما عليه الحجة بجمعة من قراء الأمصار »(١) .

وقوله : « وتفصيلا لكل شىء » معطوف على ماقبله ، أى : وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم .

وقوله : « وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » أى : هذا الكتاب

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٦٧ .

هداية لهم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن عمل به لعلهم،أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب يصدقون بيوم الجزاء ، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد .

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » أى : وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه رسولنا صلى الله عليه وسلم كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين ، وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة ، والسعادة الثابتة .

« فاتبعوه » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام .

« واتقوا » مخالفته واتباع غيره .

« لعلكم ترحمون » أى : لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه .

ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال : « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين » .

أى : أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة ،أو لئلا تقولوا لو لم ننزله : إنما أنزل الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى ، وإنا كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا .

فقوله : « أن تقولوا » مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدراً مدلولا عليه بنفس أنزلناه الملفوظ به فى الآية السابقة أى : أنزلناه كراهية أن تقولوا .

وقيل إنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضاً - « واتقوا . . » أى . واتقوا قولكم كيت وكيت . وقوله « لعلكم ترحمون » معترض جار مجرى التعليل .

والمراد بالكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور .

وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام.

والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم ساق - سبحانه - آية أخرى لقطع أعذارهم فقال . . « أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » .

أى : وأنزلنا الكتاب - أيضاً - خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا ، لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع منهم استجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا ، وتوقد أذهاننا ، وتفتح قلوبنا .

وقوله : « فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » جواب قاطع لأعذارهم وتعلاتهم أى : فقد جاءكم من ربكم عن طريق نبيكم محمد - ﷺ - هذا الكتاب الواضح المبين ، والذى هو هداية لكم إلى طريق الحق، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات .

وقوله : « فقد جاءكم . . » متعلق بمحذوف تنبىء عنه الفاء الفصيحة إما معلل به أى : لا تعتذروا فقد جاءكم . . وإما شرط له أى إن صدقتم فيما كنتم تعدون به . . فقد حصل ما فرضتم وجاءكم بينة من ربكم . .

والاستفهام فى قوله « فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها » للإنكار والنفى . أى : لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته ببيناتها الكاملة ، وهداياتها الشاملة .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ..؟ ومعنى : وصدف عنها أى : أعرض عنها غير متفكر فيها، أوصرف الناس عنها وصدهم عن سبيلها . فجمع بين الضلال والإضلال .

ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقوله : « سيجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » أى : سنجزيهم أسوأ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها .

فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم القيامة المكذبون لرسول الله (ﷺ) وللقرآن الكريم ، وتتوعدهم بأشد ألوان العذاب .

ثم يمضى القرآن فى تهديدهم خطوة أخرى . رداً على ما كانوا يطلبون من الآيات الخارقة ، وتحذيراً من إعراضهم وتقاعسهم عن طريق الحق مع أن الزمن لا يتوقف ، والفرص لا تعود فيقول :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

أى : ما ينتظر مشركو مكة وغيرهم من المكذبين بعد إعراضهم عن آيات الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم من أجسادهم .

والجملة الكريمة مستأنفة لبيان أنهم لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى .

قال البيضاوى : وهم ما كانوا منتظرين لذلك ، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين .

وقوله : « أو يأتى ربك » أى : إتياناً يناسب ذاته الكريمة بدون كيف أوتشبيه للقضاء بين الخلق يوم القيامة ، وقيل المراد بإتيان الرب ، إتيان ما وعد به من النصر للمؤمنين والعذاب للكافرين .

وقوله : « أو يأتى بعض آيات ربك » أى : بعض علامات قيام الساعة ، وذلك قبل يوم القيامة ، وفسر فى الحديث بطلوع الشمس من مغربها .

فقد روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وفى رواية لمسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال ، ودابة الأرض.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه عند مجىء علامات الساعة لا ينفع الإيمان فقال:

« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

أى : عند مجىء بعض أشراط الساعة ، يذهب التكليف ، فلا ينفع الإيمان حينئذ نفساً كافرة لم تكن آمنت قبل ظهورها ، ولا ينفع العمل الصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراط ، لأن العمل أو الإيمان عند ظهور هذه العلامات لا قيمة له لبطلان التكليف فى هذا الوقت .

قال الطبرى : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع ـ أى طلوع الشمس من مغربها ـ إيمان بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن

عمل صالحاً قبل الطلوع ، بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ . حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة ، وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال - تعالى - « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » وكما ثبت فى الحديث الصحيح : إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » (١) .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً فى عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث ، وعليه يحمل قوله - تعالى - : « أو كسبت فى إيمانها خيراً » أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك » (٢) .

وقوله : « قل انتظروا إنا منتظرون » تهديد لهم . أى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون ، فإنا منتظرون معكم لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » .

أى : إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة : « وكانوا شيعاً » أى فرقاً ونحلا تتبع كل فرقة إماماً لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر إلى الحق .

وقوله : « لست منهم فى شىء » أى : أنت برىء منهم محمى الجناب عن مذاهبهم الباطلة ، وفرقهم الضالة . أو لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء إذ هم قد انطمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الهدى .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٧٤

(٢) « ابن كثير جـ ٢ ص ١٩٥

وقوله : «إنما أمرهم إلى الله» تعليل للنفي المذكور قبله أي : هو يتولى وحده أمرهم جميعاً ، ويدبره حسب ماتقتضيه حكمته ، «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون» .

وقوله : «ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون» أي : ثم يخبرهم يوم القيامة بما كانوا يفعلونه فى الدنيا من آثام وسيئات ، ويعاقبهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات .

والآية الكريمة عامة فى كل من فارق تعاليم الإسلام سواء أكان مشركا أم كتابياً ، ويندرج فيها أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة فى كل زمان ومكان ، كالقاديانية ، والباطنية ، والبهائية ، وغير ذلك من أصحاب الأهواء والبدع والضلالات .

قال ابن كثير : «والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه «وكانوا شيعا» أي : فرقا كأهل الأهواء والملل والنحل والضلالات ، فإن الله قد برأ رسوله منهم . وهذه الآية كقوله تعالى : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك . . . الآية» .

وفى الحديث : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ديننا واحد» فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل براءة منها كما قال — تعالى — «لست منهم فى شىء» (١) .

ثم بين — سبحانه — لطفه فى حكمه ، وفضله على عباده ، بمناسبة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٩٦

الحديث عن الجزاء فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

أى : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة . فله عشر حسنات أمثالها فى الحسن ، فضلا من الله — تعالى — وكرماً .

قال بعضهم : وذلك — ولله المثل الأعلى — كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته لا قيمة العنقود . والعشر أقل ما وعد من الأصناف ، وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ، ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص .

(ومن جاء بالسيئة) أى : بالأعمال السيئة (فلا يجزى إلا مثلها) أى : فلا يجزى بحكم الوعد إلا بمثلها فى العقوبة واحدة بواحدة (وهم لا يظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب . فإن ربك لا يظلم أحدا .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : يقول الله — تعالى — : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة) .

ثم ختمت السورة الكريمة بخمس آيات جامعة لوجوه الخير ، من تأملها تجلى له أنها ختام حكيم يناسب هذه السورة التى هى سورة البلاغ والإعلان ، والمبادىء العليا لدعوة الإيمان .

أما الآيات الخمس فهى قوله — تعالى — :

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم ، قل لهم جميعاً : لقد هدانى خالقى ومربيى إلى دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده (ديناً قيماً) أى : ثابتاً أبداً لا تغيره الملل والنحل ولا تنسخه الشرائع والكتب .

وقوله (ديناً) نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هدانى صراطاً ، أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى : عرفنى ديناً .

وقوله (قيماً) صفة (لديناً) والقيم والقيم لغتان بمعنى واحد وقرىء بهما

وقوله (ملة إبراهيم) منصوب بتقدير أعنى أو عطف بيان لـ (ديناً) و (حنيفاً) حال من إبراهيم . أى : هدانى ربى ووفقنى إلى دين الإسلام

الذى هو الصراط المستقيم والدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذى كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق ، والذى ما كان أبدا (من المشركين) مع الله آلهة أخرى فى شأن من شئونه . لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم .

ثم قل لهم للمرة الثانية : إن صلاتى التى أتوجه بها إلى ربى (ونسكى) أى عبادتى وتقربى إليه - وهو من عطف العام على الخاص - وقيل المراد به ذبائح الحج والعمرة . (ومحياى ومماتى) أى : ما أعمله فى حياتى من أعمال وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح .

كل ذلك (لله رب العالمين) فأنا متجرد تجرداً كاملا لخالقى ورازقى بكل خالجة فى القلب ، وبكل حركة فى هذه الحياة .

فهو — سبحانه — رب كل شىء . ولا شريك له فى ملكه ، بذلك القول الطيب ، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين الممتثلين لأوامر الله والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة .

ثم قل لهم للمرة الثالثة على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار لواقعهم : (أغير الله أبغى رباً) أى : أغير الله — تعالى — تريدوننى أن أطلب رباً فأشركه فى عبادته ، والحال والشأن أنه — سبحانه — هو رب كل شىء ومليكه ، وهو الخالق لكل شىء .

فجملة (وهو رب كل شىء) حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال .

ثم بين — سبحانه — أن كل إنسان مجازى بعمله فقال : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أى : لا تجترح نفس إثما إلا عليها من حيث عقابه . فلا يؤاخذ سواها به ، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى : ولا تحمل نفس مذنبة ولا غير

عقوبة ذنب نفس أخرى ، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب .

قال القرطبى : وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك)، وهو هو الذنب كما فى قوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم)(١).

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : (ثم إلى ربكم مرجعكم ، أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم تختلفون) بتمييز الحق من الباطل ، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب عمله .

ثم ختمت السورة بهذه الآية (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) أى : خلائف من القرون الماضية ، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم .

وخلائف : جمع خليفة ، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة ، لأنه يخلفه .

وقوله : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى : فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك .

ثم بين - سبحانه - العلة فى ذلك فقال : (ليبلوكم فيما آتاكم) أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم ، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره .

وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله

مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء) .

ثم رهب — سبحانه — من معصيته ، ورغب فى طاعته فقال . (إن ربك سريع العقاب) لمن عصاه وخالف رسله .(وإنه لغفور رحيم) لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين .

أما بعد : فهذه هى سورة الأنعام التى عالجت من مبدئها إلى نهايتها قضية العقيدة بكل مقوماتها علاجاً قوياً حكيماً يهدى إلى الرشد لمن عنده الاستعداد لذلك ، والتى طوفت بالنفس البشرية فى الكون كله لترشدها إلى خالق هذا الكون ، وتجعلها تستجيب له وتنتفع بما منحها من نعم ، والتى اكشفت عن مواطن الشرك ومظاهره فى كل مظانه ومكامنه . لتدمغه وتدحضه وتخلص النفس البشرية والحياة الإنسانية من أمراضه وأدرانه .

تلك هى سورة الأنعام التى نزلت مشيعة بالملأ العظيم من الملائكة وذلك تفسير تحليل لها ، لا نزعم أننا استقصينا فيه كل ما يتعلق بهذه السورة الكريمة ، من توجيهات وهدايات ، وإنما هو قبسات من نور القرآن الكريم ، نرجو الله أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس تفسير سورة «الأنعام»

رقم الآية	الآية المفسرة	ص
١٣١	ذلك أن لم يكن ربك	٢٤٠
١٣٢	ولكل درجات	٢٤٣
١٣٣	وربك الغنى ذو الرحمة	٢٤٥
١٣٤	إن ماتوعدون لآت	٢٤٩
١٣٥	قل ياقوم اعملوا	٢٥١
١٣٦	وجعلوا لله مما ذرأ	٢٥٣
١٣٧	وكذلك زين لكثير	٢٥٥
١٣٨	وقالوا هذه أنعام	٢٥٦
١٣٩	وقالوا ما فى بطون هذه	٢٥٧
١٤٠	قد خسر الذين	٢٥٩
١٤١	وهو الذى أنشأ	٢٦٠
١٤٢	ومن الأنعام حمولة	٢٦١
١٤٣	ثمانية أزواج	٢٦٥
١٤٤	ومن الإبل اثنين	٢٦٩
١٤٥	قل لا أجد فيما	٢٦٩
١٤٦	وعلى الذين هادوا	٢٧٠
١٤٧	فإن كذبوك فقل	٢٧٢
١٤٨	سيقول الذين أشركوا	٢٧٤
١٤٩	قل فلله الحجة البالغة	٢٧٦
١٥٠	قل هلم شهداءكم	٢٨٠
١٥١	قل تعالوا أتل	٢٨٥
١٥٢	ولا تقربوا مال اليتيم	٢٨٩
١٥٣	وان هذا صراطى	٣٠٠
١٥٤	ثم آتينا موسى الكتاب	٣٠١
١٥٥	وهذا كتاب أنزلناه	٣٠٢
١٥٦	أن تقولوا إنما	٣٠٣
١٥٧	أو تقولوا لو أنا	٣٠٤
١٥٨	هل ينظرون إلا	٣٠٥
١٥٩	إن الذين فرقوا	٣٠٧
١٦٠	من جاء بالحسنة	٣٠٩
١٦١	قل إننى هدانى ربى	٣١٠
١٦٢	قل إن صلاتى	٣١١
١٦٣	لاشريك له وبذلك	٣١١
١٦٤	قل أغير الله أبغى	٣١٢
١٦٥	وهو الذى جعلكم	٣١٢

رقم الإيداع ٥٠٢٠ / ١٩٨٣



٧ ش. الباب الأخضر المشهد الحسينى
القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨